سامية أحمد

# خارج الزون

رواية

فريق
متميزون
E-BOOK

Outside The Zone

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

**قام بالتحويل لهذا الكتاب:**

# كلمه مهمة:

**هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.**
**وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.**

**مع تحيات:**

**فريق (متميزون)**

**انضم الى الجروب**

**انضم الى القناة**

# خارج الزون

رواية..

سامية أحمد

# عن الرواية..

لا مكان آمن في هذا العالم، أنا هنا خارج «الزون»، فإما أن أذهب لمنطقة النجاة، أو أموت في أي مكان خارجها.. لا فارق.

لا أصدق أنني تخلصت أخيرا من هالة، صارت خارج الزون وكل منافذ النجاة غُلِّقَت من دونها، لكن ثقتي بمهارتها في الفوز في أي لعبة تدخلها، يهدم أي أمل لي في الخلاص منها، قد تجد سبيلًا غامضًا للعودة إلى الزون، أو ينتهي أمرها بالبقاء خارجها - كما أتمنى - فهي السبب الرئيسي في دمار عالمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما يصبح التّاريخ لعبةً بيدِ مراهقٍ حاقدٍ على الحياة

فلا تتوقّع سوى ملهاة مأساويّة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# إهداء..

إلى ابنتي الحبيبة هبة

وإلى كل طالب وطالبة يكره كتاب الدراسات الاجتماعية ويتجرع دروس التاريخ فلا يكاد يسيغه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ما قبل المقدمة

لا أحد سواي يعلم بتلك الحقيقة المرعبة، فلم يكن أحد هناك معنا في الظّلام، في ليلةِ شتاءٍ قارصٍ وقت نوة من أشدّ النوات الشتويّة..

رأيتهما بعينيّ يغوصان معاً تحت ظلمات الماء، وبقيت وحدي متجمداً في الظّلام على ظهرِ المركب، مقطوع الأنفاس، أرتجف بشدَّة، من البرد، بل من الرعب...

المطر لا ينقطع، والسماءُ المظلمة تشقّها شرارات البرقِ المرعبة، وصوت الرّعد يصمّ الآذان.

بدأت الآن فقط أستوعب الأمر، هل ماتت هالة؟!

ماذا سأفعل الآن، وكيف سأنجو؟!

فجأةً اهتزّت المركب ومالت بشدَّة، لم أتبيّن السبب إلا بعد أن شقّ السّماء ضوءُ البرق، فرأيت كفاً تتعلّق بجانبِ المركب!

كدت أموت رعباً بعد أن أدركت أن «البرنس» خرج من الماء وسينتقمُ منّي...

أو أن عقلي كان يتوهّم أنه «البرنس» حتى لا يقرّ بالحقيقة الأبشع التي ستحيلُ حياتي إلى جحيمٍ أبديّ لا نجاةَ منه

كانت هالة تتسلَّق جانب المركب وهي تخرج من الماءِ كالنداهة التي كانت يوماً بطلة الحكايات المُرعبة القديمة، ثمَّ انزلقت إلى داخلِ المركب، وهي تسعل وتتقيّأ الماءَ الذي ابتلعته.

كانت قد فقدت وشاحها والتصق شعرها الأسود على الجانبين، وغطّى نصف وجهها الذي رفعته نحوي بنظرةِ شرٍ قادحة، فأخذت أنكمشُ في مكاني وأتمنى أن أختفيَ أو أصيرَ قطعاً من خشبِ المركب، وأنا أراها بتلك الهيئة المُرعبة تنهض ببطءٍ على أربعٍ وتتقدّم نحوي.

لم يعد لديّ شكٌّ بأن مصيري الآن كمصيرِ الضّحايا في أفلامِ الرّعب والوحوش الأمريكية.

وقفت هالة أمامي بهيئتها الرّهيبة المخيفة التي شلّت جسدي، وقلبي يكاد يتوقّف من الرّعب.

ثم انقضّت عليّ فلم تفلتني...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# مقدمة..

لقد سُرِق مني دور البطولة في تلك الرواية الكريهة، لذلك فلن أتنازلَ عن مقعدِ الراوي فيها انتقاماً ممن اغتصب دور البطولة منّي.

وليتحمل القارئ عاقبة ذلك وحده، وليستمع لروايتي أنا للأحداث، وبالتأكيد لن يملك أن يكذّبني، فأنا هنا الراوي الوحيد ولا أحد سواي، وعلى القارئ أن يخضعَ لشروطي مهما كانت إن قرّر أن يقرأ تلك الرواية، فلا اعتراضات من أمثلة:

لم تكن موجوداً عندما حدث ذلك...

كيف سمعتهم وأنت بعيد...؟!

من أخبرك أنّهم فعلوا كذا...؟!

إن كنت قارئ متذاكي فالباب يفَوّت جمل، وإياكَ أن تخطو بعقلك فوق سطور روايتي.

أمّا وإن قررت أن تقرأ فعليك أن تسلّم عقلك كاملاً لي، ولا تعترض مهما كان ما ستقرأه غريباً، ومهما كانت روايتي عجيبة

لقد حذّرتك من البداية، فلا أسمع لك صوتاً بعد ذلك.

واااو...!

إن السّلطة رائعةٌ بحقّ، ولا سلطة أشدّ ولا أقوى من راوٍ يحكي روايةً مثيرة يمتلك بها عقول القرّاء ولو لبعض الوقت، أعطني عينيك وعقلك، واستمع لروايتي، أنا زيزو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# ساحرة

إذا ما امتلكتُ يوماً آلة الزمن! فأوّل ما سأفعله بها هو تدميرُ تلك البلدة!

تمنّيت مراراً أن أصنع ثقباً في التاريخ يبتلعها، ويبتلع كلّ تلك الحكايات الغبيّة التي لا يكفّ الشّيوخ والعجائز عن ترديدها، وتتوارثها تلك العقول المتخلّفة التي صارت إخوة للبهائمِ من كثرةِ ما طعمت الفول المدمّس والفلافل والبصارة.

بلدةٌ تعيش على ركامِ الماضي ويموت شبابها بالشّيخوخة قبل أن يبلغوا الحلم.

لم أستطع أبدا أن أخرجَ أمنياتي على طرفِ لساني، فأبقيتها حبيسة صدري اتّقاءا للأضرارِ التي يحدثها شبشب هالة الطّائر، فمنذ تلك اللّيلة المشؤومة التي خرجت فيها من البحرِ كجنيةٍ مرعبة، صرت متيقناً من أنّها «مخاوية» مسّها جنيّ فمنحها من قدراتهِ الشّيطانية، وتلك الملعونة تعلم جيداً أنني أخشاها، فصارت تستغلّ ذلك أسوأ استغلال، فمنذ أن تخطّت الثامنة عشر تولّت هي مكان أمّي في تأديبي بعد أن صرتُ طولها (طول أمّي بالطّبع) فلم يصل طولي بعد لتتساوى رأسي برأسِ هالة التي تقول أمّي عنها أنّها ورثت الطّول الفارع والجسد المفتول عن أبي، ومع إضافة المنحنيات الأنثويّة التي يحدثها خراط البنات في جسدِ الفتيات - كما تقول أمّي - أصبحت من النّوع «الكيرفي» لا هي نحيفةٌ ولا ممتلئة، لكنّها تمتلك قوةَ عضلاتٍ تجعلني أخرس أمامها ولا أفضي بأيّ كلمةٍ تعيب في تلك البلدة ذات الحضارة والتّاريخ والعراقة والأصالة، وكلّ تلك الشّعارات الغبيّة التي نقرأها في كتبِ الدراسات الاجتماعية في المدرسة، إذا ما صادف وتذكّروا فجأةً أن ها هنا بلدة تنتمي لمصر وتسمى «رشيد».

هنا يعيش ثلاثتنا معاً، أنا وأمّي وهالة التي احتلّت مكان رجل البيت بعد أن ظلّ فارغاً بضعة سنواتٍ قليلة، فقد تركنا أبي وغادر على إحدى مراكب المهاجرين للعالم الأوّل، فبعد أن كانت بلدتنا في الماضي البعيد جداً تستقبل أفواجاً من دولِ أوروبا هاربين من الفقرِ أو الحربِ أو طامعين في الحياةِ في ظلّ جنةِ الشرق، آن الأوان لتردّ الجميل وتركل شبابها لتشحنهم زرافات داخل قوارب مطاطيّة أو مراكبٍ خشبيّة مهترئة وتلقي بهم قرب الشواطئ الأوروبيّة؛ ليكملوا وحدهم الطّريق سباحةً كصغارِ السلاحف الخارجين من البيوض حديثاً، بعضهم ينجح في الوصولِ لأوروبا، وبعضهم ينجح في الوصولِ للسّماء، وكثير تفشل محاولتهم ليعودوا من حيث أتوا ليدبّروا لرحلةٍ جديدة، لم تفشل رحلة أبي، فهو لم يعد، ولكننا حتى الآن لا نعرف إلى أيّ وجهةٍ نجح أبي في الوصول، ولا أحد منا يستطيع أن يجاهرَ أمام أمّي بتلك السيرة لئلّا يحزنها ذلك الحزن الذي تبقى بعده ليالٍ صامتةٍ شاردةٍ يبكي قلبها دماً دون أن تبدي به، أمّي الجميلة التي لم تصل بعد للأربعين ولا يعرف بعد إن كانت أرملةً أو أن زوجها تركها وهرب...

كم من مرةٍ انزلق لساني بما في قلبي وأنا أقرّ حقيقة أنّه لن يعود أبداً، فروحه الآن تصّعد في السّماء أو تسكن البرزخ، لهذا فهو لم يرسل حتى خطاباً في عصرٍ حوّل فيه الانترنت الكرةَ الأرضيّة إلى رقعةِ شطرنج، يتواصل عليها الناس من جميعِ

الأرجاء، ويرون بعضهم البعض عبر الشاشات بكل سهولة، لكن أمّي ترفض أن تسمعَ الحقيقة، وشبشب هالة يقف لي بالمرصاد.

«الشبشب» - كما أسمّيها - صارت عروساً ويا للعجب! المرَّة الأولى التي أنتبهُ فيها أنّها أنثى بحقّ بل وأعترف - رغم كراهيتي للصّدق - بأنّها جميلة أيضاً في ثوبِ الزّفاف اللّامع المستأجر، وهي تحاولُ جاهدةً أن ترقصَ ككلِ عروسٍ في فرحها، لكنها ليست بمهارةِ صديقتها أسماء الجميلة التي تجيدُ الرَّقص البلديّ بمهارة، مع جسمٍ مثاليٍّ يتلوّى على أنغامِ الأغاني الشعبيّة والمهرجانات في ثوبٍ أحمر زاهٍ فوقه وشاحٌ لامع، وتفسح لها كلّ الفتيات حيزاً لإبرازِ مهارتها الفاتنة التي تجعلُني أتسلّل لبهوِ بيتنا الواسع لأختلسَ النظرَ بنهمٍ شديدٍ لأجسادِ الفتياتِ اللّاتي يرقصنَ في فرحِ أختي مطمئناً أن لا أحد يعلم بأنني أتممتُ عامي السادس عشر ولا أحد ينتبه أنَ القزمَ السفروت صار رجلاً برغمِ ضآلة حجمه، حتى أن بعضهم يعتقد أنني لم أبلغ الحُلم بعد، لكن أمّي تعلم ذلك جيداً فهي الوحيدة التي تعلم عنّي كلّ شيء من شعرِ رأسي لأصابع قدميّ وإن لم تتكلّم، وإن تغاضت وتغافلت عن عَمد، فهي من تغسلُ ملابسي، والملابسُ تشي بالكثير، ممّا سمح لي أن أكونَ الوحيد الذي يتنقلُ بحريّة بين قعدةِ الرِّجال في الشارع، وتجمّع النِّساء في البيتِ الذي صدحت أركانه أخيراً بأغاني الأفراح، وازدانت جدرانه القديمة المهترئة بعناقيدِ النّور الملونة، وامتلأت الحارة بالكراسي ومكبّرات الصَّوت مع مغنٍ شعبيٍّ فقيرٍ وفرقته المتنقلة، بفضلِ عم فتحي الجار الطّيب، عشرة العمر، الذي لم يرضَ أن يمرّر كتب الكتاب دون فرحٍ وهيصة يسمع بها أهل المنطقة وهو الذي يحبّ هالة تماماً كابنته أسماء كتلة جيلي الفراولة المهتزّة، والتي تعبت من كثرةِ الرقص، فارتمت على الكرسيّ بجوارِ العروس تجفّف عرقها وتفسح المجال لفتاةٍ غيرها تخرج مواهب الرّقص التي لا تظهر سوى في الاحتفالاتِ النسائيّة والأفراح، فالعروسُ لم ترغب في الرَّقص مجدداً، فمهارتها في الرقصِ محدودة، لكنّها معلمةٌ في النَّقر على الطَّبلة، وتجيد التّنويع بين الإيقاعاتِ المختلفةِ وانتقاء الإيقاع المناسب للأغنيةِ وعزفه بأصابعها وكفّها على الطّبلةِ بمهارةٍ تهتزّ لها الجلود وتتمايل معها الأجساد، ولا أدري حقاً متى وكيف اكتسبت موهبة النّقر على الطّبلة، ربما من أعوامٍ طويلةٍ تصلُ للطّفولة، لكن ما أنا متأكد منه تماماً هو أنّها ليست موهبةً للتسليةِ والمتعةِ فقط، بل هي تستخدمها أيضاً للتنفيسِ عن الكبتِ والألم الحارقِ بداخلها، فمن ينسى يوم أن ظهرت نتيجتها في المدرسةِ مختومة بختمٍ راسبة، كانت تتظاهرُ باللامبالاة وهي تهنّئ وتبارك لأسماء وتتجاهل تلك الدَّمعة المعلّقة أسفل أهدابها، وحتى لا تفلتها هالة أمام صديقاتها اللّاتي تجمَّعنَ للاحتفالِ بالنّجاح، فقد استولت طوال الوقت على الطبلةِ وقدمت بها عرضاً مذهلاً لم تستطع أن تقاومهُ خصور الفتيات اللّاتي قضينَ الوقتَ في الرقصِ باستمتاع على نقراتِ هالة على الطّبلة.

دعك أيّها القارئ من ثرثرتي حول تلك البلهاء وطبلتها، ولنعد للفرح...

فقد انكبّت أسماء على أذنِ هالة يتودودان بمكرٍ كما تفعلان دائماً إذا لم يعجبهما أمر ما، ولا تسألني كيف سمعت حديثهما الخاصّ، فقد حذّرتك من البدايةِ ألّا تسأل تلك الأسئلة لراوي روايةٍ كاد يكون بطلها، استمع دون اعتراضٍ لما قالته أسماء لهالة

وهي تنظر لحماتها وأخت عريسها التي تحمل رضيعها، واللتان اتخذتا مجلساً بعيداً عن رقصِ الفتيات: كنت أتمنّى لو أقول حماتك تحبّك، ولكن يبدو أن تلك الزيجة لم تكن على هواها!

أكّدت هالة على كلماتها: واضحٌ كما شمسِ الظّهيرة.

-أخشى أن تفعلَ كما الحموات وتفتعل معك المشكلات وتحيلُ حياتك جحيماً.

-لا شأن لي بها، ستكون لي حياتي المستقلّة في شقّتي.

-يا بنت المحظوظة، شقّةٌ فاخرةٌ في دمياط الجديدة.

-بل شقتين.

-ماذا؟! شقتان؟ كيف؟!

-شقّة لي، وشقّة لأمّي وأخي، كان هذا هو شرطُ أمّي لإتمامِ الزّواج.

-وعمّك، وافق؟!

- لو لم يوافق لما تمّ الزّواج، لقد وفّرت عليه ثمنَ المهرِ والمؤخّر والشّبكة والقايمة.

شهقت أسماء بتعجب: ألم يشترِ لكِ شبكة؟! ولا حتى قطعةَ ذهبٍ صغيرةٍ ليصونَ وجهك أمام الناس؟!

- من؟! عمي! إنّه يعبدُ القرش، لن تصدّقي كيف سارت المفاوضات بين أمّي وبينه، لكن ما يُخيفني حقاً أن العريسَ بقيَ صامتاً طوال الجلسة، لم يقل أيّ شيء!

- ربما يخشى إغضاب والده حتى لا يوقف الزيجة، المهمّ أن وقعتكِ قشدة يا بنتِ المحظوظة، افرحي... فالحياة تبتسم لك، رأيته في الشارع يسير بجوارِ أبي وأبيه، عريسٌ كالبدر، وسامةٌ وأناقةٌ وشباب.

تنهّدت هالة قلقاً: ليت الأمور بمثلِ تلك البساطة، أمثالنا يبحث عنهم الشّقاء بميكروسكوب.

أخفت قلقها بين جنباتها وقالت باسمة: المهمّ أنني أخيراً سأعيش في النّظافة في مدينةٍ راقيةٍ وأمّي سترتاحُ من المشقّة والتّعب.

كان أسرع فرح يمكن تخيّله في بلدتنا، فلقد أصرَّ عمّي على عقدِ القِران بعد يومين فقط من موافقةِ هالة على الزّواج من ابنه «منصور».

ماذا وكيف ولماذا و... وكلّ الأسئلة التي أثارتها فئران الرّيبة التي تسكن جعبتنا، من العيبِ أن نسألَ كيف تذكّر عمي أخيراً ابنيّ أخيه اللّذين لم يرهما في حياتهِ من قبل ولم يسمع صوتيهما حتى عبر مكالمةٍ هاتفيّة

لكنّه هبط علينا يوماً في زيارةٍ مفاجئةٍ مع ابنهِ الأكبر محملاً بكثيرٍ من الحلوى والهدايا لينفي عن نفسهِ إشاعة أن الدمايطة بخلاء، حسناً... لا بأسَ من حسنِ الاستقبال ودفنِ فئران الرّيبة موضعها إلى حين، طالما الأمرُ به فائدةٌ ومصلحةٌ

وهدايا وورقة نقديّة كبيرة كرمشها بين أصابعي، ورحّبت به أمّي على أساسِ أنه القريبُ المقرّب الذي ليس لنا سواه من عائلةِ أبي، وهو أفضل من أن نبقى مقطوعين من شجرةٍ بلا ظهرٍ نستندُ إليه، ولم تنتهِ الجلسة التي امتدّت لبعدِ الغداء إلّا بقراءِة الفاتحة تمهيداً لخطبة هالة لابن عمّها منصور.

ويمكنني تفهّم أسباب موافقتها السَّريعة بالطَّبع، فبعقلِ فتيات ما قبل العشرين، الشّاب المتخرّج حديثاً من الجامعة يخلبُ العقل، بصفاتِ الجنسِ القوقازيّ الشكليّة، بعينيهِ العسليتين واللّحية الخفيفة المنسّقة بعناية، والشّعر البنيّ الغزير النّاعم الذي يصل لشحمتيّ أذنيهِ كالموضة التي تتكرّر كلّ عدّة سنوات، مما جعل صديقات العروس يتهامسنَ في أذنها بضحكاتٍ وكلماتٍ من قبيل العريس خرج لتوّه من مسلسلٍ تركي... الواد الحليوة... وأشباهها أدركت أن بالفعل الفتيات ناقصات عقل، فكثير من شباب رشيد يمتلكون نفس صفات الجنسِ القوقازيّ، ولكن الفتيات يحببن المستورد، أعني مستورد من دمياط وليس تركيا بالطبع.

أمّا أمّي فقد تمّ إقناعها بوعدٍ صريحٍ من عمّي بشقّتين فاخرتين في عمارةٍ في مدينة دمياط الجديدة، واحدة للعروس والثّانية لي ولأمّي، ودسَّ المفتاحين في يدها بالفعل.

زيجةٌ لا يمكن رفضها، وعريسٌ لقطة وخاصَّة لأمثالنا من من يعيشون تحت خطّ الفقر في بيتٍ قديم جداً - يقال أثريّ - في إحدى الحارات الضيّقة المتفرّعة من شارعِ البحر، وهو آيلٌ للسقوط، تتعامى عنه الحكومة ووزارة الآثار حتى لا تضطرّ للإنفاق على صيانتهِ وتجديده، وتترك الأمر لعواملِ التّعرية والزّمن ليسقطَ وحدهُ دون أن يدريَ به أحد، فكما هو معروفٌ لهيئةِ الآثارِ وللجميع، رشيد وحدها تمتلك ربعَ الآثارِ الإسلاميّة في مصر كلّها، وهي المدينةُ الثانيةُ في عددِ المواقعِ الأثريّة الإسلاميّة بعد القاهرة (التي تسمّى بلد الألف مئذنة) ويمكنك أن تسأل موسوعة المعلومات على الإنترنت، إذاً فما حاجتهم لإضافةِ بيتنا القديم الخرب لمجموعةِ البيوت الأثريّة في رشيد؟ والتي أُهمل كثيرٌ منها وطفحت في أروقتها السفلى مياهُ المجاري وصارت جدرانها الخارجيّة مقلباً للقمامةِ ومرتعاً للحشرات والكلاب الضالة.

أما بيتنا فقد نجا من ذلك المصير بفضلِ من فيه من سكان، وتحاول أمّي جهدها الحفاظ عليه، أو على ما تبقّى منه، بعض المشربيّات القديمة المكسّرة، وبقايا جدران من حجارةٍ بيضاء، وملقف هواء فوق السّطح تكسّر أغلبه، واضطررنا لإغلاقه بألواحِ الخشبِ اتّقاءا لقسوةِ الشّتاء ووضعنا فوقه «الدش».

في هذا البيت قضينا عمرنا ومن قبلنا أبي وأجداده، ولن أصفَ البيت أكثر من هذا حتى لا يسوّغ الشيطان لأحدِ القرّاء فكرة أن ينتقمَ مني - أنا الراوي - ويبلّغ عن مكانهِ وزارةَ الآثار فتضع يدها عليه، أو تنتبه الحكومة إلى أنّنا لا نمتلك أوراق الملكيّة - التي كان من المفترضِ أن نرثَها عن الأجداد - فتكون الكارثة ونلقى في الشارع.

- لا أفهم حقاً كيف يفكّر مَن يسأل عن أوراقِ ملكيّة بيتٍ عمره من قبل حملة فريزر!

-

ولأن عمّي يعلم ذلك جيداً، فقد تمّت الموافقة على زواجِ هالة بأسرعِ ممّا يتخيَّل أحد، فهو يعرف جيداً ما يريد، وماذا نحتاج نحن، فلعبها بحرفنة، فالعروس وأمّها حرفياً (اتكحرتوا في الفقر والمرمطة) باللّهجة الدّارجة، فهالة نشأت كفتاةٍ من الطبقةِ الفقيرةِ كأغلبِ فتيات بلدتنا «برج رشيد» تذهب للمدرسة وفي العطلات تنزل مع أمّها حقول النَّخل لتعملَ مع النّساء في تنظيفِ الجريد وإعداده وتجهيزه للفرم، لينتقل بعدها إلى مصانعِ الأثاث في دمياط ويدخل في صناعةِ الأرائك والأثاث.

لذلك فقد تربّت هالة من صغرها في حقولِ النَّخيل وعلى أعوادِ الجريد، وتشقَّقت يديها واخشوشنت من كثرةِ العملِ وكحتِ الجريد، ولكنها عندما كبرت واشتدَّ عودها، وجدت أنّها تستطيع أن تتولّى مسؤولية «اللنش» الذي تركه أبي وحدها بعد أن تشاجرت أمّي مع الفتى الذي يُشغّله، وعندما استشعرت هالة احتياجَ أمّي للمال قفزت إليه وتولّت دفّته بنفسها.

قد يبدو الأمر صعباً على أيّ فتاة، إلا هالة...

فقد كان أبي يصطحبها معه في طفولتها في رحلاتِ صيدٍ عديدةٍ على ظهره، وكذلك إلى ورشتهِ لإصلاحِ وصناعةِ السّفن قبل رحيله، فخبرت كلّ شيء عن المراكبِ وحتّى طُرق إصلاحها، وصبر الجميع على هالة إكراماً لوالدنا الغائب صاحب الأفضال على جميعِ أصحابِ المراكب.

فقد كان كلّ من يذهب إليه لإصلاحِ مركبه يقوم معه بالواجب كاملاً ويُمهل المُعسر في تسديدِ أجرته، فاغتنى الجميع وافتقرَ هو.

لكن أمّي منعتها من الاستمرار، وقفت أمامها كالوتدِ لا تتزحزح، ولا تلين، فليس هناك فتاةٌ واحدةٌ في رشيد كلّها تقودُ مركب، ولن تسمح أمّي لهالة أن تكون سيرتها كاللّبانة تلوكها النّاس وتتندّر بها، كما أن عملَ فتاةٍ بعملِ الرِّجال في بلدةٍ كبلدتنا سيوقف حالها ويذب عنها العرسان، ورضخت هالة أخيراً لأمّي ووافقت على أن تترك المركب لفتىً من فتيانِ برج رشيد، وبكلّ تأكيد ليس أخيها اللّطيف، فبالإضافةِ لدوارِ البحر الذي يأتيني في أشدِّ حالاته إذا ما حاولت فقط تخيل أنّني على الماء، فأنا لم أتعلّم السَّباحة ولا الغطس كهالة؛ بسبب طفولتي البائسة الممتلئة بأيام المرض والضّعف، وبالنّسبة لي البحر كالمقبرةِ سواء بسواء لا فارق بينهما، ولَا يستطيع أحدٌ في العالم أن يقنعني أو يجبرني على أن أضعَ قدمي في مركب، راسية أو غاطسة (أستثني هالة بالطّبع).

«بركات» الفتى الذي اختارته أمّي لتولّي مسؤولية المركب والطّلوع بها للصّيد أو نقلِ الناس عبر المعدية، نقتسم معه ما يخرج به من رزق، قليل، كثير، تحمد أمّي ربّها على النّعمة، ولا تشكو أبداً حتى لو كان «بركات» لصاً، يحتفظ لنفسه بما لا نستطيع أن نحاسبَه عليه، فلا رقيبٌ عليه، وإن تكلّمت نصف كلمة عليه تسكتني أمّي فوراً بقولها الذي صارَ علامة (مهو لو كنت فالح ما كنّا اتحوجنا للغريب).

برغم رسوب هالة في الثانويةِ عامين، لكنّها متمسكةٌ بمكانها في المدرسةِ كحشرةِ بقٍ ملتصقةٍ بِمُلّة سريرٍ خشبيٍّ قديم، لا تتركها مهما نالها ومهما فعلوا بها.

كان من المفترضِ أن تكونَ صاحبة الشبشب البلاستيكي (الذي دوماً تقذفه نحوي) قد تخرّجت من القسمِ الأدبيّ في الثانوية العامّة، لكنّها رسبت في الصف الثاني وتأخرت عن صديقتهَا وجارتها أسماء ابنة الحاج فتحي، وفي الرّسوب الثاني لم تحزن ولم تبالِ وكأنّما اعتادت، لماذا لا ترضى بنصيبها وتترك المدرسة كبقيةِ الفتيات اللّاتي يرسب؟!! أنتظر العام القادم لأرى ما ستفعله حقاً، ولا أظنّها ستستمرّ بعد أن صادت عريساً وشقّة في مدينةٍ راقيةٍ كدمياط الجديدة.

أما أنا، فقد تعهّد عمّي لأمّي أن يتولّى الإنفاق على مسيرتي التعليميّة - كجزءٍ من صَفقةِ الزّواج - برغم رسوبي في الصّف الثاني الإعدادي مرّتين أيضاً.

أنا «الزفت»

ذاك هو لقبي في العائلةِ والمنطقة، ويكفي أن تعلمَ بأن لك لقباً كهذا بين الناس لتتبارى في التأكيدِ والإثباتِ والبرهانِ بكلّ طريقة بأنّك حقاً «زفت» بل وأشدّ «زفتاً» مما يعتقدون فيك.

ترى هل لاحظ أحدهم أن «عبد العزيز» السفروت كبر؟! أم أن ضآلة جسمي ختمت عليّ وأنني سأظلّ العمر كلّه «السفروت» أو «الزفت» كما يُطلق عليّ الأستاذ «منتصر» أستاذ التاريخ الذي لا يكفّ عن ضربي كلّما رآني، وقد تسبّب في رسوبي لعامين متتاليين! بل ويعتبرني فألَ شؤم، فمنذ ولادتي التي تمّت قبل موعدها بشهرين أو أكثر، وكأن لعنةً سحريةً حلّت على بيتنا، من حضّانة للمستشفى الميري والخاصّ لمصاريفٍ لا يعلمها إلا الله كبّلت أبي بالدَّين ونقلت بيتنا من فوقِ خطِّ الفقرِ ببضعةِ سطورٍ إلى القاعِ بسرعة، وتلقّت أمّي نبأ أنني لن أكملَ الحياة كبقيةِ المواليد بمزيجٍ من الرضا بقضاءِ الله والحزن ودمعاتِ الفراق والألم، ولكنني تحدّيتهم جميعاً وعشت...

أنا عبد العزيز، أو «زيزو» لكن لقبي الأشهر «زفت» وهو لقب التقطتهُ هالة من «منتصر» أستاذ التاريخ ليصبحَ لقبي للأبد

وبرغم عبقريتي الفذَّة وتفوّقي الهائل في برمجةِ ألعابِ الكمبيوتر والهواتفِ الذكيّة، لكن أمّي وهالة لا تعترفان بذلك، هذا إن كانتا قد انتبهتا لعبقريتي من الأساس!

لا يمكن حقاً للعباقرةِ أن يَظهروا إلّا في مجتمعٍ متخلّف، فلو لم يكن المجتمع متخلّفا لصارَ الجميعُ عباقرة، لكن ميزة المجتمعات المتخلّفة الوحيدة في كونِ أن العبقريّ فيها يكون متفرِّداً متميزاً عن غيرهِ ويشقّ طريقه للمجدِ رغماً عن أنفِ الجميع، لأنه يتحدَّى كلّ من حولهِ من جهلاءٍ ومتخلّفين وعقول متحجّرة.

وهذا ما أفعله تقريباً كلّ يوم، على أن أتحدّى كلّ العقول المتخلّفة بدايةً من هالة والتي تمثّل أكبر عقبةٍ في طريقِ عبقريتي، مروراً بالأغبياءِ الذين يملكون مالاً إمّا من صنعةٍ متواضعةٍ كصناعةِ الأقفاصِ أو غزلِ الشّبك، أو ممّن يعملونَ على صناديقِ استزراع السَّمك في المياه، وخربوا بيوت مئات الصيادين، أجد نفسي الأحقّ بجزءٍ من أموالهم التي يكتسبونها على حسابِ وقف حال الصَّيادين، أوَلست العبقريّ صاحب العقل الروبوتي؟!

يكفي إثباتاً لعبقريتي الألعاب التي أعيد برمجتها بنفسي في السايبر، أو التي ابتكرتها بالفعل، ولم يكن هناك من يؤمنُ بقدراتي سوى «البغل»، هكذا أُطلق على «حمو» صديقي صاحب الجسدِ البغالي والعقل البغالي أيضاً، فهو لا يفقهُ أيّ شيء في الحياة سوى الجلوس في السايبر مع شطائر الفول والفلافل أو علبة الكشري ومراقبة روّاده، لا يجيدُ حتى لعبَ الألعاب الَشهيرة برغم أنّني حاولت أن أعلّمه كثيراً ليدعني أمام الشَّاشة للوقتِ الذي أريد، فكنت أتحايل أحياناً، وغالباً أمدّه بالمالِ الذي أُقَلِبُه من الفتيان بعبقريتي في الرّهان وانتصاراتي عليهم في الألعاب، ولم يعد أحد يضاهي قدراتي سوى فتى في مثل عمري «مهند» لماذا يحصل أبناء العاصمة على أسامي كتلك ونحن لا؟!

يأتي مهند من القاهرة في العطلات، تصادقنا في السايبر، وصرنا شركاء لعب، ثم متنافسين في مجالِ البرمجة، وعلّمني الكثير مما تعلّمه من كورسات البرمجة وعلّمته الكثير من عبقريتي، وفي الأعوام التالية عندما يأتي كان يدعوني لبيتهِ الفاخر على الكورنيش لنمارسَ هواياتنا مَعاً في البرمجةِ والألعاب، فوالده من الأغنياء، وهو يعمل في القاهرة ويترشّح في مجلسِ الشعب كلّ دورة - ويفوز بالتّزكية أو بالحبّ - في دائرتهِ في محافظة البحيرة، فرشيد ليست محافظة مستقلّة بذاتها كما كانت في العصور الماضية، لكنّها صارت تابعة لمحافظةِ البحيرة.

يمكنكم أن تخبروا ذلك الأبله الجاهل «منتصر» بمهارتي وتفوقي في كلّ المواد ومنها مادّته اللّعينة، وهو الذي كتبَ على ورقةِ امتحاني في مادّة التاريخ راسب؛ ليعاقبني كيداً وانتقاماً من مجادلتي له وإفحامه أمام زملائي في الفصل، فهو متمسكٌ جداً بفكرةِ تاريخ رشيد العظيم وبطولاتهم، وأنا مقتنعٌ بأنَّ لو كان لها حقاً تاريخاً عظيماً لكان ظهرَ على جيلنا وأسبغَ بنعمهِ علينا نحن الأحفاد، لكن رشيد في الواقعِ بلدة منسيّة، محرومةٌ من أبسطِ الأشياءِ التي تجعل أهلها يعيشون كالبني آدميين، حتى العائلات العريقة كعائلتنا أحفاد أحفاد أحفاد تاجر من أكابرِ التّجار في رشيد، - ويقال أنّه كان من الملتزمين يملك أطيان - أحفاده جارَ عليهم الَزَّمن وصاروا تحت طبقةِ الفقرِ بكثير، ومَن استطاعَ منهم النّجاة والخروج من رشيد، يشقّ طريقه وينال ما لم يَنلهُ من تمسكٍ بالبقاءِ في تلك البلدة التي أصابتها لعنةُ النّسيان، ولأهلها الفقر والضّنك، تماماً كعمّي الذي أصرَّ على الهجرةِ لدمياط، في مطلعِ شبابهِ بعد اقتسامِ ما تبقّى للعائلةِ العريقة من ميراثٍ بينه وبين أبي الذي رفضَ بيع البيت القديمَ وأرض ورشة المراكب، وحتى يحافظ على ميراثِ العائلة عوّض أخاه بكلّ ما معه من مالٍ وقتها، ولهذا تأخّر زواجه لبعد زواج عمّي بعدّة سنواتٍ أخذ يجمع فيها المال ليستطيعَ أن يتزوَّج، وفي النِّهاية انتهى به المطاف هارباً من الفقر، مهاجراً في البحر، أمّا عمّي فقد صارَ صاحب ورشةٍ كبيرةٍ في دمياط لتصنيعِ الأثاث وتصديره، وتزوَّج من امرأتين وأنجبَ الكثير من الأولاد يعملون معه في الورشةِ إلى جانبِ الدّراسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# الجنيّة

ثرثرت كثيراً في الفصلِ الأوّل، وعليك كقارئ أن تعتادَ ذلك، فأنا صاحبُ الرّواية وبطلها الحقيقيّ المسروق، ولن أتنازلَ عن مقعدِ الراوي العليم بعد أن فقدت مقعد البطل.

كيف فقدته؟! ستعلم في هذا الفصل، ولكن استمع أولاً لما سأرويه لك عن العزومة، فعريس أختي بعد أن سافرَ أباه لدمياط، عزمته أمّي اليوم على الغداء كتقليدٍ من تقاليدِ الخطبة وكتب الكتاب والذي لا أفهم حقاً فلسفته الغبيّة، فبدلاً من أن يخرجَ العريس مع عروسهِ لينفرد بها في أحدِ المتنزّهات، أو يأخذها في رحلةٍ بالمركب، يبقيان في البيتِ بصحبةِ أفراد العائلة.

لكن يبدو لي أنِ هذا الأمر صار تقليداً لتتباهى الفتاة أمام عريسها بشعرها وزينتها وتلبس ملابساً تُبرز بحدّة تفاصيل جسدها ليعلم أنّه نالَ بضاعةً ثمينةً وزوجته ستّ البنات.

وقضت أمّي وهالة في المطبخ ساعاتٍ طويلة في تحضيرِ ما لذَّ وطاب، وصرت أنا مشاورجي البيت، وويل لي إن هربت أو رفضت لهما طلباً، ولكنّي لم أكن أشعر بالألفة ولا الرّاحة وأنا أرى هالة أخرى غير التي اعتدتها وألفتها، كانت تبدو كفتياتِ الإعلانات وهي تختالُ بزينةٍ فجةٍ وثوبٍ أزرقٍ أنيقٍ ناعم، يلفّ جسدها ويكشف عن ساعديها وساقيها إلى ركبتيها، ولا أدري إن كانت اشترته أو استعارته من أسماء، لكن العريس أحبطَ أنوثتها التي عاشت عمرها مكبوتةً ما بين جلاليب بيت قديمة وعباءات وحجاب، ووجهٍ لم يلمسه أيّ نوعٍ من أنواعِ الزّينة قبل يوم العرس، فهو لم يرفع رأسه عن شاشةِ هاتفه إلّا عندما نادته أمّي للطّعام، وحتى الجُمل التي قالها منذ حضوره تعدّ على أصابعِ اليد، ويردّ على كلماتِ حماتهِ الودودة بإجاباتٍ مختصرة، بل لم يبادرْ بالحديثِ مع عروسهِ التي ظلّت طوال الوقت بوجهٍ متجهم يملأ عينيها القلقُ والارتياب، وبعد الغداء رأيت هالة تتجّه للحمام وتزيل زينتها وتغسلُ وجهها، فنهرتها أمّي بصوتٍ منخفض: أجننت؟! ماذا تفعلين؟!

أجابت بابتسامةٍ متهكمةٍ مريرة: أزيلُ وجه المهرج وأعود لوجهي الحقيقي.

همست أمّي بغيظ: ماذا سيقول عنا الرجل؟!

قالت هازئة: وهل قال أيّ شيء منذ وصولهِ ليقولَ الآن؟!

بالفعل كان يتصرَّفُ بغرابة، فقد عادَ يجلس على الأريكةِ البلدية، واستغرقّ في تصفّح هاتفه، وعندما رأته هالة يفعل هذا انزوت في ركنِ البهوِ الكبير، وجلست على السجادةِ بجوارِ التلفاز وفتحت هاتفها الحديث الذي أخذته هديةً من عمّي في أوّل زيارةٍ له لبيتنا، وغمزت لي أن أشاركها اللّعبة، ففتحت اللابتوب الذي أهداني إيّاه عمّي لأستذكر عليه دروسي، وبالفعل حمّلت كلّ الألعاب التي أحبّها عليه، وفتحت اللّعبة القتاليّة لألعبَ أنا وهالة كفريق، وصارت اللّعبة أكثر حماساً بمهارةِ

هالة الفائقة في اللعب والهروب إلى منطقةِ الزون الآمنة، فهالة لديها القدرة والمهارة لتتعلّم أيّ شيءٍ بسرعةٍ وتتفوّق فيه، وكثيراً ما تسخر منّي وتضحك عندما يموت لاعبي قبل لاعبها ويخرج من اللّعبة، فأغتاظ منها ونعاودُ اللّعب مجدداً وأنا أنوي الانتقام من لاعبها وتفجيره، لكنّها تفهم جيداً كلّ ألاعيبي وما أفكّر فيه، فتفاجئني بقنبلةٍ أو زجاجةٍ مولوتوف، وتقصي لاعبي من اللّعبة ثم يركب لاعبها سيارته ويترك لاعبي دون إسعافٍ ينزفُ حتى ينتهيَ ويخرج من اللّعبة، فأصرخ منها مغتاظاً، فتضحك وتهزّ كتفيها بمرحٍ كما لو كانت ترقصُ احتفالاً.

لكن ما كان يغيظني منها أنّها لم تكن تقبل أن تعطيَني هاتفها الحديث لأجرّب عليه برمجة ألعابي المبتكرة العبقريّة، فأضطرّ لسرقتهِ والهروب به للسايبر لأنجزَ ابتكاراتي وأحمّل ألعابي وأجربها رغماً عن أنفها، وبالطّبع أنالُ ما فيه النّصيب من شبشبها لكنها لم تمسح ألعابي من على هاتفها، بل تتسلّى باللعب معي أوقات الفراغ.

كان بهو البيت عجيباً بحقّ، فأمّ العروس تُجالس العريس في ركنِ الاستقبال، والعروس تلعب مع أخيها في الركنِ الآخر، وكلّ بضع دقائق تقوم أمّي من على الأريكةِ وتضرب هالة في ظهرها وتهمس في أذنها بكلمات، وتردّ هالة بنفسِ الردّ لا يتغيّر: حاضر، سأنهي اللعبة وآتي.

ولكن بمجردِ أن تنتهي اللّعبة، تبدأ غيرها على الفورِ ويشتدّ الحماس وأصرخ غيظاً من مهارتها، وتضحك هي ساخرة وتهزّ كتفيها هازئة احتفالاً بالانتصار، وتضحك بصوتٍ عالٍ أكثر من المعتاد، وتمازحني بمرح، وتضربني في كتفي وتسخر مني، بدأت أشكّ أنّها تدّعي المرح لتخفّف من سخافةِ تلك الزِّيارة الغريبة على نفسها، هل تريد أن تبدوَ كمن لا يهتمّ ولا يبالي؟!

لكن أمّي كانت تهتمّ، بل كانت غاضبة، نبأتني نبرةُ صوتها الجادّة للعريس والتي تحاول بها أن تُشعر مَن أمامها بالإحراجِ رغم تهذيبها الجمّ وألفاظها المنتقاة بعناية:

- يبدو أن هناكَ عملٌ هامٌ يشغلكَ في الهاتف.

انتبه أخيراً لسخافةِ الموقف، وقال بصوتٍ محرج: الحقيقة أنني أنتظر مكالمةً هامّة.

كان مبرراً تافهاً للغاية، لكن أمّي مرّرت الأمر ونادت هالة بلهجةٍ تحمل شفرة التّهديد والوعيد والتي نفهمها جيداً، استجابت العروس البلهاء أخيراً لقبضةِ أمّي التي وكزتها في ظهرها وقامت تتمايل وتخفي ألمها وتضحك: هزمتك.

جلست على الكرسيّ المجاورِ لأريكةِ منصور بزاويةٍ قائمةٍ وقالت لي مازحة: لا تجيد اللّعب كما لا تُجيد الدراسة.

اللّعينة تفضحني أمام خطيبها، اللّعنة عليه هو أيضاً لم ينتبه إلا لتلك الكلمة! فاستفاقَ أخيراً ونظر في وجهها وقال: الأولاد كلّهم هكذا في هذا العمر.

تباً هل سيتصنّع الحكمة الآن عليّ ويجلس في مقعدِ الكبار؟ التقمت أمّي منهما خيط الكلام لترتقَ الفجوة التي بينهما في الحديث وتقارب بين جانبيّ القماش كما تفعل في

مكنةِ الخياطة: يستطيع أن ينجحَ في كل الامتحانات إلا التّاريخ، أنت متخصّص في التاريخِ يا منصور أليس كذلك؟

يبدو أن العريسَ بدأ يشعر بالحفرةِ التي يدفعانهِ إليها، فقال بشرود: هاه؟ آه... نعم نعم.

ثم استدركَ وقد بدا يَعي الأمر، فتنحنح: احم احم، هل يحتاج لبعض المساعدة؟

فنظرتُ في وجوههم بقرف، هل صرتُ أنا لبّ وسوداني القعدة يتسلّون بقزقزةِ سيرتي؟!

اندفعت هالة تلوك سيرتي كاللّبان، وهو أفضل موضوعٍ يسلّيها: هل تصدق إنه يعجز عن تذكّر العام الذي احتُلّت فيه رشيد من الإنجليز؟

قال وهو يبتسم كالأبلهِ وكأنّما أعجبه هذا الحديث الذي انجرفَ نحو تخصّصه، ونظر إليها كحكيمِ القعدة: وقت أن كنت في الجامعة اخترعت طريقةً لطيفةً لتذكّر التّواريخ.

ابتسمت أمي وعقدت كفّيها ومالت للأمام باهتمامٍ وقد نجحت خطّتها حقاً في اجتذابهِ للحديث وأخذت تهزّ رأسها تشجيعاً له وهي تقول: ماهي؟

كان يتحرّك تماماً «كمنتصر» وهو يشرحُ الدّرس: ربط كلّ رقمٍ بشخصيةٍ هامّة، ١٨٠٥ عمر مكرم، ١٨٠٧ علي بيك السلانكلي.

هتفت هالة تستعرض معلوماتها البلهاء: نعم إنّه محافظ رشيد الذي قادَ المقاومة ضدّ الإنجليز.

ابتسم لها وهزّ رأسه «فتنحّت» كالبلهاء واتّسع بؤبؤ عينيها، ترى هل ستخرج قلوب من عينيها كالكرتون؟

أكمل: ١٨١١ محمد علي.

تساءَلت معترضة: ولكن لمَ لم تختر ١٨٠٥ باسمِ محمد علي؟ ألم يتولّ حكم مصر في هذا العام؟

تردّدت لحظةً وظنّت أنّها نَسيت او أخطأت، لكنّه قال مؤيداً: نعم هذا صحيح.

فابتسمت بفخر، أنها ما زالت تذكرُ ما درست في الثانوية، وقال هو موضحاً: ١٨٠٥ الثّورة التي قادها عمر مكرم على خورشيد باشا وعيّن محمد علي بإرادةٍ شعبيّة، لذلك كان هو الأحقّ بهذا العام.

قالت بتساؤل: ماذا فعل محمد علي عام ١٨١١ ليرتبطَ باسمه؟

قال ببساطة: مذبحة القلعة.

فتحت فمها مندهشةً وهزَّرت رأسها وكأنّما تذكّرت فقال: في مارس جمعهم في القلعةِ احتفالاً بخروجِ حملةٍ عسكريةٍ لاستعادةِ الحجاز، وشرب معهم القهوة ثم قتلهم

جميعاً في ساحةِ القلعة ولم يبقَ منهم أحداً، ثم أرسل في مطاردةِ فلولهم عبر البلاد كلّها.

قالت: يستحقّون، لقد دمّروا البلاد وسرقوا أموال العباد وكان الجميع يخافهم.

هتَفْتُ مغتاظاً من مكاني بجوارِ التلفاز: ثم قفزَ هو مكانهم ليستوليَ على أموالِ البلادِ والعباد.

ألقتها في وجهي: وما أدراكَ أنت يا ساقط التاريخ، لقد كانت البلاد تعاني أمرّ المعاناة من حكم المماليك الظّالم وظُلمهم للشعبِ وسرقةِ أمواله والاعتداء على نسائه، لقد أفسدوا في البلاد.

قامت الأم لتحضّر العشاء، فقد حلّ المساء منذ فترة، ولم تمضِ ثوانٍ حتى رنَّ هاتفه، فانتفضَ من مكانه: معذرةً، إنّها مكالمة هامّة، سأعودُ بعد دقيقة.

تركها ودخل الشرفة الكبيرة التي كانت جدرانها المطلّة على الشارع مغطاةً بالكاملِ بجدارٍ خشبيٍّ من البغدادلي بجانب الأرابيسك الفاخر، لكنّه اختفى بمرورِ السنوات وعدمِ وجود المال الكافي لإصلاحه.

زفرت هالة بملل وتركت المكان وانضمَّت لأمّها في المطبخ، وصوت همهمات أمّي الغاضبة يصلُ إليّ، لكن ما كان يثير اهتمامي بحقّ هو تلك المكالمة الهامّة التي لن أفوَّت سماعها، أعلم أن أمّي ستغضب، لكن من قال إنّني آبهٌ لغضبها؟!

تسلّلت للشرفةِ وكان ظهره لي واختبأت خلف بعضِ الكراسي المحطّمة وأريكةٍ قديمةٍ، أشفقت أمّي أن تتخلّص منهم لعلّنا نحتاجهم يوماً، وسمعت حديثه رغم صوته المنخفض، وفهمت كلّ شيء، وفي لحظاتٍ كانت خطّة محكمةً تتشكّل في ذلك العقل العبقريّ، وترتب لشيءٍ سينقلني نقلةً عظيمةً ويحقّق أحلامي.

أنهى المكالمة ومرَّ من أمامي دون أن ينتبهَ للمتستّر بالظلام، وتبعته خلسةً وجلست في مكاني بجوارِ التلفاز، وجلس هو على الأريكة وأتت هالة من المطبخ وبدأت تلاحظ وجهاً آخراً يتبدى لها، وجهٌ بشوشٌ يضحكُ ويتفاعلُ ويتحدَّث بلباقة، فتساءلت بشك: خيراً؟! يبدو أن المكالمةَ بها أخبارٌ مطمئنة؟

ضحك بإحراج: نعم، أخبارٌ رائعة، إنّها صفقةٌ كان أبي قلقاً لأجلها، تمّت على خير.

حقا؟! أبوك؟! أم أنتَ أيّها المراوغ النّصاب؟!

هدأت أمّي واستقرَّت نفسها عندما بدأ منصور يتحدّث إلى هالة على مائدةِ العشاء، ويبدو أن اقتراحي بأن أذهبَ لشراءِ شيء ما لا أذكره حالياً قد لاقى قبولاً لديها، فبعد انصرافي، تظاهرت بتناولِ بعض اللّقيمات، ثم تركتهما وحدهما بحجةِ أنّها لا تتناول عادةً العشاء حتى لا يثقل معدتها، وذهبت لغرفتها لتتركَ لهما المجال لتبادلا الحديث وحدهما.

كنت مطمئناً أن منصور لن يرحلَ قبل منتصف اللّيل على الأقل، وهذا منحني الوقتَ الكافي لأذهبَ للسايبر وأعدّ كلّ شيءٍ وأنقل كلّ ما أحتاجه على فلاشات، لكن

المشكلة التي واجهتني حقاً هي كيفيّة الحصول على بطاقةِ شبكةِ إنترنت خلويّ تصلح للاب توب، لم يكن متاحاً بيعها في المكانِ الذي أعيشُ فيه، فمن سيفكّر في دفعِ كلّ هذا المال لشريحةِ إنترنت والسايبر و»الدي إس إل» متاحان؟

ما من أحدٍ هنا يستخدمها، سوى صديقي الغنيّ مهند القادم من القاهرة ويقضي إجازته هنا، ولم أجد حلاً سوى الهبوط على بيته، وأخذت أصطنعُ الحيلَ والتَّبريرات حتى اصطحبني إلى غرفته، وبقيت أتحين الفرصة حتى انتزعتُ الـ «يو إس بي» الخاصّ بشريحةِ الإنترنت من جهازه، وانطلقت مغادراً قبل أن يكتشفَ ما فعلت وأنا مطمئنٌ أنه لن يراني أبداً بعد ذلك.

أعددت كلّ شيء ببراعةٍ ولم أنسَ شيئاً، واطمأننت أن السيارةَ النّصف نقل التي يركبها منصور ما زالت أمام البيت، نعم نصف نقل مخصّصة للأثاث وغيره، أظننت أن عمّي البخيل سيمنحه سيارة ملاكي خاصة به؟!

تسلّلت على أطرافِ أصابعي وصعدت درجات السلّم بهدوء في الظّلام لأجدَ باب البيت مفتوحاً وعلى الضّوء القادم من الصالة رأيت شبحين متلاصقين، ففارت الدّماء في عروقي، ما كنت أعتقد أبداً أن أختي يمكن أن تسمحَ لرجلٍ مهما كان بالاقترابِ منها لهذه الدّرجة.

يا لغبائي...! نسيت... لقد أصبح زوجها.

بقيت مختبئاً تحت السلّم، عجباً! العريس البارد السخيف اللامبالي صار فجأةً رومانسيًّا رقيقاً وهو يودّع فتاته، وبالطّبع لم يجرؤ على إخبارها أنّه الوداع الأخير.

ستبقى الفتيات للأبدِ غبيّات يسهل خداعهنّ بكلمةٍ رومانسيّة،

وسيبقى الرجال كلاباً يلهثون خلف رائحةِ امرأة...إنها الغريزة.

سمعته وهو يقول لها بصوتٍ هادئ: أتعلمين ماذا يعني اسمك؟ هزّت رأسها نفياً، فما كانت ترغب بالكلام وهي تحت تأثير سحرِ عينيه وابتسامته، فأجاب: إنّها دائرة من نور، تُحيط بالقمر، فَإن كان القمر جميلاً، فَالهالة هي الجمالُ ذاته.

أكاد أنفجر غيظاً، على أن أحضرَ بعض المال وبعض الملابس الثّقيلة، لكنّهما يقفان في طريقي.

أخيراً... قال وهو يودّعها: نسيت شيئاً.

أخرجَ من جيبهِ سلسلةً من الذّهب، تنتهي بكرةٍ صغيرةٍ تشبه حبّة الحمص، وعقدها حول رقبتها وهو يقول: هديةٌ لكِ من أمّي.

أخيراً رحل، ودخلت هالة البيت تتطوّح كالسكارى، لدرجةِ أنها لم تشعر بي وأنا أتسلّل خلفها داخل البيت، ولم تتّجه للغرفة التي تشاركها مع أمّي، بل اتّجهت للشرفةِ لتلملمَ شتاتها، وتهدئ من روعها، وتنتظر حتى تختفي حمرة خدّيها كي لا تلاحظَ أمّي التي لن يغيبَ عن ذكائها حركات البنات تلك.

لا أصدّق حقاً أن الشبشبَ وقعت في الحبّ! لا يمكنني أن أتعاطفَ الآن أو حتّى أفكر في كم أن هذا عجيب، وأنّها لن تهنأ بتلك المشاعر بعد ذلك، فلديّ مستقبلٌ ومغامرةٌ يجب أن ألقيَ بكلّ شيءٍ خلفي وأقتحمها مهما كان الثمن.

لم يشعر أحدٌ بي وقد جمعت الملابس التي أحتاجها، وتسلّلت لغرفةِ أمّي وأخذت كلّ ما وصلت له يدي من مالٍ سأحتاجه بالتّأكيد.

اخرس أيّها القارئ... فلست لصاً إنّه حقّي، ولو طلبت عيني أمّي لأعطتني إياهما عن طيبِ خاطر، لكنّني لم يكن لديّ أيّ وقتٍ أضيّعه في شرحِ ما صمّمت عليه، والذي لو اجتمعَ أهل الأرض ليمنعوني عنه ما نجحوا.

ركبت توكتوك خلف سيّارة منصور، أعلم أنّه هنا في الفندق، وعندما دخلت بهوَ الفندق رأيته جالساً مع امرأةٍ شقراء يبدو جليًّا أنّها أجنبيّة، استمرا في الحديثِ لفترةٍ وعينيّ لا تغيبُ عنهما، حتى انتهيا وغادرت المرأة، وبقيَ هو في مكانه، فاقتربتُ منه وعندما رآني ظهرت الصَّدمة على وجهه، ولم أضيّع ثانية، فيكفي ما ضاعَ من عمري في الفَقر، قلت مباشرة: سأسافر معك.

نظرَ لي بدهشةٍ وتعجّب، فأجبت على الفورِ سؤالاً لم يسأله: سمعت مكالمتك في الشرفة.

قال بتجهم: عُد إلى البيتِ يا شاطر، فلا مكان هنا للعبِ العيال.

قلت بتحدٍّ: لست طفلاً، لقد بلغت السادسة عشر، وإن لم أسافر الآن فسأتّصل بوالدك وأخبره بكلّ ما تحاول أن تخفيهُ عنه.

كان ينظر لي بغيظٍ شديد، وأنا أبتسم، فقد كنت متأكداً من أنّه سيستسلم لشروطي، فوالده يفرض سيطرته بجبروتٍ على كلّ أولاده، ولا يستطيع أحدهم مخالفة أوامره.

وعندما سألني سؤاله، أدركت أنّني اقتربت بالفعلِ من تحقيقِ حُلمي، فقد قال: لماذا تريد أن تتركَ أهلكَ والمدرسة وتسافر؟!

قلت بحقد: لنفس أسبابك، لا أجد أيّ تقديرٍ ولا ميزةٍ للعيش في تلك البلدة، هنا أنا ذرّة تراب، الكلّ يدوسني بحذائه، ولكن في الخارج سيقدّرون عبقريتي وذكائي.

قال هازئاً: عبقريتك؟!

قلت متحدياً: أنت أيضاً لا تصدق؟! حسناً انظر...

جلست إلى جوارهِ وفتحت اللابتوب، ثم فتحت اللّعبة التي ابتكرتها، فنظرَ في الشاشةِ وقال هازئاً: ماذا؟! إنّها لعبة قتال تفاعليّة كآلافِ الألعاب.

رددت على كلماتهِ بسخريةٍ أشد: يقولون أنّك تخصّصت في التاريخِ في جامعة الأزهر، ودرسته لأربعِ سنوات، صحيح؟!

كادَ يضربني بقبضته، لكنّه انتبه أخيراً لِما أحاول أن ألفتَ انتباهه إليه، فتجمّد أمام الشاشة طويلاً، واستولى ما رآه فيها على انتباهه، حتى هتفَ بتعجب: أيّ شيطانٍ

مريدٍ أوحى لك بتلك الأفكار المجنونة؟!

قلت هازئاً: شخصٌ مثلك، درس التاريخ ثم أصبح معلماً مجنوناً بالأحلام الحمقاء والشّعارات البلهاء كمصر أمّ الدّنيا، وتاريخنا العظيم، وأبطالنا العظماء، إلى آخرِ ذلك الكذبِ والتّهويل.

هتف مدافعاً: لكنّه ليس بكذب.

قلت: هع، هل تلبَّسك جنون التّاريخ أنت أيضاً؟! أنصحكَ أن تسافرَ بسرعةٍ حتى لا تتحوّل لمنتصر آخر يُلقي بجنونهِ وعقدهِ النفسيّة على عشراتِ الطّلبة فيصبحوا مثلي مهووسين بتدميرِ ذلك التاريخ الهلاميّ نكايةً في منتصر وأمثاله.

قال محاولاً التّهرب: أنتَ صغير، وليس لديكَ جواز سفر ولا أوراق رسميّة، ولن تستطيع السفر إلّا بموافقةِ وليّ أمرك.

أفسدتُ عليه لعبتهُ بقولي: وأنت مهاجرٌ غير شرعيّ بلا تأشيرة، وأوراقك الرسميّة بلا قيمة تبلّها وتشرب ماءها إن لم تستطع توفيق أوضاعكَ في أيّ بلدةٍ من البلادِ الأوروبيّة.

زفرَ بغيظٍ شديد - وقد أدركَ أنّه يتعامل مع شخصيةٍ خطيرة ـ: هناك، كلّ إنسان عليه أن يعملَ ويكسب قوتَه، وأنا لن أصرفَ على أحد.

قلت بتحدٍ: كلّ ما هو مطلوب منك هو أن تساعدني في عبورِ ذلك البحر، وبعدها سترى كم جهة ستسعى خلف عبقريّتي في ابتكارِ الألعاب.

قال باشمئزاز: إنجلترا مثلاً؟!

قلت بلا أدنى ذرّة ندم: ربما!

حاول إيلامي: أتدري حقاً ما أنتَ عليه الآن؟! بفعلتك تلك تسيء لبلادك.

قلت: كفى أسطوانات مشروخة، لست بطلاً ولن أكون، كما أنّني لا أختلف كثيراً عمّن يسقط فتاةً صغيرةً في غرامهِ وهو يعلم جيداً أنّه سيتركها ولن يعود.

أصابه سهمي بدقّة، فانتفض معتدلاً وهو يحملق بي بغضب، فقلت هازئاً: أوَليست تلك هي حقيقتك؟! لا تَصم غيركَ بالنّذالة، فلسنا سوى وجهين لعملةٍ واحدةٍ صدئةٍ تعلوها الأوساخ.

هبّ قائماً وأمسكني من ملابسي وكاد يضربني بالفعل، لكنني قلت بسرعة: افعلها هنا أمام الناس، ولن تسافرَ أبداً بعد أن يعرفَ أباك الحقيقة.

ترك ملابسي، وخرج من الفندقِ غاضباً، يحاول أن يسيطرَ على أعصابهِ ويفكّر فيما سيفعله، وسارَ حتى اقتربَ من الشاطئ ووقفَ يستنشقُ الهواء بعمق، وتبعته وأخذت أراقبه حتى هدأ والتفت لي: الأمر بحاجةٍ للكثيرٍ من المال، فهم يأخذون مبلغاً كبيراً على كلّ رأس.

قلت: ادفع لي وسأسدّد كل قرش لك عندما أبيع ابتكاراتي من الألعاب، وأكسب المال.

قال هازئاً: أنت تحلم.

قلت بإصرار: أفضل أن أحلمَ في بلدٍ قد يتحقّق فيه حلمي، على أن أحلم في بلدٍ تقتل الأحلام من قَبل أن تولد.

هتف مغتاظاً: لا أريد مشاكل ولا اعتراضات، وستطيعني بلا جدال.

هززت رأسي موافقاً: أنا مثلك وأكثر، سأفعل أيّ شيءٍ لتنجحَ تلك الرحلة.

أخذني في سيارته - أقصد في السيارة النّقل - إلى المكانِ الذي سننتظر فيه اللانش السّريع الذي ستوفّره له تلك المرأة المسؤولة عن تهريبنا كمهاجرين غير شرعيين، ووصلنا لأقربِ منطقةٍ يمكن أن يتقدّم فيها لانش للشاطئ، وجلسنا ننتظر.

كنت مستعداً تماماً للموتِ آلاف المرّات على أن أبقى في تلك البلدة القذرة، سأتغلّب على دوارِ البحر، سأتغلّب على فوبيا الماء، بل وأحضرت معي حبوباً مهدّئة وأخرى منوّمة إذا ما أصابني الهلع.

كان بداخلي إصرارٌ رهيبٌ على اجتيازِ البحرِ المرعبِ وحرقِ كلّ سفن العودة خلفي، لكن الدقائق تمضي ببطءٍ شديد وبدأت شَياطين الخوف تتلبّسني، وأنا أرى منصور ليس بينه وبين الماء سوى بضعة أمتارٍ وهو يقطع المكان جيئةً وذهاباً في انتظارِ اللانش، فقرّرت أن أشغلَ عقلي بالألعابِ علّني أنتصرُ على خوفي، وبالفعل فتحت لعبة تفاعليّة، وضحكت عندما رأيت صديقي الغنيّ مهند متواجد، لا شكّ أنه علم بما فعلت وسأل عنّي ولم يجدني، وسينتظر عودتي، فلينتظر إلى الأبد.

ورأيت هالة أيضاً متواجدة الآن، يا لها من حمقاء ما زالت تلعبُ حتى هذا الوقت؟!

تجاهلتها ولعبتُ لبعض الوقت مع أشخاصٍ لا أعرفهم من دولٍ مختلفة، حتى سمعت صوت موتور قادم من البحر، فأغلقت اللابتوب، وقمت أستطلع، لكنّني تراجعت بسرعة، محاولاً الأختباء.

الآن أواجه ما لم أكن أتوقّعه في أسوأ كوابيسي، إنّها الجنيّة اللّعينة، من أين تخرج لي، وكيف الخلاص منها؟!

عندما قلت أنّها «مخاوية» لم أكذب، لقد عرفت بمكاننا دوناً عن كلّ البشر، لقد بدّل منصور شريحة هاتفه كي لا يعلم والدهُ مكانه، وأنا ليس معي جوال، فمن أخبرَ تلك الجنيّة بمكاننا؟!

اختبأت خلف سيّارة منصور، ورأيتها وهي تقفُ أمامه بالمركبِ وصوتها يعلو، فتقدّم منها وقفزَ إلى المركب، ولم يصلني من صوتيهما سوى ضجيج الصّراخ، لكنني أعلم بالطّبع ماذا يقولان، أولست الراوي العليم؟! عليك أن تصدّق كلّ كلمةٍ أقولها أيّها القارئ، فأنتَ في تلك الرّواية لا تملك سوى ذلك.

وقف منصور أمام هالة في المركبِ وهتف صارخاً: كيف جئتِ إلى هنا وحدك في مثلِ هذه الساعة؟!

ردّت صارخة: أجب بصدق، إن كنت تنوي الفرار فلم تزوّجتني؟!

هتف: لا أنوي الفرار، أنا أسافر لأبحثَ عن حياةٍ أفضل ومال.

قالت بمرارة: كلّكم سواء، جبناء، تفرّون من المسؤولية وتتركون النّساء يحملن أطنانَ الطّين على رؤوسهنّ وحدهنّ.

هتف مدافعاً: كنت سأرسل لكِ لتلحقي بي بمجردِ أن أستقرّ وأعمل.

صرخت بحسرة: كاذب، كلّكم كذّابين، أخبرني الآن وفوراً، لماذا تزوّجتني؟!

مسكين منصور، لا يعرف هالة كما أعرفها، عندما تنتابها نوبات الجنون لا أحد يستطيع أن يعترضَ طريقها، وينطلق المارد الذي يستولي عليها من محبسهِ فيمنحها قوة عشرين رجلاً.

لم يستطع منصور أن يردّ، كيف سيخبرها أنّه نذل، تزوّجها استجابةً لضغطِ أبيهِ الذي أعطاه المال مقايضة بالزّواج، قال وهو يحاولُ ألا يستثيرَ مزيد من غضبها المتفجّر: لنعد إلى البيت، ونتفاهم وأشرح لكِ كلّ شيء، لم تردّ على كلماته، بل أمسكت بالمقودِ وانطلقت بالمركبِ في عرض النيل، لكنّها لم تكن تتّجه نحو الجنوب لتعودَ للبيت، بل تتّجه نحو الشمال، نحو المالح.

فوجئ منصور بما تفعله وبدأ يستوعب أن تلك التي تزوّجها هي بالفعل مجنونة رسمياً، إلى أين تذهب في تلك الساعة من الليل؟! فوقها ظلمات وتحتها ظلمات لا يكسر حدّها سوى مصابيح المركب، أوقفت المركب في عرضِ النيل قرب القلعة والتفتت إليه وقالت: إن كنت تعتقد أنني سأتحدّث معك على مسمعٍ من أمّي، فاعلم أنني لن أعرَّضها أبداً لمثلِ هذا الموقف ولن أحسر قلبها على زيجَةِ ابنتها الفاشلة، إن كان لديك ما تقوله فقله الآن وهنا.

نظر منصور حوله متعجباً، وقال محاولاً الفكاك من حصارها: حسناً، استمعي إليَّ بهدوء، لقد وافقت على الزّواج بإرادتي، ولديّ رغبة في أن نكملَ حياتنا معاً، لكن الأمر ليس سهلاً بلا مال، سنحيا في الضّنك والفَقر إن لم أسافر وأبني مستقبلي بيدي في مكانٍ أفضل.

-يا للكذبِ الصراح، أنت بالفعل تعمل مع والدك في كاره، ولنا شقّة فاخرة سنتزوّج فيها بأفضلِ أثاثٍ من ورشةِ والدك، فأيّ ضنكٍ تتحدَّث عنه، لم لا تترك تلك الحجج الفارغة لشابٍ فقيرٍ من شبابِ رشيد غُلِّقت أمامه أبواب الرزق؟!

-أنتِ لا تعلمين كيف هي حياتنا، فأبي هو المتحكّم في كلّ شيء، ويصرف على امرأتين والكثير من العيال، أنا بالفعل لا يمكنني التنفّس هناك.

-لم يعد بإمكاني أن أصدّقك، ولا أثق بك، والحلّ الوحيد هو أن أتّصل بوالدك ليأتيَ إلى رشيد، ويحلّ بنفسه تلك المشكلة.

أخرجت جوّالها من جيبها وفتحت الشاشة، فصرخ منصور بغضبٍ هائل: لا تفعلي.

وانقضّ عليها محاولاً انتزاع الهاتف من يدها قبل أن تتّصل، لكن هيهات، من ذا الذي يقدر على هالة في سورةِ غضبها؟!

أخذا يتصارعانِ بعنف، ولا أحد منهما يستطيع التغلّب على الآخر، حتى مالت المركب بهما مع ثقلِ وزنيهما، وسقطا في الماء.

افترق الاثنان وتشتتا في الماء، ثم التفّ منصور وعاد يسبحُ نحو أضواءِ المركبِ الظّاهرة من تحت الماء، والتقى هو وهالة في جولةٍ جديدةٍ من الصِّراع تحت الماء وهو يرى ضوء هاتفها المحمول ما زال مشعاً، وتلاقت أيديهما على الجوال كلّ منهما يحاول أن يجذبه من الآخر وضوء الجوال يشتدّ ويلمع تحت الماء.

ثم شعرت هالة بتيارِ ماءٍ شديد البرودةِ يضربُ جسدها، وأمواج عنيفة تتحرّك حولها، كل ما كان يشغلها في تلك اللحظة هو مصدر تلك الأمواج العنيفة، ففي هذا الوقت من العام ليس من المعقول تواجد تيارات مائيّة شديدة البرودة ولا أمواج عنيفة في المكانَ الذي سقطت فيه، شعرتْ بحاجةٍ ماسّة للهواء، وكذلك منصور الذي انتزعَ منها الجوال عنوة، واتّجه لسطحِ الماء لينجو، وهالة اتّجهت للمركبِ مسرعةً تضرب الماءَ بذراعيها، فالمركب هيَ المكان الوحيد الذي يشعرها بالأمان، وأخيراً رفعت رأسها وشهقت بقوةٍ وملأت رئتيها بالهواء بعد أن كادت تَهلك، ثم سبحت نحو المركبِ وتعلّقت بالكاوتشوك والحبال الملتصقة بها وتسلّقت حتى ألقت بجسدها فيها وأخذت تلتقط أنفاسها، ثم بدأت تبكي قهراً وغيظاً لقد انتصرَ بالفعل وانتزعَ الهاتف منها.

منصور! أين هو الآن؟!

نهضت على أقدامها في المركبِ بصعوبةٍ فارتجفت من ملامسةِ الهواء البارد لملابسها المبتلّة، فلفّت ذراعيها حول جسدها وأخذت تنظرُ في كلّ اتجاهٍ حولها، وتنادي منصور بصوتٍ متقطعٍ بعد المجهود المرهق الذي بذلته، لكن منظر الأماكن حولها جعل الرّيبة تلقي بظلالها على عقلها، كلّ شيء حولها غريب، ليس هذا هو البحر الذي اعتادت ولا الشاطئ الذي تعرفه، ما تلك النيران التي تبدو على الشاطئ من بعيد، وما تلك المشاعل العجيبة، وأين مصدّات الأمواج ومزارع السّمك على شاطئِ برج مغيزل؟!

سمعت صوت انفجارات عجيبة قادمة من بعيدٍ فانتفضت بخوف، وأخذت تنادي على منصور، ولم تتلقَ رداً، لكن أصوات الانفجارات تعلو وتقترب، حتى رأت مركباً قادماً من جهةِ شاطئ رشيد، فنظرت نحوها بدهشةٍ لم يكن تبدو من نوعٍ معروف.

انتفضت برعبٍ على صوتِ انفجارٍ مدوٍ بالقربِ منها، فأدركت أخيراً أنّها طلقاتٌ ناريّة، ولم يعد لديها شكّ في أن الهروب هو الحلّ الوحيد للنّجاة، فمن الغباءِ حقاً التقصّي عن هويةِ المركب أو من يُطلق الرّصاص في ذلك الجوّ المرعب، وماذا لو كانت عصابة تهريب أو مجرمون؟!

انطلقت باللانش على الفورِ مبتعدةَ إلى داخلِ النّيل، متجهة للجنوبِ ونجحت في استباقِ المركب بمسافةٍ كبيرة، لكنّها لم تترك حذرها، فربّما يحاولون خداعها بعدم تشغيل موتور المركب، ليستدرجوها لفخ! لكنها لم تكف لحظة عن التساؤل عنَ صوتِ التّفجيرات التي تصلُ لأذنيها من مكانٍ ما لا تستطيع تحديد وجهته

هل تنادي منصور؟!

لكنّها ابتعدت عنه بمسافةٍ كبيرة، فحتى لو كان في نفسِ المكان الذي تركته فيه فكيف سيسمعها من هنا؟ هل تعود لتبحثَ عنه؟!

كان لون السّماء يتبدّل وتزول الظّلمة تدريجياً، فهتفت وهي في قمّة الدَّهشة: ما الذي يحدث؟!

نظرت في ساعةِ يدها لتجدها معطَّلة والوقت توقّف عند الثانيةِ عشر والثلث ولا يتحرّك، فهزّت ذراعها بعصبيَّة وكأنما ستعمل السّاعة بهذهِ الطَّريقة، وهي تلعنُ المنتجات الصينيّة فقد اشترت تلك الساعة بثمنٍ كبيرٍ وقالوا لها أنّها بخواص ضدّ الماء، والآن خربت بمجرّد أن غطست تحت الماء، لم يكن هذا هو الأمر الوحيد العجيب، بل انتبهت إلى أن ملابسها قد جفّت بسرعةٍ مدهشة، والأعجب أن الشمسَ قد أشرقت في زمنٍ قياسيّ، لا يمكن أن تصدّق أنّها بقيت تحت الماء مع منصور كلّ هذا الوقت.

تُرى أين منصور الآن؟! وأين الزّفت الذي ترك أمّه وأخته ليجري خلف السراب، ما أشبه الابن بأبيه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# النَداهة

كان منصور يصارع تيّار الماء وهو يحاول جاهداً أن يبتعدَ عن تلك الدوّامة العجيبة التي تجذبه بعنف، ودسّ هاتف هالة في جيبِ بنطاله كي لا يفقده، وسمع صوت موتور مركب هالة بمجردِ أن رفع وجهه فوق الماء، ورأى أضواءها تبتعد، هل تركته يغرق وهربت؟!

بعد جهدٍ جهيدٍ سبحَ مبتعداً عن الدوّامة والتيّارات الباردة، لكنّه سمع أصوات انفجاراتٍ ورأى من بعيدٍ شرَر يومض وينطفئ، وأنوار مركبٍ عجيبة، أخذ يدور حول نفسه في الماء بإنهاكٍ يبحث عن شاطئٍ قريب، وعندما رأى الأنوارِ الرّاقصة على الشاطئ، لم يستطع أن يسألَ نفسه عن سرِّ منظرها المختلف عن كلّ ما يألفه، فقد استُنفذت قواه، فترك جسدهُ فوق الماء دون مقاومةٍ ليلتقطَ أنفاسهُ ويريح عضلاته، وسمع صوتَ همهماتٍ قادمةٍ من جهةِ الشاطئ، وأشباح تقف هناك، وأدرك أن بضعة رجالٍ رأوه فرفعَ يده وأشارَ لهم، ثم أخذَ يسبح ببطءٍ نحوهم، ولم يتأخروا عليه فقد توغّل أحدهم في الماءِ وسبح حتى وصلَ إليه، وتلقّفه وسحبه للشاطئ، وعاونه البقيّة على إخراجهِ من الماء، لم يكن لديه أيّ قدرةٍ على المقاومةِ ولم يترك له عقله الفرصة ليتبيّن من التفّوا حوله، بل سقطَ بينهم فاقدَ الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقيت واقفاً على الشاطئ أُحملق في البحرِ المُظلم في انتظارِ ظهور أحدهما من تحت الماء، ولكن فص ملحٍ وذاب، لم يظهر أيّ منهما، ولم يكن على الشاطئ غيري في تلك السَّاعة من اللَّيل، ولا أسمع سوى صوت ضربات الماء لمصدّات الأمواج على الشاطئ، وطالَ بي الانتظار وقلبي يرتجف من ألّا أرى منصور ثانية، وأفقد للأبد تذكرة الخروج النهائيّ من تلك البلدة.

اللَّعنة عليكِ يا هالة، دائماً ما تعترض طريق مستقبلي وتفسد أحلامي.

كان عليَّ انتظاره للأبد، فليس من السّهل التّضحية بحلمٍ كهذا، ولو تحتّم عليَّ قتالُ هالة لأجله، فسأفعلُ بلا تردّد.

فتحت اللابتوب لأأتنسَ بنوره، وأشغل عقلي عن الخوفِ وأنا في انتظارِ الذين رحلوا، وكذلك كنت أريد أن أعرفَ كم مضى من وقتٍ منذ قَدِمَت وجه النّحس، وتعجّبت عندما رأيت الساعة الثانية عشر وخمس وأربعون دقيقة، لم يمضِ سوى أقلّ من ساعة.

عجباً... وجدت إشعاراتٍ كثيرةٍ تأتيني من اللّعبة التي بقيت مفتوحة منذ أن كان منصور يشاهدها في الفندق، ففتحتها في الشاشة الرئيسيّة لأجدَ أن اللّعبة تعمل بالفعل، لم أغلقها من وقتها، حاولت التحكّم باللّاعب الرئيسيّ، الملقى في الماء، لكنّه لم يستجب لأيّ مفتاحٍ أضغط عليه من لوحةِ المفاتيح، فأُصبت بالعصبيةِ والتّوتر، اللّعبة التي أعتمد عليها لتغيير حياتي وصنع مستقبلٍ أفضلٍ لي تعطلت!

منذ أن خرجت لنا الجنيّة من الماء وهجمت على منصور كالنّداهة التي في الحواديتِ وكلّ شيءٍ يسيرُ من سيءٍ لأسوأ، أخذت أسبّها وأنا في قمّة الغيظ.

أدركت أخيراً ما يحدث، فاللّعبة مفتوحة على هاتفِ هالة والتحكّم فيها من هناك، لا أذكر متى فتحتها على الهاتف، ولكن هل فعلت هي؟! هل عرفت مكاني عندما فتحت اللّعبة ووجدت أنّها مشغلة بالفعل؟! فاللّعبة متصلة بالهاتفِ واللابتوب معاً، وهذه الخاصيّة أضفتها احتياطياً في حالة انتهى شحن الهاتف أو تعطّلت اللّعبة على اللابتوب، فعندها أستطيع أن أبدّل بينهما ولا أخسر، لكن طالما ما زالت اللّعبة مفتوحة على الهاتف أو لا وتعمل، ستظلّ خاصيّة التحكّم في اللاعبِ من هناك.

إذا هالة عرفت أين أنا من خلالِ اتصال اللّعبة بالإنترنت وبعدها من السَّهل أن تبحثَ عن موقعِ اللابتوب.

يا لغبائي! لا يمكن أن أكون أخاً لكائنٍ شيطانيٍّ كهالة، ولا أحسب حساب لذكائها أو لأنها يمكن أن تتعقّبني عبر الإنترنت والقمر الصناعيّ.

هل تطوَّرت فتيات مصر لتلك الدّرجة أم أن هالة استثناء، و«مخاوية» بالفعلِ أم أنّه جهلٌ منّي وغباء؟!

ولكن أين اللاعب الافتراضي؟! لا يمكنني تحريك مفاتيح اللابتوب طالما اللّعبة مفتوحة وتعمل على الهاتف، لا يمكنني فعل أيّ شيء سوى المشاهدة!

والتحكّم الآن في اللّعبة بيدِ هالة، وهي الوحيدةُ القادرةُ على تحريكِ وتوجيهِ اللّاعب الافتراضيّ.

ولكن... أين هو اللاعب الافتراضيّ الآن؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت بداخل المركب وتشعر برعبٍ حقيقيّ، عيناها جاحظتان من الذّهول وفكّها يتدلّى والدَّهشة تصرخ في عقلها

أين أنا؟!

سألت نفسها هذا السؤال عشرات المرّات وهي تسير بمركبها ببطءٍ بمحاذاةِ شاطئ رشيد، فنيل رشيد وشواطئه الذي تحفظ تفاصيله كخطوطِ كفّيها لم يعد له ملامح واضحة، كل شيءٍ فيه تغيّر ولا يحمل أيّ شبهٍ لما كانت تعرفه، أين مصدّات المياه؟! أين القرية السياحيّة التي كانت هنا، وأين البيوت والعمائر؟! والقهوة المطلّة على البحر ويحلو لبعضِ روّادها وضع كراسيهم في الماء!

وماذا عن برج السنترال! أين ذهب؟ وماذا جرى للشاطئ الآخر؟! أين ذهبت برج مغيزل، أين ذهبت مطوبس؟!

بل أين ذهبت مصر التي تعرفها؟!

من الممتعِ والمثير أن أعلمَ أن تلك الجبّارة خائفة حقاً، ترتعد من فكرةِ الضَّياع.

نعم أنا أخوها، لكنني مستمتعٌ بفكرةِ أنّها مرعوبة، فلا تندهش أيّها القارئ، فما زال أمامكَ الكثير لتعرفه عنّي وعنها في السُّطور القادمة.

إنّها لم تبرح نيل رشيد منذ ليلةِ الأمس ولم تنزل الشاطئ ولم تغادر المركب، إذا، فأين هي الآن؟!

كانت منزعجةً للغاية ممّا تراه حولها، - أو للدقة - مما لا تراه وتفتقده، وما هذا الهدوء البشع الذي يلقي الرّعب في القلوب، بعد كلّ الضّجيج الذي عاشت في قاعهِ طوال عمرها، صار الآن الهدوء بالنسبةِ لها مرعباً قاسياً عندما يختلط بالغموضِ والتّيه وكل ما هو غير مألوف

أين البشر؟!

كل ما تراه عن يمينها وشمالها وعلى مدّ البصر، حقولٌ خضراء يانعة، وغاباتٌ من نخيلٍ باسقات، وأشجارُ الجميز تتناثر في بضعةِ حقولٍ ناشرةً ظلّها، ولكن لا أثرَ لبشر، ما كان يحيرها حقاً، هل هي في رشيد أم في مكانٍ آخر؟! خطر لها خاطرٌ أرعبها، ربّما ماتت تحت الماء وهي تصارعُ منصور، وصعدت روحها إلى الجنّة! ربّما هي تقترب الآن من استنتاجِ الحقيقة، فما تراه الآن من جمالٍ خلّاب لا يوجد إلّا في الجّنة، هبَّت نسائمُ منعشة معبقة برائحةِ أشجارِ البرتقال واللّيمون، فاستنشقتها بعمقٍ فمالت رأسها نشوةً من جمال الرّائحة وكادت تسقط، فجلست بسرعة في المركب، وأغمضت عينيها تستنشق العبيرَ الأخّاذ، الآن يمكن أن تصدَّق حقاً أنّها في الجنّة، فقد زالت رائحةُ وقودِ المراكب (المازوت)، وعطن المياه التي تلوّثت بالصَّرف الصحيّ والصناعيّ، ونَمت الأعشاب العطريّة والبوص على الجانبين.

بقيت جالسةً في المركبِ شاردة، وقد خلا عقلها من كلّ صنوف التّفكير، وكأنّما تخدَّر بفعل ذلك السّحر الخلّاب، تقبل على وجهها نسمات الهواءِ المعطّرة براحةِ الموالح، لا تسمع سوى صوت العصافير والماء وهو يلامس بحنوٍّ الشاطئ، ولا ترى سوى الأخضر في كلّ مكانٍ بكلّ درجاته، وتمرّ من فوق رأسها الطُّيور البيضاء لتحطَّ فوق الحقول، وسط سماءٍ صافيةٍ ترسم فيها السُّحب لوحات إبداعيّة.

تلك الحمقاء فقدت عقلها بحقّ، كان عليها أن تنتبهَ لما هو قادمٌ خلفها، ولكن كيف تنتبه؟! والمركب بلا صوت! لكنّها انتفضت مرتعبة عندما شعرت برجةٍ في مركبها، ونظرت خلفها لتجدَ مركباً شراعياً كبيراً التصقَ بمركبها وأحدهم مدّ ساقه في مركبها بالفعل، وأدركت من المشهد أنّها تتعرَّض لهجومٍ غير مبرّر، ولو بقيت متجمّدة من المفاجئة فسيقفز إلى مركبها خمس أو ستّ رجالٍ على الأقل، فقفزت إلى الموتور وشغّلته وانطلقت بسرعةٍ مبتعدة، فاختلَّ توازن الرجل الذي قفزَ إلى مركبها وسقطَ في الماء، وأخذت هالة تنظر خلفها بخوف، تخشى أن يتتبّعونها، لكن مركبهم كان شراعيًّا، ولم يستخدموا موتوراً للحاقِ بها، ولم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذي أثارَ عجبها، بل أيضاً مظهر الرّجال العجيب، كانوا يشبهون البهلوانات بستراتهم الحمراء الطّويلة حتّى الركبة، وبناطيلهم الملتصقة بسيقانهم وتلك القبّعات العجيبة فوق رؤوسهم.

كانت تعتصر أفكارها محاولة تذكر، أين رأت تلك الملابس من قبل؟! فهي مألوفة لديها، الآن تذكّرت... في رحلةٍ في مدرستها الإبتدائية على متحفِ رشيد، كانت تلك هي ملابسُ الحملة الإنجليزيّة على رشيد، هل يمثّلون فيلماً تاريخياً هنا؟!

هل تذكّرت السينما أخيراً أن ههنا بلدة اسمها رشيد تحمل تاريخاً يستحقّ أن يخلَّدَ في السِّينما، ولكن لم هاجموا مركبها؟! نظرت خلفها لترى المركب من بعيد (يا للإتقان، لقد أحضروا مركبًا شراعياً قديماً للغاية ووضعوا عليه علم إنجلترا ليناسبَ تلك الفترة من القرنِ التّاسع عشر، كانت ترغب بشدَّة في مشاهدةِ كواليس فيلم أثناء تصويره، لكنّها خافت أن تعودَ للسفينةِ وحدها، فما الذي يضمن لها ألّا يطلبوا منها تصريحاً مدفوعاً، أو يتّهموها بإفسادِ اللّقطة؟! ربّما لو كان منصور هنا ما كانت لتخشى شيئاً.

منصور!

يا لكِ من حمقاء، تستحقّين ذلك الألم الموجع في قلبكِ كلّما تذكّرتيه، لتحمل الذكرى معها ألمَ الشُّعور بالغدرِ والخذلان،

لا تبدئي الآن بإلقاءِ التّهم ولا تحاولي إقناعَ أحدٍ أنّك وقعت في الحبّ، فقد كان زواج مصلحة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، وما حدث أعلى السلّم ورأيته بعيني لا يثبت شيئاً، بل هو من ضروراتِ إكمالِ الصُّورة والتَّظاهر بأنَّه زواجٌ ناجح،

هالة دائماً ما كانت تستفزّ أعصابي بذكائها، ولكن يبدو أنها قد نسيت عقلها في حاملِ الأحذية قبل أن تدخلَ تلك المغامرة وتسرق منّي حلمي بالبطولةِ هي ومنصور.

منصور... فلنذهب ونرى ما يفعله عريس الغفلة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما استفاقَ منصور وجدَ نفسه ملقىً على بطنهِ وخده على الطينِ اللّزج وهو يتقيأ الماء الذي ابتلعه، وحِملٌ ثقيلٌ يضغطُ على ظهره، كان يسعلُ وهو يسمع حوله أصوات خشنة تكبّر وتحوقل، ثم تشاركت عدّة أيادٍ قويّة للفّ جسدهِ وإجلاسهِ مستنداً لشجرةٍ يلتقطَ أنفاسه بعد أن أوشكَ على الغرق، وثمانية عيونٍ تتطلّع لوجههِ بقلقٍ وترقّب، أخذ ينظر لملابسهم القديمة ومظهرهم الغريب، أحدهم أسمر لوحته الشمس بحمرتها فصارَ أشبه بجمرٍ مشتعل، والثاني بوجهٍ قمحيٍّ وشاربٍ خفيفٍ ولحيةٍ دائريّة، والثالث عملاقٌ ضخمُ الجثّة يبدو من ملامحه أنّه أجنبيّ بعيونٍ زرقاء وشعرٍ بنيٍّ ووجه أبيض مشرّب بحمرة، ورابعهم بوجهٍ مستديرٍ وشعرٍ أسودٍ مموّج طويلٍ إلى رقبتهِ يقطر منه الماء، ولحيةٍ متفرِّقة في وجههِ أدركَ بالبديهة أنّه هو من أنقذهُ من الغرق، وشعر بين الأربعة بالاطمئنان، فوجوههم طيّبة ونظراتهم تحمل الاهتمام لا الشرّ، قال الأسمر: كيف حالك يا أخي؟

عقد حاجبيه متعجباً من لهجته التي لم يسمعها قبلاً، لكنّها تشبه لهجة الصعايدة.

لم يجب عن السؤال، بل جالَ بنظراتهِ في وجوههم يبحث عن إجاباتٍ لأسئلتهِ التي لم يُفصح عنها بعد.

فهتف الشابّ المبتل وهو ينتفضُ مغتاظاً: إنه كالقرد، لا تخشى عليه.

تكلّم الشابّ الثالث: لم لا تتكلّم؟! هل تشعر بالتّعب؟

هتف الشابّ المبتلّ وهو يعتصرُ ملابسه ويعدل جلبابه ليرتديه: اطمئنوا سيعاود الجحش النّهيق حين ينهض.

أقبل عليه الصَّعيدي وقال محتراً: أغلق فمك يا حسن على لسانك الزالف قبل أن أقطعه.

ارتدى جلبابه وقال مغتاظاً: إنّه خطأي من البداية، أين كان عقلي لألقيَ بنفسي في اليمّ قبل الفجر، وأنقذَ ذلك المجنون؟!

هتف الشابّ القمحيّ: كدت تغرق معه.

قال وهو يتناول قطعةَ قماشٍ بيضاء طويلة ويبدأ في لفّها حول رأسهِ على شكلِ عمامة: بالفعل يا شرقاوي، فمياه النّيل ليست كالبحر، لم أعرف لأيّ درجةٍ هي مرهقةٌ في السّباحة إلّا بعد أن جربت.

ضحك شرقاوي: أنت هناك حوت في بحرِ الاسكندرية، لكنّك هنا بسارية ضلّت طريقها من سربها.

نظر له مستنكراً المزحة السّخيفة: لا تحاول المزاح فلن تجيده أبداً، وظلّك ثقيل.

هتف بهم الصّعيديّ وهو يقتربُ من منصور: توقفا عن المشاكسةِ كالعيال، نريد أن نطمئنّ عليه.

قال حسن وهو يضبط العمامة حول رأسه: قلت لكَ إنّه كالقرد، لكنّه مصابٌ بصدمةٍ من بقائهِ لبعض الوقت تحت الماء.

جلس الصّعيديّ القرفصاء أمام منصور، ونظر له باهتمام قائلاً بصوتٍ قويّ: أعلم أنّك مصدوم ومحطّم الفؤاد لأننا لم نجد أهلك بعد، ولكن اطمئنّ، سنفتّش رشيد بيتاً بيتاً حتى نجدهم.

نظر حسن - الذي أنقذه - نحو مجرى النّهر، ثم قال بصوتٍ حذر: فلنرحل من هنا أولاً، قبل أن نصبحَ نحن المفقودون لا أهله.

انتبه الجميع على مركبٍ قادمٍ من بعيد، فهتف الصّعيديّ لمنصور: تستطيع المشي أم نحملك؟!

نهض منصور بجسدٍ خائرٍ يحاول الوقوفَ لكن جسده خانه وكادّ يسقط، صرخ مجاهد: طه.

فأسرع العملاق الأجنبيّ وحملهُ على كتفه، وانطلقَ الشباب يجرون معاً بعيداً عن الشاطئ، متوغّلين في الحقولِ حتى وصلوا بالقربِ من أكمةٍ من نخيلٍ ملتفٍّ حول بعضه ثم اختاروا شجرةً قريبةً أغصانها متشابكة وتميلُ للأرض، فوضعَ العملاق منصور في ظلّها وجلسوا جميعاً حوله، وهتف حسن لزميله: شرقاوي، قم وراقب

المكان جيداً. فعل شرقاوي، وانضمّ له العملاق يراقب هو أيضاً، ثمّ قال حسن لمنصور: بمجرّد أن تستردَّ عافيتك، سنرحلُ على الفورِ لمكانٍ آمن.

حاول منصور النّهوض، فوقعت عيناه على بنطالهِ فانتفض بخوفٍ وتسارعت أنفاسه وهو يتفحّص الملابسَ الغريبة التي تغطّي جسده، لم تكن ملابسه أبداً، بل لم تكن ملابس يلبسها أيّ شابٍ يعرفه.

لكنّها تشبه لحدٍ بعيدٍ ملابس هؤلاء الذين التفّوا حوله

كان يحاول جاهداً تذكّر اسم ذلك الجلباب المفتوح من الأمام ويمسكه حزامٌ قماشيٌّ يلفّ خصره.

(القفطان) لقد قرأ عنه في كتبِ التّاريخ.

تمتمَ منصور بذعر: من أنتم؟ ومن ألبسني ملابس البهلوان تلك؟!

نظر له الاثنان بدهشة، ثم تبادلا نظراتٍ القلق، فسأله الصعيديّ: ماذا دهاكَ يا صديقي؟! ألا تعرفنا؟!

قال بصدقٍ محاولاً التفتيش في ذاكرته: لا.

نظر الصّعيديّ لحسن متوعداً، فهتف محتراً: لا تنظر لي تلك النظرة، فلم آكل عقلهُ تحت الماء، ربّما انقطاع نفَسهِ لدقائق خرّب عقله.

عاود الصّعيديّ تفحّص وجهه غير مصدّق: ألا تعرفني حقًا؟! أنا صديقك مجاهد... الشهيد.

تمتم بذهول: الشهيد؟!

ما يعرفه حقاً، أن عقله لا يزال سليماً لم يُعطب، وأنه بالفعل لم يرَ هؤلاء في حياته أبداً.

(تعالوا وانظروا...)

أخرجته من مأزقهِ تلك الصّرخة التي هتفَ بها من يدعونه شرقاوي، فاندفع الصّعيديّ والاسكندرانيّ يلحقا به، فأشارَ باتجاهِ النّيل: مركبٌ قادم.

صمت الجميع بانبهارٍ أمام ذلك الاختراع العجيب، وفهم منصور عن أيّ مركبٍ يتحدّثون فقد كان صوته مألوفاً لديه، ذلك المركب الذي حرمه من حلمهِ بالسفر - ذلك الأبله لا يدري بعد أنّه حرمه من شيءٍ أكبر بكثير-

انضمّ لهم منصور على الشّاطئ بعد أن تمالكَ جسده ووقف على قدميه، لكن هالة لم تنتبه لهم فقد كانت تراقب مجرى الماء من خلفها لتطمئنّ لابتعادِ مطارديها، لم تكن تدري لحظتها أن الخوفَ الغير مبرّر والذي تحاول التخلص منه بطمأنةِ نفسها أنّهم مجموعة ممثلين يصوّرون فيلماً تاريخياً، يخفي بداخلهِ بركةً ضخمةً من الرّعب الأسود تنتظر فقط كشف الحقيقة لتبتلعها.

كنت أظنّها ذكيّة تتلقف الفكرة وهي طائرة، لكن البشر كلهم سواء أمامَ الخوف، يحاولون الهرب منه بكلّ السُّبل ولو بالإنكار.

لم تلتفت هالة لمن على الشاطئ إلّا عندما سمعت صرخةَ منصور باسمها، فأبطأت سرعةَ المركبِ بعد أن تجاوزتهم بمسافةٍ والتفّت وعادت إليهم، وصوت الاسكندرانيّ يكبّر ويهلّل وقد غشيه الذّهول مما يراه: ما هذا؟! بساط الريح؟! والصّعيديّ يسأل بدهشة: من هذه؟!

لم يرد منصور، فقد كان يلوّح لهالة لتعودَ بالمركب، لكن شرقاوي تطوّع بإجابة من عقله: ربّما أخته نجحت في الفرارِ من الإنجليز.

لم ينتبه لهما منصور، بل قفزَ لمركبِ هالة بمجردِ أن توقّفت، فصرخت بدهشة: ما هذا الذي ترتديه؟!

كاد يصرخ في وجهها لكنّه فوجئ بالإسكندراني يقفز للمركبِ خلفه، وقبل أن ينطقَ تبعه الآخرون بسرعةٍ فصار المركب ممتلئ بهم، كان منصور ينظر في وجوههم بدهشةٍ لا يدري كيف ولا لماذا تبعوه للمركب، لكنِ مالم ينطق به أفرغته هالة في وجوههم: من أنتم؟! وكيف تقتحمون مركبي؟! من أذِن لكم؟

«عجباً، تظنّ نفسها القبطان ذو اللّحية الصّفراء!»

لم يتحدّث منصور، فقد كان بانتظارِ الإجابة تماماً مثلها، لكن ثلاثةً منهم كانت عيونهم على حذائها الأبيض العجيب ذو الرّباط الطّويل والذي لم يروا مثله من قبل، - ماذا لو رأى هؤلاء الكروكس ـ

هتف الصّعيديّ وقد احمرَّ وجهه غضباً: تحشّمي ولا تصرخي في وجهِ رجل.

التفتت لمنصور وهتفت: من هؤلاء يا منصور؟! أتعرفهم؟!

رفع الشرقاوي حاجبيه عجباً: منصور! إنه «عبد العزيز»

نعم أيّها القارئ، من المفترضِ أن يكونَ «عبد العزيز»

كادت هالة أن تهاجم، لكنّها شعرت بالمركب يهتزّ وسمعت صوت فتح باب الموتور، فنظرت خلفها لتجدَ الاسكندراني منكفئ فوق فتحةِ موتور المركب فصرخت هلعاً: ماذا تفعل يا مجنون ابتعد عن الموتور.

تراجعت خطوتين للخلف ووقفت وقفةَ قتالٍ حذرة وصرخت في وجوههم: أيّها اللصوص! منصور، اتّصل بالشرطة.

هدر الصّعيديّ في وجهها: اخرسي يا مرة، تقفين أمامنا حاسرةَ الوجهِ كالإماء! وتصرخين بتبجّح!

فتاةٌ أخرى في توقيتٍ آخر كانت لتخرّ مغشياً عليها أمام شابٍّ صعيديٍّ يقف أمامها كجذعِ نخلٍ مشتعلٍ بالغضب، يكاد أن يحوّل لحم وجهها فتات فقط لو سقطت قبضتهُ عليه.

لكنّها ليست فتاة، إنّها هالة وعندما تشعر بالخطرِ فهي تتحوّل لكائنٍ آخر لا يمتّ للبشرِ بِصِلة، لو أضفنا أن كلمة «مرة» نزلت علَى وجهها كصفعةٍ مدوِّيةً لأدركنا حجم القنبلة التي ستحدث عندما صرخت في وجهه: أتسبّني يا بن ال...؟!

تجمّد الشباب الثلاثة يراقبون رابعهم وقد جحظت عيونهم رعباً، ومال شرقاوي على أذنِ منصور: عليك أن توقفهما قبل أن يتملّكه الشيطان ويحطّم المركب بمن عليه، تعلم مجاهد عندما يغشاه الغضب.

لم يكنِ منصور يعرف حتى اللّحظة مَنْ مجاهد! لكنّه أدرك بالفعل أن على المركبِ وحشاً سيفترسهم في التوّ إن حُلّ لجامَ غضبه، فقد تحوّل بياض عينيه للونِ الدم وبدا أنه سيهمّ بقتلِ هالة، فاندفعَ منصور ليحولَ بينهما، فكان كمن انتزعَ فتيلَ القنبلَة قبل انفجارها فقد استفاقَ مجاهد من غضبتهِ وهتف لمنصور: عليك أن تؤدّب أختك قبل أن يتسبّب لسانها بمصرعها.

أخذ منصور يربت على كتفهِ ويعتذر له ليهدئه حتى عاد وجهه لصورتهِ البشرية، لكن هالة استشاطت غضباً وضربت منصور بقبضتها في ظهرهِ وهي تصرخ مستنكرة: أخته؟!

التفت لها وقد صار على حافةِ الجنون من كلّ ما يحدث حوله وكمّم فمها بكفِّه وهو يصرخُ مغتاظاً: اخرسي حتى نخرج مما نحن فيه.

ثم جرّها إلى مقدّمة المركب وأخذا يتجادلان بصوتٍ خفيض.

مال شرقاوي على مجاهد وقال متباهياً بصحّة استنتاجه: إنها أخته، الحمد لله وجدنا واحدةً ممن نبحثُ عنهم.

قالت هالة بغيظ: علينا أن نذهبَ للشّرطة، إنّهم لصوص.

قال بصوتٍ خفيض: اخفضي صوتك فذاك الصّعيديّ لو غضب فسيغرقنا جميعاً.

-لقد استولوا على مركبي.

-هؤلاء أنقذوا حياتي، ذاك الاسكندراني أخرجني من الماء بعد أن كنت على وشكِ الموت.

نظرت تجاه الشابّ الذي غطس رأسه داخل علبة الموتور: سيخرب موتور المركب فلنذهب لقسم الشرطة.

-افتحي عقلك قليلاً وانظري حولك، هل هذه رشيد التي تعرفين؟! هل لا يزال هنا شيء تألفينه؟!

تطلّعت حولها وبدأت تستوعب ما يريد قوله، فلم يكن أيّ شيءٍ حولها مألوف، لا شيء على الإطلاق، لكنّها هتفت كمن يتمسّك بآخرِ أملٍ له: نعم، القلعة.

زفر بغيظ: بالطّبع القلعة كما هي منذ أن بناها قايتباي، أنا أسأل عن الأرض، الكورنيش، دفّتي النيل، المباني...

تلك الحمقاء تدرك جيداً ما يتحدّث عنه لكنّها تخدع نفسها بالإنكار، مسكينة، الصّدمة أقوى من عقلها.

لذلك فقد التفتت له وقالت بغباءٍ مطلق: ربّما اليوم هو العيد القوميّ لمدينة رشيد، والمحافظة تحتفل به! إنّهم يقيمون موكباً في النيل من المراكبِ الإنجليزية القديمة وعليها ممثّلين بملابس تشبه...

هتف وهو يشدّ شعره: ارحمني يا رب، استمعي إليّ، هؤلاء ليسوا ممثّلين، هناك شيءٌ عجيبٌ حدثَ لنا تحت الماء ولا أدري ما هو، استيقظي واستمعي لي، نحتاجُ أن نفهمَ ماذا حدث لنستطيعَ التّعامل معه.

خاطبُ أختي عقلهُ منظَّم ولا يستسلم للصَّدمة بسهولة، رائع، لكنّه وقع في فتاةٍ غبيةٍ أفسدت له حياته ومستقبله، فقد قالت: ربما ليسوا ممثّلين لكنّهم لصوص، نصابين.

التفت منصور نحوهم، فوجد الصّعيديّ متحفزاً نظراته تنضحُ بشررٍ أخافه، والشرقاوي يمسك بذراعه محاولاً تهدئته، والعملاق يراقب الاسكندراني وهو منكفئٌ على الموتور ويتفحّص المِقود، فجرّها من يدها وقفزَ من المركبِ إلى الشاطئ ليستطيعَ أن يتحدَّث إليها بعيداً عن آذانِ هؤلاء.

قالت هالة مهدّدة: قسماً بربي يا منصور، لو حدث شيء للمركبِ فستدفع الثّمن غالياً أنت وأبيك.

انفجر الشّجار بينهما مجدداً وفقد منصور آخر خيط يربطه بعقله، فهالة حقاً كائنٌ مستفزّ، لا يُحتمَل، والأربعة الآخرون في المركب يراقبون الجدال الحامي بين الاثنين من دون أن يجرؤ أحدهم على التّدخل، فما شأنهم بأختٍ وأخيها؟!

ليتني كنت بداخل إطار المشهد الكوميديّ، حينها لما كففتُ عن الضّحك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# اللاعبة

هل حان الوقت لأتدخل؟! أظنّه مناسباً تماماً، فبعد أن تلقّيت الصَّدمة على شاطئ رشيد الحقيقية، وبعدها فهمت كلّ شيء، وعليَّ أن أستمتعَ وأنا أنقل إليهما الخبر بأكبر قدرٍ ممكن من الساديّة والتشفّي والاستمتاع بعذابهما، فقد كنت على الشاطئ بجوارِ سيّارةِ منصور- أعني سيارة أبيه - وأنا أتميّز غيظاً، فاللّعبة التي كشفت مكانيَ لهالة تعمل وحدها ولا يمكنني التحكّم في اللاعب الرئيسي، فحسابي في اللّعبة مفتوحٌ في الهاتفِ وليس اللابتوب، أنا هنا فقط متفرّج، واللّعبة تدور أمام عيني.

فعلتها بي هالة واستخدمت السحر مجدداً... وسرق مني خاطبها دور البطولة.

كان منصور يتجادل مع هالة على الشاطئ، والأربعة في المركب ينظرون نحوهم حتى سمعوا صوتاً غريباً لم يسمعوه في حياتهم من قبل، كما لو كان موسيقى، فانتفضوا جميعاً يكبّرون ويحوقلون وينظرون نحو منصور الذي لم يهتمّ أو لم ينتبه لصوتٍ يصدر منه اعتاده منذ سنوات طويلة وصار جزءاً من حياتهِ اليوميّة، فاستمرَّ في الشِّجار مع هالة التي انتبهت أخيراً أن هاتفها المحمول في جيبه، فصرخت في وجهه: أعطني هاتفي.

أخرج منصور الهاتف من جيبهِ باعتيادٍ روتينيّ، ودفعه إليها بغيظٍ وهو يهتف غاضباً: خذي، واستدعي أبي، أو الشرطة، أنا لا أبالي، لقد أفسدتِ كل شيء.

لا أفهم لم أعطاها الهاتف ولم يدعني أتحدّث إليه رجل لرجل! النّساء يفسدنَ كلّ شيءٍ بفهمهنّ البطيء وأسلوب إنكارِ الحقيقة الذي يستخدمنَه لاتّقاء الصَّدمات القاتلة.

أفسدت عليَّ التلذُّذ بالمفاجأة بغبائها، فلم تستوعب بعد أين هي ولا ماذا حدث، وهي تعتقد أنني أستظرفُ أو أدّعي نكتةً سخيفة، فطلبت منها أن تعطيني منصور أتحدّث إليه، لكنها أغلقت الميكروفون وتسبّني، بل لم تنتبه أبداً أنها تتحدَّث عبر ميكروفون اللّعبة، لكن هو الذي انتبه أخيراً فانتزع منها الهاتف وفتح الميكروفون، فكادت تشتبك معه وتخطفه منه لكنه حالَ بذراعه بينها وبين الهاتف، وأوّل ما فعل أن صرخَ في وجهي: ماذا فعلت يا زفت؟!

هل يفضل أن يناديني باسم الشّهرة الذي أمقته؟ لا بأس، لن أتوقف كثيراً أمام ذلك، يكفيني أن أشعرَ بالشماتة وأنا أراه يكاد يجنّ غيظاً فقلت أستفزّه: مرحباً بكما في عالمي الخاصّ.

هتف مغتاظاً: كيف أتيت بنا إلى هنا؟!

قلت ساخراً: حوّلتكما إلى قزمين، أو ألقيت بتعويذةٍ سحريةٍ في الماء... أو أسقيتكما عقار الهلوسة ربما...

ألقى في أذني بحممٍ من غضبه: عندما أضع يدي عليك فالقزم سيصبح مسخاً مشوَّها، إن لم تساعدَنا على الخروجِ من هنا، فلن تستطيعَ أن تتعرّف إلى نفسك في المرآة بعد ما سأفعله بك.

نظرت في خريطة اللّعبة ورأيت علامةً حمراء تشير لمركبٍ كبيرٍ تقترب من المنطقة، فقلت بنشوةِ التشفّي وأنا أقلّد الصَّوت المسجَّل في اللُّعبة بآلية: الأعداء يقتربون، الأعداء يقتربون، عليكما الهروب من هنا الآن.

التفت خلفه ونظر في اتجاهِ الشمال عبر مجرى النيل المتّجه نحو البحر ثم صرخ بفزعٍ وهو يجري نحو مركب هالة: إنهم قادمون.

ذات العقل الحجريّ لم تفهم بعد ما نقوله، لكن غريزة الخطر في الأنثى دفعتها للركض خلفه بأقصى سرعة، وارتبكَ الشباب الأربعة الذين لم يغادروا المركب بعد، وهم يصرخون بعبد العزيز... أعني منصور! وحدث هرجٌ شديدٌ وتحدّثوا جميعاً في صوتٍ واحدٍ بكلماتٍ مختلفة، وفهمِ منصور بضع كلماتٍ تناثرت منهم أن العدوّ أمامهم ولو لم يتحرّكوا في التوِّ سيحاط بهم، وأخذوا يصرخون برعبٍ باسم «حسن».

والاسكندراني يتحرّك على المركبِ بعشوائيةٍ كبيرةٍ ويدور بينهم بسرعةٍ حتى كادَ يسقط في الماء، ثم أمسك بالمقود... هل سيحرز الهدف؟!

معذرة... تقمصتني شخصيّة معلقٍ رياضيٍّ للحظات.

ركض منصور نحو المركبِ وخلفه هالة ومدّ ساقه ليقفز داخله، لكن المركب تحرّك فجأةً من مكانه بسرعةٍ كبيرةٍ وكادَ منصور يسقط على وجهه في الماء لولا أن جذبته هالة من كتفهِ للخلف بسرعةِ بديهةٍ اعتادتها من طول مرافقةِ أبي في المينا والورشة.

لكنّها نظرت نحو المركبِ الذي انطلق بسرعةٍ عاليةٍ ومن فوقه فقدوا توازنهم وكادوا يسقطون لولا أن تشبّثوا بأركانه، فأخذت تصرخ عليهم: لصوص... مركبي.

جرَّها منصور خلفه وهو يشاهد مركباً كبيراً قادماً نحوهما عليها العلم الإنجليزي وهو يصرخ برعب: اهربي.

المسكين لا يستطيع أن يقفَ لحظةً ليفكّر هل هو في حلمٍ أم حقيقة! لقد ألقى بعقلهِ جانباً وصارت غريزة الخطر هي فقط ما تحرّكه، فلا يمكّنه التوقّف الآن ليتحدّث مع سفينة إنجليزية تحتلّ بلاده.

حسناً لقد فهم القرَّاء... ولكن، هل يدركون بعد أبعاد الكارثة؟!

حسناً، لقد وقع الاثنان فيما كانا يحذراه، أسرهم جنود الإنجليز... وعلى طريقةِ نطق الجبرتي (الإنكليز) وقيدا أيديهما وجرّوهما، والآن يضطرُّ منصور للبقاءِ مكبَّلا بالأغلالِ في قيدٍ واحدٍ مع هالة، لم أرَ وسيلةَ تعذيبٍ أسوأ من تلك، فعندما تقع هالة في مشكلةٍ لا تكفّ عن الشّكوى وإلقاء اللوم، ولو وصلت لحالة الخوف، لا يكفّ لسانها عن الحركة، صدقَ من قال - ولا أعرفه - أن النّساء أطول أعماراً من

الرّجال، فلسانهنّ نجاةَ لهنّ، لكن منصور لم يعد يتحمَّل ثرثرتها فهو مستغرقَ في التفكيرٍ، يحاول أن يفهمَ ما يحدث حوله وكيف يتخلّص منه، لكن صوتها لا يدعُ له فرصةً للتّركيز، رحم الله من قال (يحتاج الرجل أن يفهمَ وتحتاج المرأة أن تطمئنّ) لا أعرفه كذلك!

لكنّها لم تصمت ولم تدعهُ يفهم وهو لم يتكلّم ليطمئنها، والآن عليهما مواجهة الحقيقة القاسية وأن يفتحا عيونهما ليتبيّنا ما في البئرِ المُظلم الذي سقطا فيه.

-من هؤلاء يا منصور، لصوص؟!

-ليت الأمر بتلك البساطة.

-أنت تعرف شيئاً لا أعرفه؟ قل لي؟!

ماذا يقول وهو نفسه تحت تأثير الصَّدمة ويرفض أن يصدَّق ما سمعه من أحدِ الجنودِ الإنجليز عندما سأله عن القائدِ العسكريِّ الجالس على كرسيٍّ من الأرابيسك الأسود الفخم، كيف يمكنه أن يستوعبَ أنّه واقفٌ الآن أمام الجنرال ويليام ستيوارت بنفسه!

أمَّا هالة فقد كانت عيناها منشغلتان بتأمّل المبنى الأثريّ والذي تشعّ جدرانه بالفخامةِ والجمال، القاعةُ التي أخذها إليها الجنود هي ومنصور فاخرةٌ مبهرةٌ في جمالها بأثاثها البغدادلي المعشّق ونوافذها المزيّنة بقطعِ الزّجاج الملوّن والمتراصّ بأشكالٍ فنيّة، ومحاط بالأرابيسك.

نظرت في وجوهِ أصحاب البزات العسكريّة الحمراء الأثريّة وهمست في أذن منصور: من هؤلاء يا منصور؟!

ردَّ عليها همساً: اسألي أخاك.

وجّهت لهم السؤال الذي يحيرها: أنتم ممثّلون تصوّرون فيلماً تاريخياً، أليس كذلك؟!

وكزها في ذراعها بمرفقه: هلا خرستِ حتى لا نلقى مصيراً أسوأ من مصير محمد كُريّم في ميدانِ الرميلة.

صمتت فقد كان المعنى الذي يقصده يرعبها أكثر، ويردّها للحقيقة التي تحاول إنكارها، فمحمد كريم حاكمُ الاسكندرية مات شهيداً برصاصاتِ الاحتلالِ الفرنسيّ مداناً بتهمةِ خيانة محتلّ لصالحِ أبناء بلاده - كما حكى لهم الأستاذ منتصر في حصة التاريخ –

كان منصور مضطراً أن يخبرها بما فهمه بعد أن تحوّلت لطفلةٍ تمسك بملابس أبيها وتزنّ بلا انقطاعٍ ليحقّق لها مطلبها.

لكنه ندم أشدّ النّدم فعندما فهمت ما فهمه صرخت صرخةً مدوَّية أفزعت كلّ من في القاعةِ لدرجةِ أن الجنودَ وضعوا أيديهم على سلاحهم بتحفّز، فخافت وابتلعت لسانها لحظات، ثم همست له برعب: لا تقل لي أنني أنا وأنت ركبنا آلة الزّمن التي نقرأ عنها في الرِّوايات ولا نراها إلّا في الأفلام الأمريكيّة وألقت بنا مائتي عامٍ للخلف!

قال ضائقاً: اسألي أخاك!

قالت: أين الهاتف؟

حاول إخراج الهاتف من جيبه، لكنّه تراجع بسرعةٍ ورفع كفّيه لأعلى عندما وجد البنادق مصوَّبة لرأسه، وهمسَ لها: اهدئي فجنونك هذا سيقتلنا.

قالت بغيظ: جنوني أم جنونك؟! تريد أن توهمني أنّني أقف الآن أمام واحدٍ من قادةِ حملة فريزر المنتهي من ٢٠٠ سنة؟! وما الذي يفعله هنا في مبنى المحافظة القديم؟! وماذا إن صدّقتك، معنى كلامك أن رشيد هُزمت أمام الإنجليز وتمّ احتلالها بالفعل! وهذا ما لا يمكن أن أقبله أبداً.

نظر منصور للجنرالِ ستيوارت المنشغل بمتابعةِ الأوراق التي أمامه والتّحدّث عبر ترجمانٍ ماهرٍ باللّغتين العربية والإنجليزية مع أحدِ المماليك، فوق رأسه عمامة كبيرة بخيوطٍ ذهبيّة، واطمأنَّ أنه لا يعرف العربيّة، وحمدَ الله أنه لا يقف أمام غرور وصَلف نابليون أو اندفاعِ وتهوّر كليبر وأن البرود الإنجليزي المتّسم به أغلب هذا الشعب كان في صالحه، إذ جعلهم يصبرون عليه وعلى تلك المجنونة كلّ هذا الوقت.

كان أميرُ المماليك ذو العمامةِ الكبيرةِ يقف أمامه منحنياً يتحدَّث له بكلِّ احترام وتبجيل، ويدعوه سيدي الجنرال ويتفقُ معه على توريدِ أجولةِ الحبوبِ للحاميةً الإنجليزيّة من الصّعيد، ويتفقُ على تأمينِ غذاءِ الحملةِ من قِبَلِ أمراء الصّعيد.

قالت هالة وهي تطحنُ أسنانها غيظاً: خائن، انظر كيف يتحدّث للمحتل!

كظمَ غيظه، ونظر لها متعجباً إذ كيف لها أن تتنقل بكلّ تلك السّرعة من حالةٍ نفسيةٍ إلى أخرى عكسها في موقفٍ دقيقٍ كهذا!

يبدو أن الجنرالَ ستيوارت قد انتبه أخيراً أنّهما قضيا وقتاً طويلاً في الغرفة، فأشارَ لمنصور أن يقترب، فهرولَ إليه وقال بتوترٍ بالغٍ بالإنجليزية: معذرةً سيدي الجنرال، يبدو أن جنودكَ قد ارتكبوا خطأ غير مقصودٍ وأمسكوا بنا دون أن نرتكبَ جرماً.

تفحصهما بنظراتٍ باردةٍ ثم قال: تجيد التحدّث بالإنجليزيّة! حسناً، فلتعلم أن جنودي لا يرتكبون أخطاء.

كبتت هالة سبّة كادت أن تُفلتَ من بين شفتيها وهي تتذكّر أن تلك المومياء المتحرّكة نالَ في بلدها شرّ هزيمةٍ على يدِ أبطالِ المقاومةِ الشعبيّة.

قال الجنرال: ما الذي كنتما تفعلانه على شاطئ النهر؟!

هتفت غيظاً بإنجليزيةٍ ركيكة: وما شأنك أنت؟! إنها منطقتنا، هل ستمنعنا من السَّير في بلادنا؟!

رفع حاجبيه دهشةً وهو يتفحّصها ملياً حتّى أنّها وجلت من نظراته وقال بتعجب: امرأةٌ مصريةٌ وتكشف عن وجهها؟! بل وتعرف لغةً أخرى أيضاً!

قال الأمير المملوكي: ربّما كانت من العبيد.

هزَّ الجنرال رأسه متفهماً بعد أن فهمَ من الترجمان.

لكن هالة كشرت عن غضبٍ عارم: منصور، ماذا يقول هذا المملوك الخائن؟!

همس لها زاجراً عندما وجد المملوك يرميهم بشررِ نظراته: أغلقي فمكِ الآن، وعندما نخرج من هنا أحياء فسبّيه كما تشائين.

خاطبَ منصور الجنرال: سيدي، دعني أشرحُ لك، لقد كنّا نسيرُ على الشاطئ فهاجمنا العسكر.

كان القنصل الإنجليزي لمحافظة رشيد يجلس في مقعدٍ وثيرٍ بجوارِ مقعدِ الجنرال فسألها: وماذا عن ذلك المركب الذي يطير على الماء؟! كنتما فيه، أليس كذلك؟!

فهم منصور أخيراً لماذا أمسكوا بهما، فهدفهم هو اللانش السريع، وكان عليه أن يفكّر مليًّا في الردِّ على سؤالهِ قبل أن يقولَ كلمةً تودي بحياتهما.

لكن هالة اندفعت تصرخ بتسرّع: مالك والمركب؟! إنّه لي، هل ستستولي عليه كما تريد الاستيلاء على رشيد؟!

كاد منصور أن يطلقَ قبضته في فمها ليلصقَ أسنانها بشفتيها؛ فتعجز عن النّطق وتوريطهِ بالمصائب، لكن الكارثة وقعت بالفعل، وصارت هالة محطّ اهتمامِ الجنرال وخرجَ منصور من إطارِ الصُّورة، فهمسَ منصور لها: ألقيتِ بروحكِ إلى الجحيمِ يا غبيّة، كفّي عن الكلامِ قبلَ أن يعدمونا بسبب لسانك.

نهض الجنرال من خلفِ مكتبهِ واقترب منها، فتراجعت خلف منصور بخوف، لكنّه قال لها بهدوء: إذاً فالمركب لك، حسناً، وأين ذهب؟

كانت عين منصور على فمها وقلبه يكاد يخرج من صدرهِ وهو منتظرٌ الكارثة التالية التي ستخرج من لسانها، لكنه تنفّس براحةٍ عندما استخدمت ذكاءها لأوّل مرةٍ وقالت: سُرقت.

قال الجنرال بريبة: هكذا! سرقت!

قالت: ربّما أخبرك جنودك أنّهم رأونا ونحن نجري للمركبِ ونطارد من سرقوه لنستردّه، ولكنّنا لم نستطع اللّحاق بهم.

التفت لأحدِ الجنود الذين أمسكوا بهما، فردَّ عليه بإيماءةِ موافقة من رأسه، فعاد يتحدّث إليهما: حسناً، ستبقيان هنا إلى أن نجدَ المركب أو تُطلعينا على بعضٍ من أسرارِ سرعته العجيبة.

ردَّت عليه بأنفة: لست خائنةً لأشيَ بأسرارِ بلادي.

لا أفهم حقاً من أيّ فيلمِ أبيض وأسود خرجت تلك الحمقاء، أيّ أسرار في شيءٍ سيتمّ اكتشافه واستخدامه فيَ العالمِ أجمع بعد حين!

ابتسم الجنرال ونظرَ نحو الأمير المملوكي: ربّما قضاء بعض الوقت في السّجن سيجعلها تتكلّم؟

قال ضاحكاً بسماجة: إنّها جاريةٌ مُشاكسة، أعطنيها لبعض الوقت وستعود إليك زاحفةً تُدلي بكلّ ما تأمرها به.

مادَت الأرض بمنصور واشتمَّ رائحةَ الهلاك.

لكن هالة التفتت نحو المملوك وسبّته سباباً لم يفهم معناه - لا تسألني ما هو حتى لا تقصّه الرقابة من صفحات الرواية - ثم قالت للجنرال: هل هؤلاء هم المماليك الذين أرسلتم لهم الرسائل ليستقبلوكم ويفتحوا لكم أبواب مصر؟!

ثم أردفت باندفاع مجنون: سيقضي عليكم علي بك السلانكلي.

عمَّ الصَّمت المكان لحظات أعقبها انفجارُ الضحك بين الجميع، ومنصور يحاول جاهداً تحويل انتباه الجنرال عنها ولكنّها لا تمنحه فرصةً لإنقاذها، فهالة لا يمكنها البقاء ساكنة إذا ما تعلّق الأمر بشعورها أن هناك أحدٌ يسخرُ منها، فانفجرت فيهم تهدّد وتتوعّد كما لو كانت تكتب موضوع تعبيرٍ مدرسيٍّ عن تاريخِ مدينة رشيد: سيقضي عليكم أهالي رشيد... سيبيدكم علي بكٍ السلانكلي... ستهزمون... الشعب المصري سينتصر...

لم يكن ينقصها حقاً سوى أن تغنّي بحماسٍ (أنا ابن مصر، أنا ضدّ الكسر).

أدرك منصور أخيراً أنه تورَّط حتّى أُذنيه في زيجةٍ فاشلةٍ من مجنونةٍ حمقاء ستحيلُ حياته جحيماً، فلا يمكن لأحدٍ أن يكتشفَ شخصيةً كهالة إلّا إذا وضعت تحت ضغطٍ عنيفٍ لموقفٍ مرعب.

هل ممكن أن يصبح الموقف أكثر سوءاً؟! حدث بالفعل، فالمملوك المتواجد هنا بصفتهِ رسول من الأمراء المصريين قال: ما أصبركَ سيدي الجنرال على الاستماعِ لفتاةٍ مجذوبةٍ لا تنطق إلا جنوناً؟!

قال متسلياً: يعجبني حديثها، إنّه مسلٍ، ربّما تضرب الوَدع وتقرأ الكفّ كالمشعوذات؟!

تطلّعتْ لوجوههم بغلٍّ وقالت: نعم، أعلم مستقبلكم الأسود دون أن أنظرَ لكفوفكم، ستهزمون في تلك الأرض وتقتلون وتعلّق رؤوسكم على النبابيت، إنّها هزيمةُ حملةِ فريزر السَّاحقة كما درسناها في كتبِ التّاريخ في المدرسة.

تعالت أصوات الجميع ما بين ضحكٍ وسخريةٍ وهمهماتٍ وتعجبات، وقال المملوك: إنّها جاريةٌ مسليةٌ كما تفضَّلت وقلت يا سيدي.

ومنصور يهزّ رأسه بأسفٍ ويتمتمُ بيأس: وكأنك تقدّمين لهم دعوةً مفتوحةً لقتلنا.

ثم وجَّه كلامهُ للجنرالِ لعلّه ينقذُ ما تبقّى، فقال: إنّها مجنونةٌ فلا تصدقوها.

قال الرَّجل السمينُ المتأنّق الجالس على كرسيٍّ من الأرابيسك الفاخر بجوارِ مكتب الجنرال: بالتأكيدِ مجنونة، فكلّ من في رشيد يعلم أن علي بك السلانكلي قُتل في المعركة.

وكأنّما ضغط منصور مفتاحَ القنبلةِ النوويّة، فقد هبَّت في وجههِ كموتورٍ مركبٍ خرب: أنا مجنونة أم أنت الكاذب؟! ألم تحكِ لي كلّ ما حدثَ في التّاريخ بالأمس؟! بعد أن أجبرتكَ أمّي على سلوكِ مسلكِ الرِّجال والتَّظاهر بأنك عريسٌ حقيقيّ رغماً عن أنفك!

فتح فمه بدهشةٍ وعجزَ لسانهُ عن تداركِ الموقفِ أو إيقافِ ذلك المدفع سريع الطّلقات.

كم كان أحمق عندما استفزَّ كرامة أنثى «الوَشق» المتوحّشة التي تختفي تحت جلدِ هالة.

- لا تسأل عن معنى الوَشق، فابحث في محركاتِ البحثِ على الإنترنت -

وأكمل المملوكُ المشهد اللّامعقول ببراعةٍ قائلاً: إنّها حقاً جاريةٌ مجنونة، دواها عندي، سيقوم حريمي بتأديبِها وردِّ عقلها إليها.

ألقته بحممِ نظراتها: مملوكٌ خائنٌ عَفن، كلّ المماليك خائنون يستحقّون ما جرى لهم في القلعة.

نظرت له بتشفّي وقالت بغلٍّ: سيذبحكم الباشا فرداً فرداً في القلعة، لن يبقي منكم أحداً.

غصّ حلقه بضحكاته، وتطلّع إليها بنظراتٍ قلقة، يبدو أنه صدّقها، أو صدّق على الأقلّ أنّها قادرةٌ على ضربِ الوَدع وقراءةِ المستقبل، فهؤلاء القوم لُحِسَت عقولهم بالتَّنجيم والإيمانِ بالدَّجلِ والشَّعوذة، وهالة هي أفضل من يمثّل هذا الدَّور ببراعة، فهي تمتَصّ ثقةَ من أمامها كما تمتصُّ الساحرةُ قوةَ خَصمها بعصاتها السحريّة، فتحسَّسَ المملوكُ عنقهُ وظهرِ الخوف في عينيه، لكن الجنرال التقطَ المشهد بعينيّ صقرٍ وأدركَ الأثرَ الذي خلّفته هالة على المملوك، فقال بخبثٍ: وكأن صديقنا المصريّ يهتمّ حقاً بكلامِ العرّافة؟!

هتفَ منصور وقد شعرَ باقترابِ النّار من ذيله: سيدي، إنها مجنونة، لا تصدقوها.

قال الجنرال بدهاء: لقد عرضَ صديقنا المصريّ حلاً مناسباً لعلاجِ المجنونة.

صرخت بغيظ: لست مجنونة أيّها المحتلّ ال...

صرخ منصور في وجهها: اخرسي، لقد ألقيتِ بنا في الجحيمِ، لا تنطقي بحرف.

لم يمهله الجنرال، بل أمرَ المملوك: يمكنكَ أن تأخذها للصَّعيد، ربّما يهتمُّ الأمراء بالاستماعِ لكلماتها.

انتفضَ منصور وأخذ يصرخَ بأنّها كاذبة ويرجوهُ ألا يدعَهَ يأخذها، ولم يهتمّ الجنرال له ولا لكلماته، بل تجاهله وعاد يجلس على كرسيهِ الأسود الفخم، ويتحدَّث مع الرجلِ الوقورِ الأنيقِ الذي يجلسُ على الكرسيّ المجاور.

ولم يُضع المملوك الفرصة، بل استدعى اثنين من عبيدهِ على الفورِ يجُرّون هالة وهي تصرخُ وتسبّهم بكلِّ الألفاظ وتضربهما وتخمشهما وتركلهما حتى وهي في قيدها، ومنصور ينظر نحوها بقلةِ حيلةٍ وتحسِّر وهما يسحبانها ولا يدري كيف يتصرَّف.

انتفض رعباً عندما تحدَّث الجنرال في أذنهِ مباشرة: هل تودُّ أن تخبرنا بمكانِ المركبِ قبل أن يأخذها المصريّ ويرحل؟!

ذُهل عن أيّ ردٍّ مناسبٍ وهو لا يزالُ تحت تأثيرِ الصَّدمات المتتالية، لقد أُسِرَت خطيبته أمام عينيهِ وصارت «أَمَة» لمملوكٍ من القَرنِ التّاسع عشر، وهو أكثر من يعرف ما كان يدور في تلك الحقبة الزمنيّة بعد أن قرأ كتاب الجبرتي مراتٍ ومرّات، وكذلك الكثير من الكتبِ التي تحكي عن أكثر فترةٍ زمنيَّة مرَّت على مصر تحوي من الأحداث السّاخنة والاضطراباتِ المُتتالية مالا يصدّقه العقل.

الآن يرى بعينيّ رأسه كيف خانَ المماليك، وكيف كانوا يعاملون الفلاحين ويستولون على أرزاقهم ويهاجمون بيوتهم ويأخذون نساءَهم من دونِ أن يستطيعَ أحدٌ رَدعهم، وبرغم أنّهم أتوا من بلادٍ مختلفة، لكنّهم يسمّون (بالمصرية) وفي أقوالٍ أخرى (المصرلية) وكأنهم يريدون إثبات أن تلك البلاد حقّهم.

استفاق من ذهولهِ على صوتِ الجنرال يأمرُ أحدَ الجنود بأن يأخذه إلى معسكر «الحماد» تحت الحراسةِ المشدَّدة، ويوصي به الكلونيل «ماكلود».

فصرخ: الحماد! لا يمكن.

قال الجنرال بحزم: بل يمكن، فهناك يستطيع جنودي استنطاقكَ بكلِّ المعلومات التي نريدها عن المركبِ العجيب ومكانه، لديهم أساليب تناسبُ كلّ فردٍ يرفض الحديث.

تراجع منصور برعب، لكن الجنود أحاطوا به فاستسلم لليأسِ التامّ وفقد القُدرة على المقاومةِ أو الصُّراخ، أو حتى النّطق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# العرَّافة

عندما خرج منصور من مبنى محافظ رشيد الذي استولى عليه الحاكم العسكريّ الإنجليزيّ (ستيوارت)، كما استولى على رشيد كلّها - لا تتعجّب أيّها القارئ، ما زال الوقتُ أمامكَ لتفهمَ ما حدث - كان عقلهُ يهيمُ في كلّ وادٍ نتيجة الصَّدمات المُتتالية التي تلقَّاها في وقتٍ قصيرٍ للغاية، يحيط به الجنود الإنجليز، وطوال الطَّريق إلى المركبِ التي ستقله لِلحماد لم تكن هناك قصة تروى بالعربيّة والإنجليزية إلا قصَّة العرَّافة المجنونة التي توعّدت الجيش الإنجليزيّ بهزيمةٍ ساحقة، وللمماليكِ بالذبحِ جميعاً في القلعة.

في القرنِ التاسع عشر وقبل أن يعرفَ البشرُ التلفاز والكمبيوتر والتّكنولوجيا والعلم الحديث، كانت السَّطوة على عقولِ الناس للخيالِ والتنجيمِ وفنون الدَّجل.

فأكثرهم سطوة على عقلِ من أمامه هو أغزرهم خيالاً وإيحاء، أضف لهذا أن الحماسَ الفيّاض والصَّوت الرنَّان وصدقِ الأداء يخلبُ اللّب ويسحر العقل، وهالة تتحدَّث بصدقٍ آسرٍ وحماسٍ فيَّاض يهزُّ من أمامها، فهي تؤمن حقاً بما تقول وتصدّقه، ومن هنا تستطيع ببساطةٍ أن تنقل مشاعرها الحقيقيّة لمن حولها، لدرجةِ أنّ مجموعةَ المماليك الذين اصطحبوها معهم مرغمةً على ظهرِ جملٍ في رحلةِ سفرٍ طويلةٍ إلى رؤسائهم في الصّعيد ليسمعوهم ما تقول، حتى لو كان كذباً أو جنوناً، وبعدها يحكموا عليها بالتَّصديق والنّجاة أو بالكذبِ فالإعدام.

وجدتْ هالة نفسها وحيدةً بين مجموعةٍ من المماليك المقاتلين بعضهم يعاملها كمجنونة، وبعضهم يخافها ويظنّها منجمة أو امرأة تسخّر الجنّ ليأتيها بالأخبار، لذا لم يفكّر أحدهم أن يؤذيها أو يمسّها بسوء، وهي لم تكفّ لحظة عن الصُّراخ والعويل والتَّهديد والوعيد.

عجيبٌ حقاً أمر الفتيات، فقدرتهنَّ على استخدام الجهاز الصَّوتيّ فائقة، وكأنما سرّ قوتهنّ في أصواتهنّ ولسانهنّ، وبرغم أن هالة تَمتلك الكثير من مواطنِ القوَّة، ومنها قدرتها على تحويلِ الشبشب إلى قذيفةٍ موجّهة، لكنّها في تلك اللّحظة كانت مكبَّلة الأيدي، خائفة حتى الموت، وتخفي خوفها بتلك الضجَّة النّسويَّة التي تجيدها النِّساء في المواقف الصَّعبة، لقد اعتادت منذ رحيل أبي ألَّا تظهر خوفها أمام أيّ إنسان، هي ليست مجنونة إلى الدَّرجة التي لا تُحسن فيها تقدير وضعها الرّاهن، وأنّها أسيرة لمجموعةٍ من الوحوشِ قد يفترسونها في أي لحظة، لكن إن كانت مقتولة لا محالة فعلى الأقلّ تموت بضجَّةٍ وازعاجٍ يليقُ بها، وتُضايق صائدَها قدر ما تستطيع إن لم يكن هناك سبيل للنّجاة.

منذ أن واجهها منصور بحقيقةِ ما حدث لهما تحت الماء وقد استفاقت على صدمةٍ زلزلتها، إذ كيف انتقلت للخلفِ قرنين وربع من الزّمن!

لقد سارت بها النّاقة ساعات ولا يشغل عقلها سوى سؤال واحد، كيف انتقلت إلى زمنِ حملةِ فريزر؟! وليس هذا فحسب، بل هناك من بدل التاريخ وألقى بكأسِ النَّصر في حجرِ الإنجليز!

برغم إرهاق جسدها الشديد فلا هي مرتاحة فوق ظهرِ النّاقة، ولا تنال راحة عندما يتوقّف الرّكب وينصبوا خيامهم في إحدى المحطّاتَ على طولِ الوادي؛ لينالوا قسطاً من الرَّاحة قبل استئنافِ السيرِ للقاهرة، وكانت فقرة الرّعب الغالبة عندما ينزل بها الجمل على الأرضِ فتشعرَ وكأنها تهوي من فوقِ جبل، ولا تستطيع التَّوازن فمعصماها مقيّدان إلى بعضهما بحبلٍ خشنٍ طويلٍ وآخره مربوط في رحلِ الجمل، فلا يترك لها مساحةً للابتعادِ عنه فتستند إلى بطنهِ عندما يبرك، كانت مرهقةً لأقصى درجة، لكن لسانها لا يكفّ عن النِّداء باسم «منصور» بصوتٍ صارخٍ كلّما اشتدَّت عزيمتها، وبصوتٍ واهنٍ كلّما خارت قواها وغلبها التَّعب، لقد تمحورَ تفكيرها حول منصور فقط، لا شيء سواه، عجباً! أهوَ الحبّ أم الاطمئنان لشخصٍ من نفسِ عالمها؟! أم أنّه التمسّك بحلم أن في حياتها رجلٌ تستطيع أن تناديهِ لينقذها كلّما ساءَ بها الحال أو وقعت في مأزق؟!

كان الرّكب يسيرُ نحو الجنوب وفي القلبِ منه غنيمة يحافظون عليها بحياتهم؛ لذا فقد أحاطوا جَمَلها خاصةً بعبيدهم المترجّلين حتى لا تهرب، وسارَ بعض المماليك بخيلهم في المقدمةِ وبعضهم في المؤخرةِ يراقبونها، حتى جلسوا يستريحوا في قريةٍ من القرى، وأجبروا أهلها على تقديم الزادِ والذّبائح والطّعام والحبوب واللّحوم من كلّ صنفٍ ولون، وهالة تراقب بتعجّب، لم يكن ينقص المشهد سوى «عتريس» على حصانهِ يحمل سلاحه ويقتل من لا يدفع له، عجباً! «الدهاشنة» يقدّمون القرابين والأتاوات والرشاوي للصوص من مئاتِ السنين، أو ربّما منذ خلق الله الأرض.

كانت تأكل من الطَّعام مضطرةً تحت إلحاحِ الجوعِ الشَّديد رغم إحساسها بأنّها تأكل عرقَ الفلّاحين المسروق، لكنها انتبهت بينما يقترب من محطّتهم غريبان على جملين، أحدهما أسمر يبدو أشبه بالمصريين والثاني ملامحه أوروبيّة وشعره أشقر، ويرتدي الجلباب المغربيّ المزركش ذو القلنسوة، والذي لا تتذكّر اسمه لكنّها تعرفه من شكله، فرحّب به المماليك دون أن يعرفوه ودعوه إلى مجلسهم وطعامهم كعابرِ سبيلٍ يمرُّ في أراضيهم، وأدركت هالة من طريقةِ نطقهِ أنّه يتحدَّث الفرنسيّةَ والرَّجل الذي معه يترجم الحديث للطَّرفين اللّذين لا يعرف أحدهما لغة الآخر.

لم تكن هالة تعرف اللّغة الفرنسيّة إلا من الأفلام، فقد درست اللّغة الألمانيّة في ثانوي كلغةٍ ثانية.

ترجم لهم «الترجمان» المرافق للرجلِ الغريبِ كلمات الضَّيف، فعرفوا أنّه رحّالة قادمٌ من إسبانيا التي كانت مشهورة حتى اللّحظة بين العربِ ببلادِ الأندلس، وأنّه مرَّ على المغربِ وبقيَ فيها فترةً طويلة، وهناك أسلمَ وسمّى نفسه عبد الله، ثم عزمَ على خوضِ رحلةٍ طويلةٍ يقطع فيها البلاد المطلّة على ساحلِ أفريقيا من جهةِ المتوسّط ليصلَ إلى مكّة، ويبقى هناك إلى موسمِ الحجّ.

كانت هالة تتأمَّلهم بتعجب، فهؤلاء الوحوش الخَونة لبلادهم السارقون أقوات الغلابة، والآكلون للسّحت، ما زالت لديهم بعض من فضيلةِ إكرامِ الضَّيف والحفاوة بعابرِ السَّبيل!

وكانت تلك هي الفترة التي هدأت فيها وأخذت تنصتَ باهتمامٍ لحكايات ذلك الرحّالة وأخباره عبر لسانِ الترجمانِ، وتلمّستْ في ذلك الوجهِ الأربعينيّ الأبيضِ المشرّب بحمرةٍ لوحته الشّمس، كثيراً من الطِّيبة والهدوءِ وبشاشةٍ تتمثّل في ابتسامةٍ دائمةٍ تلازمُ كلماته وحكاياته الشيّقة التي يحكيها بصوتٍ هادئٍ رخيمٍ يشعرها بالاطمئنانِ بأن ألهاهم عنها.

أدركتْ أنّه يتحدَّث عنها معهم، بينما ينظر نحوها طويلاً وفي عينيهِ إشفاقٌ وعدم رضا، وأكدت لها كلمات التّرجمان حدسها: أرجو المعذرة، ولكن لم تربطوا تلك الفتاة في رحلِ الجمل؟!

تبادلوا النَّظرات فيما بينهم بصمت، ثم أجابه أحدهم: إنّها تتوعدنا بالذَّبح.

بهتَ عبد الله عندما ترجم له ترجمانه ما قاله المملوك، وما زادَ من دهشتهِ أن انفجرَ الجميع بالضَّحك وكأنما لا يصدّقون ما يقولونه، أو أن تغيّر وجه الرجل أثارَ ضَحكهم، وبالفعلِ فقد غلبته الدَّهشة فعاد يسأل: كيف لفتاةٍ ضعيفةٍ مثلها أن تتوعّدكم بالذبح؟!

قال آخر: إنها منجّمة.

عارضه آخر: بل إنّها ساحرة.

ثم حكى له حكايتها وكلّ ما قالته عنهم وعن الإنجليز، وهي تراقبهم بوَجل، وما بين دقيقةٍ وأخرى ينظرُ الرحّالة نحوها بإشفاق، حتى قال لهم أخيراً: وهل صدقتموها؟! عجباً لكم! ربّما تكون مجنونة!

قال أحدهم: ما كان لنا أن نتركَها قبل أن يستمعَ لها أمراؤنا ويبتّوا في أمرها.

تجاوزا الحديث عنها إلى أحاديثٍ أخرى عن أحوالِ البلاد والعباد والتّجارة، فشردَ عقل هالة بعيداً وأخذت تدعو الله في سرِّها أن ينقذها بعد أن تيقَّن عقلها من ألا أحد يستطيع إنقاذها من هؤلاء، ورغماً عنها عاد عقلها يتساءل، أين منصور الآن؟! هل يبحث عنها؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بمجرّد أن رحلَ رسولُ أمراء الصَّعيد من المماليك ومعه الفتاةُ المجنونة، وبعدها جرَّ الجنود منصور إلى الخارجِ لينقلوه للحماد، وخلت القاعة إلّا من الجنرال ستيوارت والقنصل الإنجليزي المتأنّق لرشيد (بتروتشي) والذي سأل الجنرال: لا أفهم حقاً ما يدورُ برأسك، هل صدَّقت تلك المجنونة؟!

أجاب بمكر: ليس مهما إن كنت أنا أصدّقها أم لا، المهمّ أن يصدّقها هؤلاء القابعين في الصّعيد ويتحيّنون الفرصَ للانقضاضِ على القلعة.

قال: وماذا عن حديثها عن الهزيمةِ ومقاومةِ أهالي رشيد؟!

قال ضاحكاً: المقاومة انتهت بالفعل، فأهل رشيد لم يعد بهم قوة للمقاومة، ومن كانوا يمسكون بالسِّلاح قُتل منهم من قُتل والباقون تفرّقوا في البلاد.

قال: ولكن الفتاة المجنونة تقول كلاماً غريباً، هل حقاً يدبر الباشا للخلاص من الأمراءِ المماليك بذبحهم في القلعة؟! كلام لا يصدّق!

-عن أيّ باشا تتحدّث؟! الذي رحل أم القادم؟!

-هل تأكدت بالفعلِ أنه رحل؟!

-رجالنا يتتبعون موكبهِ الذي انحرفَ نحو الشّام.

-ولكن! هل تصدّق حقاً أنّها منجّمة؟!

-ليس بالضَّرورة.

-لم أعد أفهمك.

-إن ما يهمّني حقاً هو مدى منطقيّة الحديث نفسه، ومدى احتمالات حدوثه.

-وماذا لو افترضنا أنّه حدث، فهل سيتمُّ حقاً ذبح الأمراء؟!

-هذا يعتمد فقط على مدى ذكاءِ الأمراء المصريين وعدم سقوطهم في الخداعِ من الوالي.

-ولكن كيف يجرؤ أيّ والٍ أن يفكّر في ذلك؟!

-يا عزيزي، ما من أحدٍ تركيّ أو مملوكيّ يرتقي القلعة إلا وتراودهُ نفسه ويفكّر جدياً في الخلاصِ من منافسيه، وإنهاء بؤرة القوّة المشتعلة بالصَّعيد والعاصمة والوجه البحريّ وتتأهّب دائماً للوثوبِ إلى القلعة، كلّ باشا يعتلي عرش مصر يعاني الأمرّين من غدرِ الأمراء به ومحاولات قتله، ولن يستقرّ مقام في القلعة لأيّ حاكمٍ إلّا إذا قضى عليهم.

-لا أحد في مصر يستطيع أن يستميلَ ميزان القوّة لصالحه، فتلك البلاد تعاني صراعاً دائماً على السلطةِ من قبل حتى أن يدخلها الفرنسيّون، بل إن نابليون نفسه لم يستطع القضاء على سلطةِ المماليك.

-ولم يقضِ عليهم إن وجدَ الفرصة لاستغلالهم، وضرب بعضهم ببعض، وإضعافهم ليحكموا البلاد لصالحه وتحت إمرته، وفي النّهاية أخضع كليبر مراد بك لشروطهِ وتركه يحكم الصّعيد تحت إمرةِ الفرنسيين، ولولا هزيمتهم أمام أبطالنا في أبي قير بقيادةِ الجنرال العبقريّ نيلسون، وتحالف مملكتنا - في ذاك التوقيت - مع السُّلطان سليم الثالث، لما خرجوا من مصر، بل وربّما نجحوا في تكوينِ قاعدةٍ عسكريةٍ لهم فيها تبسط يدها على المنطقةِ وتقطع الطّريق بيننا وبين مستعمراتنا في الهند.

-لم يعد هذا ممكناً بعد الآن، فالطرق كلّها صارت تحت سيطرتنا، ولن نسمحَ للفرنسيين بتكرارِ محاولة السّيطرة على البلدةِ التي تلتقي عندها كلّ طرقِ التِّجارة وتعتبر شريان الحياة الواصل بين ثلاث قارَّات.

-لقد تلقّوا هزيمةً ساحقةً في معركةِ الطَّرف الأغرّ، وحتى الأستانة ارتخت قبضتها ولم تعد تملك من الأمرِ شيئاً بعد أن دخلت قوّاتنا خليج الدردنيل وهدَّدتهم في عقرِ

دارهم، كما أن السلطانِ الجديد (محمود) أتى بانقلاب، وهو يعلم أن قوَّات الإنكشارية ضدّه، وسيظلّ سنوات لا يأمن من أن ينقلبوا عليه، لهذا فلن يستطيع التدخّل في مصر وسيرضى بالأمرِ الواقعِ مهما كان رغماً عنه.

-يكفيه حروبه مع روسيا وتربّصهم به، سيكتفي حالياً بذكر اسمهِ على المنابرِ والدُّعاء له في الصَّلوات من دونِ سلطةٍ حقيقيِّة أو تواجدٍ فعليٍّ في تلك البلاد.

دخل الخادم يحملُ بعض المشروبات حولها كؤوس وصبّ لهما كأسين، ثم رحل، فأكمل القنصل «بتروتشي» الحديث وهو يتناول كأسه: إذاً فالمشكلة الوحيدة التي يمكن أن تهدّد استقرارنا في ثغرِ رشيد هي الثّورات الشعبيّة! بدأت أفكّر جدياً في كلماتِ العرّافة.

-آخر مقاومة حدثت - أو ستحدث - في رشيد وقت أن دخلت قوّات الجنرال ويكوب المدينة، وكانت خدعة ذكيّة وتخطيط فريدٍ بآن يضحي بفرقةٍ قليلةٍ مكوّنة من بعضِ الفرنسيين الفارّين من فرنسا هروباً من الثّورة وانضمّوا لجيشنا، ولولا تلك الخدعة الذكيّة لفقدنا الكثير من أبطال جيشنا

ولكن الآن، من سيقوم بالثّورات في تلك البلدة؟! لقد أخمدنا كلّ رغبةٍ لثورةٍ في نفسِ هؤلاء الناس بعد شهرٍ كاملٍ من الحصارِ المحكم الذي ضربناه حول رشيد، ذاقوا فيها من أهوالِ مدافعنا وصار الكثير من أحياءِ المدينة ركاماً.

-وماذا عن الناس في القاهرة؟!

-وماذا يمكن أن يفعلوا؟! شعبٌ فقيرٌ جائعٌ مريض، تعب من كثرةِ الاضطراباتِ والقلاقل والثّورات، هم بحاجةٍ للاستقرار وإطعام أطفالهم، سيقبلون بأيّ حاكمٍ ولو كان يأتمرُ بأمرنا، المهمّ هو ألّا نرتكبَ الخطأ الذي ارتكبه الفرنسيون بالتَّعرّض لرموزهم الدينيّة.

-سمعت أن نائب الباشا – ذاك الذي يدعى عمر مكرم - يقود الفقراء العزّل لبناءِ المتاريس وتحصينِ القاهرة تحسباً من أن ندخلها عليهم.

-لم تصدر الأوامر بعد من الجنرال فريزر بأن نتوجّه للقاهرة، لم يأمر سوى بتحصينِ الحماد وقطع الطّريق على كل من تسوّل له نفسه القدوم من القاهرةِ لرشيد.

-قرارحكيم، الآن يستطيع جنودنا الاستقرار بأمانٍ في رشيد، ولكن... سمعت أنّكم تطاردونَ مليشيات المخرّبين في رشيد.

-لا تمنحهم أكبر من حجمهم، إنهم بضعة فلولٍ تبقّوا وسنقضي عليهم واحداً تلو الآخر، وجنودنا طاردوا أحدَ زعماء المتمرّدين وأصابوه، وكادوا أن يمسكوا به لولا أن هاجمهم مجموعةٌ من الشباب وساعدوه على الهرب، لكنّه لن يذهب بعيداً، فسنقضي عليه.

قال القنصل بابتسامةٍ واثقة: أثق تماماً بقيادتكَ الحكيمة لذلك الثّغر، وقدرتك على إخمادِ أيّ تمرد، إنّما أخشى ما سيحدث في العاصمة، هل هي مؤمنةٌ جيداً، لا نريد

أن نفاجئ بثورةٍ شعبيةٍ تنفجر من هناك.

-الجنرال فريزر لديه خطٌّة محكمةٌ للتِّعامل مع القاهرة دون الزجّ بجنودنا في حروبٍ ضدّ شعبٍ بأكمله كما فعل الفرنسيون، اطمئن.

-ألهذا أرسلت بخبرِ الفتاةِ المجنونة لينتشرَ في القاهرة ووجه بحري بين أمراء المماليك الألفية؟!

- الجميع سيسعى جاهداً للحصولِ عليها بمجردِ أن يأتيهم خبرها.

-ولكن لماذا أرسلتها للصَّعيد ولم ترسلها للقاهرة؟!

-على أمراءِ الصَّعيد أن يخافوا ويأخذوا حذرهم ويحافظوا على مواقعهم في الجنوب.

-لقد أرسلوا برسلهم إلينا يعرضون خدماتهم، ويطلبون منّا التوسّط للصّلح بينهم وبين مماليك القاهرة والوجه البحري.

-بالتأكيد سنفعل، فنحن وسطاء سلامٍ لا حرب، ويهمّنا أن يدركوا أننا نسعى لاستقرارِ البلاد، ونحن أصدقاء للجميعِ وحلفاء للجبهتين، فمن يدري من سيركبُ القلعة غداً؟! ويصير باشا في تلك البلاد المتناحر أمراءها، المضطربة أحوالها.

-لكن الفتاة ستزرع الشكّ والارتياب، وستوغرُ صدرَ أمراء المماليك على أيّ والٍ في القلعة.

-إنه توازن القوي يا عزيزي، أمراء المماليك يجبُ أن يظلّوا شوكةً في حلقِ كلّ من يركب القلعة، فزاعة دائمة له يحتمي منهم بنا، ويحتمون بنا من غَدره، ولا يجد له حلفاء سوانا فيبقى دائماً تحت أمرنا، وينفذ كلّ ما نطلبهُ منه.

ابتسم القنصل إعجاباً بذكائه، وأدركَ أن صاحبَ الجلالة والقائد فريزر لم يختاراه عبثاً ليدخل بجنودهِ إلى بلدةٍ لفظت نابليون وجنوده من قبل، وخرجوا منها بجيوشهم الجرّارة بعد ثلاث سنوات فقط.

ثم فكّر قليلاً وقال: وماذا لو كان كلامها كذباً، سيقتلونها.

-في كلّ الأحوال سيقتلونها، ولكن بعد أن تنجحَ في مهمّتها العظيمة بإذكاءِ نار العداوة والبغضاء بين الجميع، إنها ميتة لا محالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن منصور في مأزقٍ حقيقيّ، فهو أسيرٌ في مركبٍ صغيرٍ ينقله من رشيد إلى الحماد، وحوله ثلاثة جنود من القوّات الإنجليزيّة من حملة فريزر يحرسونه بالسلاح.

هل صدمت عزيزي القارئ؟!

بالتأكيد لن تكون صدمتك أسوأ من صدمةِ منصور وهو يسأل الجنديّ للمرةِ العاشرة عن تاريخِ اليوم وفي أيّ عامٍ هو، لا يمكن أن يقدَّر مدى عمق صدمة منصور سوى

شخصٌ درسَ التّاريخ ويعلم جَيداً أحداث بدايات القرن التاسع عشر.

كمنصور المتخصّص بالتاريخ ودرسه دراسةً مستفيضةً داخل المدرسة والجامعة، بل ومن خلال قراءَاته الحرّة أيضاً، لكن ما كان يشغله تلك اللّحظة هو سؤالٌ مصيريّ، وهو أن ما يراه ويعيشه الآن ليس هو التّاريخ الحقيقيّ

في البدايةِ كان يظنّ أن ما حدث له ولهالة هو انتقالٌ زمنيٌّ للماضي، لكنه شيئاً فشيئاً أدركَ أن ما هو فيه الآن ليس هو الماضي، إذ كيف احتلّ الإنجليز رشيد عام ١٨٠٧؟!

حملة فريزر هزمت ورحلت عن رشيد عام ١٨٠٧، لكن في هذا العالم الذي سقط فيه حملة فريزر لم تنهزم ولم تغادر مصر، بل انتصرت على شعبِ رشيد واستولت على الثغر.

كاد عقله أن يجنّ، وكان عليه أن يعرفَ إجابات كلّ تلك الأسئلة من الشخصِ الوحيدِ الذي فكّر هذا التّفكير الشيطاني وصنع منه لعبةً شاهدها هو بعينيهِ في جهازِ اللّابتوب قبل أن ينقلبَ كلّ شيءٍ رأساً على عقب بسقوطهِ هو وهالة في ظلماتِ الماء.

غلت الدّماء في عروقهِ فوضع يده في جيبهِ بحركةٍ عصبيةٍ غاضبة فوجد أسلحة الجنود الثلاثة مصوّبة إلى صدره، فحادثهم بالإنجليزية: لا تطلقوا النار، لا أقصد سوء.

أخرج يده من جيبهِ ببطءٍ وفيها الهاتف: هذا ليس سلاحاً

ظلّت أسلحتهم مصوّبة لصدرهِ بتحفّز لكنّه اطمأنّ أنهم لن يطلقوا النار، فقرَّر الاتصال بي، وكنت مستعداً له تماماً، فأنا أتابعه على الخريطةِ منذ أن خرجَ من المحافظةِ بمنتهى الحقد، فالنُّقطة الزّرقاء المضيئة التي تظهر لي على الخريطة لا تعني فقط أنّه صار بطل اللّعبة، بل تعني أنني كان يجب أن أكون أنا مكانه.

عندما فتح منصور شاشة الجوال وجدها مثبّتة على اللّعبة وأيّ محاولةٍ للخروجِ منها مصيرها الفشل، فلا شيء في الجوال يمكن أن يعملَ في هذا العالم مع عدمِ وجودِ إنترنت ولا شاحن ولا كهرباء سوى شاشة اللّعبة فقط، وتذكّر القواعد عَزيزي القارئ بألّا يحّق لكَ أن تسألَ أسئلةً فلسفيّة، فقد ارتضيتَ من البداية أن أكون أنا الراوي.

أجبت اتصال منصور من خلالِ ميكروفون اللّعبة، وتذكرت بكلّ خير صديقي «مهند» ابن عضو البرلمان الذي منحني كارت تشغيل نت قويّ دون أن يعرف.

فسمعت صوت منصور يقول بصوتٍ خفيضٍ يمتلئ غيظاً حتى لا يثيرَ الجنود من حوله: عليكَ أن تشرحَ لي ما يحدث الآن أيّها الحقير، هل أسقطتنا في لعبتكَ القذرة التي نصرت فيها الإنجليز على أهلِ رشيد؟!

أخذ يراقب نظرات الجنود التي انصبّت عليه عندما ذكر كلمة إنجليز، والتي لم يفهموا غيرها في حديثه، وتحفّزت أيديهم على بنادقهم وصوّبوها إلى صدره

بترقب، فابتلع ريقهَ برعب، ومسحَ عرقَ جبينه، ثم خفضَ صوته كيلا يُثير هم وهو يستمع لصوتي الساخر: ما كنت لتصدّق عبقريتي يا زوج أختي لولا أن رأيتها بعينيك، أليس كذلك؟

قال وهو يضغط أسنانه: أخبرني بلا كثيرِ كلام، ما الذي حدث؟ كيف نجحَ الإنجليز في احتلالِ رشيد؟

قلت بلا مبالاة: إنه السبب الأكثر وضوحاً، فارق القوَّة والتَّسليح، وفي التاريخِ البديل لا تسأل كثيراً عن «كيف» فالسّؤال المتحكّم في تبديلِ التّاريخ هو «ماذا لو» كما درسناه في المعلوماتِ الإثرائيّة في كتاب المدرسة.

قال بصوتٍ خفيضٍ تهتزّ نبرته غيظاً: «محمد علي» هو من يتولّى حكم مصر الآن.

- لو كان هو الباشا لما بقيَ الإنجليز في مصر سنة واحدة.

-إذاً من في القلعة الآن؟!

-في عصر المماليك لا تسأل ذاك السؤال، في تلك البلاد من يستيقظ من النّوم مبكراً هو من يستولي على الحكمِ أولاً.

-وماذا عن السّلطان العثمانيّ؟!

-لم يعد الأمر بيده، بل بيدِ من في يدهِ القوّة وفرض سيطرته على مصر.

-أيها الخبيث المجرم، هل تشعر بالفخرِ لهزيمة أهلك؟!

-ذاك الشّعب المتخلّف الوضيع يستحقُّ الهزيمة عن جدارة، أنا فقط أشجّع اللّعبة الحلوة، الإنجليز يستحقّون الانتصار على الأقلِ هم شعبٌ متقدمٌ وراقٍ.

قال بغيظٍ شديد: ألا تفهم أيّها الأحمق؟! لقد هزموا في التّاريخ من أهل رشيد عام ١٨٠٧.

- وهذا سرّ عبقرية اللّعبة، فماذا سيحدث لو أنهم انتصروا واحتلّوا مصر قبل ٧٠ عام من احتلالها الحقيقي؟!

- وما دخلي أنا بلعبتكَ القذرة؟ أريد أن أفهم ما الذي ألقى بي في هذا العالم الخيالي؟

قلت متهكماً بمرارة: اسأل الساحرة التي عقدتَ قرانك عليها فهي معتادةٌ على إفسادِ أيّ شيءٍ وكلّ شيءٍ بقواها السحريّة.

- أختك الآن أسيرةٌ بين يديّ المماليك متجهة على ظهرِ جملٍ إلى أمرائهم في الصَّعيد.

كان الخبر جديداً تماماً عليّ، فلم أتوقّع ذلك حقاً ومركبها يظهر لي كنقطةٍ حمراء تتحرّك على الخريطةِ باستمرارٍ عبر مجرى النيل.

ومعرفتي بهالة أنها لا يمكن أن تتركَ مركبها أبداً لأيّ شخصٍ لا تعرفه، فإن كان منصور صادقاً وهالة الآن على ظهرِ جملٍ يجوبُ الطّرقات البريّة متجهاً للصَّعيد،

إذا فمن يقودُ المركبَ في النهر؟

تفحّصت الخريطة مجدداً وكبّرتها على شاشةِ اللابتوب لأجدَ النّقطة الزرقاء التي تمثّل إشارة الشخصيّة الرئيسيّة التي استولى عليها منصور تتحرَّك في قلبِ النّيل تسير إلى الحماد، والنّقطة الحمراء التي تمثّل المركب - وهي بالمناسبةِ وكمعلومةٍ إضافيةٍ لمن لا يفهم كيف تعمل اللّعبة التي اخترعتها - هي الأداةُ الرئيسيّة التي يستخدمها البطل في اللّعبة لذلك فهي تأخذُ إشارة النّقطة الحمراء الدّائمة حتى يستطيع اللّاعب أن يجدَها على الخريطةِ كلّما ابتعد عنها، إنها لعبتي يا عزيزي القارئ وأنا من اخترعها، لكن الساحرةَ اللّعينة أفسدت لعبتي وأقحمت نفسها فيها، تستحقّ أيّ شيء، لقد ضاعت الحمقاء، فهي ليس لها شخصيّة رئيسيّة في اللّعبة كمنصور الذي دخلَ اللّعبة كبطلٍ أساسي، لكنّها دخيلة عليها حتى أنّها تبدو بمظهرٍ وملابس وحذاءِ فتاةٍ من القرنِ الواحد والعشرين، لا فتاة من القرنِ التاسع عشر.

سألته وأنا أرى أمامي النّقطة الحمراء تتحرّك على الخريطة: إن كانت هالة تسير في الطّريق البريّ على ظهرِ جَمل، فمن يقود المركب في النيل إذاً؟ المركب يتحرّك أمامي الآن بشكلٍ عشوائيٍّ على الخريطة.

صمت منصور لحظة، كان يفكّر بهؤلاء المجانين الأربعة الذين انطلقوا بالمركبِ ولم ينقذوهما هو وهالة.

فقال لي: هناك أربعة «مصريون» استولوا على المركب.

قد يقول قائلٌ هل جنَّ منصور ليقول «مصريين» استولوا على المركب؟!

حسناً عليك عزيزي القارئ أن تفهمَ ما الذي يحدث في القرن التاسع عشر، فمصر وقتها كانت خليطاً من كلّ البشر، ومفتوحة لجميع البلدان بلا استثناء.

فهناك المماليك وهم عبيد يتمّ شراؤهم من جميع الجنسيّات، ثم الأتراك من هضبةِ الأناضول، وكذلك عسكر وهم الذين يسمّونهم الدلاة وهم المرتزقة المتطوّعين في الجيشِ العثمانيّ من كلِّ البلاد، ويقبضون رواتبهم من قادتهم أو من أهل البلدة التي ينزلون بها كحماةٍ مدافعين عنها، ومثلهم مثل عسكر «الأرنؤود»، أو تنطق «الأرناؤوط» وهم القادمون من شرقِ أوروبا مثل الألبان.

ولا يخفى على أحدٍ أن محمد علي جاء إلى مصر بتلك الطّريقة وكان واحداً من قادةِ الجنود الأرنؤود، وبذكائه قفزَ إلى مقعد الباشا في القلعة.

حسناً هل لا يزال هناك شيء غامض على القارئ في كلّ ما يحدث في هذه الرواية؟

كنت أرى النّقطة الحمراء تتحرّك بسرعةٍ على الخريطةِ وتقتربُ من النّقطة الزرقاء، فأدركت أن مركبَ هالة يلاحق منصور، وهو أيضاً انتبه على صوته «صوت الموتور» فعرف أنهم قادمون، وقبل أن يستوعبَ الجنود الذين يحيطون بمنصور ما يحدث، صار المركب بمحاذاتهم بالفعل، واشتعلت المواجهة الدّامية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# الأسيرة

شعرت هالة بالإرهاقِ الشديد، فلم تكن معتادة على ركوبِ جملٍ لأيام، وعندما يبرك تشعر وكأنّما تهوي من سطحِ مبنىً عالٍ وعندما ينهض تنقلب للأمام والخلف كزجاجةِ بيبسي ترتجّ فتصيرُ معدتها على وشكِ الانفجار، مما جعلها تكفّ عن الصُّراخ ومناداةِ منصور.

كانت تشعر أنها تسير لشهورٍ وأيام، لكنّها في الخريطة لديّ لم تستغرق رحلتها سوى دقائق في اللّعبة.

الزّمن شيء نسبيٌّ وعجيبٌ حقاً.

أراحت ظهرها المُتعب إلى بطنِ الجمل وهي تجلسُ على الأرض، وأخذت تنظر نحوهم بحقدٍ وهم يتناولون الطّعام ويتسامرون دون أن يبالوا بها أو حتى يتذكّروا أنها موجودة.

التفتَ عبد الله «عابر السّبيل» خلفه ونظر نحوها بشفقة، ثم جمع بعض الطَّعام في صحنٍ صغيرٍ وتركهم وتوجّه إليها ووضعَ الصَّحن بين كفّيها المقيّدتين وهي تنظرُ نحوه بتعجبٍ وريبةٍ حتى لحقَ به المترجم، فأشار له أن يترجم: أرجو أن تستطيعي تناول الطّعام في هذا القيد بلا مشاكل.

لم ترد، بل أرته فعلياً أنها تستطيع بأن قربت الصَّحن من فمها وأخذت تتناول اللّحم بيدها وهي تنظرُ له.

فابتسم مطمئناً ثم جلسَ القرفصاء أمامها وقال عن طريقِ المترجم: هلا أخبرتني عمّا قلتيهِ لهؤلاء فجعلهم يمسكون بك ويقيّدونك؟

أنهت صحنها واسكتت جوعها ثم سردت عليه تفاصيل مذبحةِ القلعة كما جاءَت في كتبِ المدرسة، وكما حكى عنها منصور في بضعِ كلمات عندهم في البيت.

قالت: الباشا في القلعةِ سيقوم بدعوةِ الأمراء البكوات لحفلٍ في القلعةِ ويشرب معهم القهوة، وعند رحيلهم يغلقُ دونهم الأبواب ويطلق عليهم الرّصاص حتّى يُفنيهم في فناءِ القلعة.

فتحَ الرجل فمهُ وهو يستمع إليها بعينين جاحظتين، يبدو فيهما التّصديق، لقد استشعرَ صدق كلماتها التي صاغت قصَّة منطقيَّة لا تليقُ إلا بهؤلاء المتصارعين على ركوبِ القلعة.

تركها مذهولاً وعاد إليهم فسأله أحدهم: هل استمعت إليها؟ إنها بالفعل مجنونة.

قال: أعتقد أن كلام كهذا عليكم أن تسرعوا بنقلهِ إلى أمرائكم بأقصى سرعةٍ وتضعوا الأمرَ بين أيديهم، وليأخذوا قرارهم في تصديقِ الفتاةِ أو تكذيبها، أو على الأقل يأخذوا حذرهم، ربّما تعتقدون أنّها منجّمة، لكن الأمر بالفعل منطقيّ.

تشاور الجميع في كيفيّة تنفيذِ نصيحةِ الرجل، ثمِ أرسلوا من فورهم واحداً من بينهم على ظهرِ حصانٍ سريعٍ يصلُ اللّيل بالنّهار لينقل الخبرّ لأمرائهم عملاً بنصيحته فقد انتقل إليهم القلق.

فالإنجليز لم يصدقّوا ولم يكذّبوا، والرَّجل الأجنبيّ يصدّق. ربّما كان الأمرُ بالفعلِ خطيراً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن منصور يتصوّر أنّه سيتعرَّض لمثلِ ذلك الموقف العجيب ويصبح في وسطِ معمعةٍ من الأعيرةِ الناريّة المُتطايرة فوق رأسه، فالشباب الذين كان يظنّهم مجانين صاروا مجانين مسلّحين، يحملون مسدساتٍ كبيرةٍ من طرازٍ قديمٍ للغاية.

كان الشرقاوي يطلقُ النّار هو والعملاق، والاسكندراني يحتضن الدفّة بكلّ جسدهِ يحاول السيطرةَ جاهداً على اتزانِ الوحشِ السريعِ المتحرّك الذي بين يديه، أمّا الصعيديّ فلم يكن يحمل سلاحاً سوى عصاً غليظةٍ من النوعِ الذي يسمّى نَبّوت.

ولم يصدق منصور أن النَبّوت أخطر بالفعلِ من الرّصاص إلّا عندما رأى الصعيدي يمسك بطرفِ جلبابه بين أسنانهِ وبالنّبوت بكلتا يديه ويقفز كليثٍ في المركبِ ويعيث فيهم ضرباً وتقتيلاً بنبوتهِ من قبل أن يستطيعوا رفعَ سلاحهم في وجهه، حتى قضى عليهم جميعاً.

ومنصور متجمّد في مكانهِ عيناه جاحظتان من الذّهول لا يكاد يلتقطُ أنفاسه حتى يصدمَ بمفاجأةٍ أسوء ممّا قبلها، ولم يستفق من ذهولهِ إلّا على كفٍّ الصعيدي تقبض على قبّة جلبابهِ وتنتزعهُ من مكانهِ في المركبِ الإنجليزي بقوةٍ هائلةٍ لتلقي به داخل مركب هالة، وهو يصرخ على أصدقائه بصوتهِ الرجوليّ الرنّان الخشن: حسن، أخرجنا من هنا قبل أن يلحقوا بنا.

انطلق مركب هالة في النيل يهتزّ بشكلٍ جنونيٍّ وأخذوا جميعاً يتطوّحون يميناً ويساراً وشعر منصور بأنها ستسقطهم في الماءِ وهي تتّجه نحو الجنوب، ومع كلّ ميلٍ يقطعه المركب يصيرُ حسن أكثر مهارة واحترافاً في قيادته ويتعلّم كيف يُسيطر على دفّته وكيف يزيد السُّرعة ويقلّلها

«حسن» شابٌ اسكندرانيّ مولعٌ بالمراكبِ والصَّيد، يقولون مجازاً أنّ أمّه ولدته في مركبٍ من كثرةِ حبّه للمراكبِ والسفنِ وعماراتها وتصميماتها وقيادتها وكلّ ما يتعلّق بها. فهو من عائلةٍ ورثت الصَّيد والمراكب أباً عن جدٍّ في ثغرِ الإسكندريّة العريق.

لكن مسارَ حياتهِ كلّها تغيّر عندما قرَّر أبوه أن يُلحقَهُ بالأزهرِ الشريف.

لم يشفَ منصور من حالة الذّهول التي سيطرت عليه بعد

كان ينظر في وجوهِ من استولوا على مركبِ هالة لا يدري هل يثقُ بهم أم يعتبرهم أعداء؟!

إنّها المرَّة الثانية التي ينقذوه فيها، يبدو أنهم يعرفونه رغم أنه لا يعرفهم، وخاصة الصعيديّ الذي لم يحول عيناه عنه يرمقهُ بنظراتِ الإشفاقِ والتَّعجب، شيء ما في روحه ودمائه الحامية يجعل منصور يهابه رغم اطمئنانه له وثقتهُ به؛ لذا كان حريصاً جداً في انتقاءِ كلماتهِ عندما سأله الصّعيديّ: ما بكَ يا صاحبي؟! وكأنَّك لا تعرفنا!

-يبدو أن البقاءَ تحت الماء قد شوَّش عقلي، وأنساني الكثير، ربّما انقطع وصول الأكسجين للمخ...!

ندمَ منصور أن قالَ تلك الجملة الأخيرة، فتلك اللّغة لا يمكن استخدامها مع العربِ في القرنِ التاسع عشر.

لكن الصعيديّ تجاوزَ كلماته واعتبرها جزءاً من تشوّش عقله وقال بأسف: إذاً، فأنت حقاً لا تتذكّر إخوتك في الأزهر!

بقِي مستتراً خلف صمتهِ فما يدري ماذا يقول في عالمٍ غريبٍ عنه تغيّرت فيه اللّهجات التي يعرفها، بل إن للكلماتِ فيه معانٍ أخرى وإيحاءاتٍ مختلفة قد تكون في عالمه عادية لكن هنا قد تصبحُ إهانةً أو سبَّة أو طعن في الشّرف تستوجب القتل.

وأدرك أن استخدام اللّغة الفصحى لغة القرآن هو الحمايةُ له من الوقوعِ في أيّ خطأ غير مقصودٍ في اللّغة قد يثيرُ عليه نقمةَ أحد فيسبق غضبه حلمه فيجزّ رقبته، فأجاب بلغةٍ عربيةٍ فصيحةٍ قدرَ ما يستطيع: ربّما.

ابتسم الصّعيديّ: حسناً، محاولةً طيبةً لخداعنا بأنّك بدأت تتذكّر، لا تخشَ شيئاً وأنتَ بين إخوانكَ لن نتركَكَ وحدكَ أبداً.

قال حسن وهو متشبِّث بالمِقود: أنتَ تتذكّر أختك لا ريب.

عقد حاجبيه وتمتمَ: «نسمة!»

ثم تذكّر أن أختهُ «نسمة» في بيتِ زوجها في دمياط، فانتبه أين ومتى هو، وتذكّر من قد غابَ عن بالهِ أنّه يقصدها، فقال: نعم أتذكّرها، لقد أخذوها للصَّعيد.

قال الاسكندراني دون أن يحولَ عيناه عن الطّريق المائيّ الذي يتلوّى أمامه مع سرعةِ المركبِ التي لم يعتدها بعد: سمعنا بكلّ ما حدثَ لكما مع الجنرالِ الإنجليزيّ.

أكمل الشرقاوي: خرجت أختكَ من عند الإنجليزي بزفةٍ من الصّراخ أيقظت الموتى من قبورهم.

تذكّر ما حدث فقال بيأس: لقد أخذها المماليك للصّعيد.

قال الصّعيديّ: لم يصلوا بعد، سنلحقُ بهم إن شاء الله بهذا المركب العجيب.

تطلّع إليه كغريقٍ ينتظرُ يدَ النّجاة: وكيف سنعرف الطَّريق الذي سلكوه يا...

نظر له الصّعيديّ بإشفاقٍ وكبتَ ألمه وحسرته على حالِ صديقه، وقال مذكراً إيّاه: «مجاهد»، «الشهيد» رفيقك في الجِرايةِ والسِّكن وطلبِ العلم لسنوات، ألا تذكر؟!

نحن من المجاورين يا أخي.

أخذ يعصر عقلهُ ليتذكّر أين سمع تلك الكلمات القادمة من قرونِ التّاريخ الماضية، ثم أدركَ أخيراً أن «مجاورين» تطلق على طلبةِ الأزهرِ الذين انقطعوا لطلبِ العلم وجاوروا الأزهرَ الشريف، هنا أيضاً في هذا العالم صَارَ طالباً أزهرياً! هل قصدَ ذلك «الزّفت» أم أنّها صدفة! ربّما لأنّ نخبة المتعلّمين والمثقّفين في ذلك الزّمن كانت من الأزهرِ وهو الجامعةُ الوحيدةُ التي يلتحقُ بها من يريدُ الدِّراسة والتعلُّم، عجباً! كان الأزهر يحظى بتقديرٍ واحترام، ليس من الشّعب المصريّ فحسب، بل السّلطنة العثمانيّة وشعوبها في كافّةِ أرجاءِ الأرض، فيقصده كلّ من يريدُ تعلّم العلوم الدينيّة على يدِ الفقهاء.

اتّخذ مجاهد له مجلساً بجوارِ منصور وأخذَ يحكي له ما مضى محاولاً إحياء ذاكرتهِ التي عُطبت من لحظةِ الغرقَ: ليتنا صدّقناك يا أخي وذهبنا معك لرشيد، لكنّنا تأخرنا عنك، ما زالت نفسي تحترق من لحظةِ حماقةٍ حاولت فيها أن أقنعكَ بتأجيلِ عودتك لرشيد لحين صدور أوامر السيد عمر النّقيب بالزّحف إلى هناك، لكنّك لم تستمع إليّ، ورحلت قبل عودة السيد عمر النّقيب من عند الكتخدا، كنت أبعد نظراً منّا جميعاً، أنت الوحيد من بيننا الذي توقّعت خطّ سيرِ الإنجليز، وأنّهم سيتوجّهون إلى رشيد من بعد ما استولوا على الإسكندرية.

قال منصور محاولاً تبيّن أجزاء التّاريخ الحقيقيّ من تلك التي بدّلتها أنا: أمين أغا سلّمها إليهم والحامية العثمانيّة انسحبت أليس كذلك؟

أشرقَ وجه مجاهد بابتسامةٍ مؤيدة: هل بدأت تتذكّر بالفعل!

من أجلِ هذا تركت رفاقكَ ودروس الأزهر والقاهرة وعدتَ لرشيد وحدك قبل أن يصلها الإنجليز لتنجدَ أهلكَ وتساعد في صدِّ العدوانِ عن بلدك.

سأله منصور باهتمام: وهل قاومت رشيد العدوان؟!

قاومت بكلّ شيء، وتحمّل أهلها الجوع والحصار والنار والموت.

تساءَل بدهشة: حصار؟! هل بدأ الإنجليز بالحصارِ قبل أن يدخلوا المدينة؟!

قال مجاهد بتأثّر: ما كانوا ليدخلوها إلّا على أشلاءِ أهلها، خافوا من أن يدخلَ جنودهم المدينة فيأكلهم أهلها، فنصبوا حصاراً حول المدينة واستولوا على تلة كوم الأفراح والتلّة المطلّة على أبي منضور، ونصبوا مدافعهم وأسلحتهم القنابر والمدافع ردمت المدينة لشهرٍ متّصل، والإنجليز يأتيهم المدَد من البحرِ وأهل رشيد لا ناصرَ لهم ولا معين.

تمتمَ منصور بلا روح: وماذا فعلت حامية رشيد، وعلي بك السلانكلي؟!

قال بأسف: جنود الحامية فروا كالفئرانِ إلى البرِّ شرقي النّيل على المراكب والمعديات.

صرخ منصور غير مصدّق: هذا مستحيل، لقد أمرَ علي بك السلانكلي بإبعادِ المراكبِ عن شواطئِ رشيد، كان يتوقّع بالفعل فرارَ جنودِ الحامية، وخطط جيداً لتجنّب ذلك.

صمت لحظاتٍ ثم ألقاها في وجهه: علي بك السلانكلي تمّ أسره، وأخذوه إلى معسكرهم ليرسلوه إلى الأستانة مقيداً في أغلاله.

أصابته الصَّدمة وفتحَ فمه مبهوتاً، فأكمل مجاهد: إنّها الخيانة يا صديقي، هناك من أبلغَ الإنجليز بمكانهِ وبخطّته لإبعادِ المراكب عن رشيد.

فأرسلوا فرقةً لإعادةِ المراكب إلى البرِّ الغربيّ ولاختطاف علي بك السلانكلي والشيخ حسن كريت، ولولا ستر الله وبطولة شباب رشيد الذين دافعوا عن الشيخ بأرواحهم، وأخفوه في مكانٍ لا يعلمه أحد، لكنّا خسرناه.

وكأنما كانوا يعرفون بالخطّة التي وضعها هو وكبراء المدينة، وبالفعل هربت الحامية، كما فعلت حامية دمنهور.

تسارعت أنفاسه حتى غشيهُ الغضب، فأخرج الهاتف من جيبهِ وفتحه، ثم صرخَ في وجهي: أهذه خطَّتك القذرة لقلبِ التّاريخ يا زفت؟!

قلت ببرود مستفزّ: إنها أسهل وأسرع وسيلة لتبديلِ التاريخ، لا شيء جديد، فقط تعامل مع خطط التّاريخ بشكلٍ عكسيّ، ثم بدّل موعد ومكان المواجهة، ستجد أن النتائجَ تبدّلت تلقائياً.

قال بغيظ: هل تظنّ نفسك عبقرياً حقاً؟! لم أعرف أحداً أكثر منك خسّة ووضاعة.

قلت ساخراً: هل ستدّعي الوطنيّة الآن؟! منذ بضع ساعات كانت تلك الأرض هي الجحيمُ الذي تسعى للهروبِ منه، الآن تتمنّى أن تستعيدَ لحظة انتصارها؟!

هتف مغتاظاً: هذا ليس العالم الذي أعيش فيه، إنّه عالمُ هؤلاء الناس الذين يعيشون في ذاك الزّمن وانتصروا بالفعل، أهل القاهرة والسيد عمر، لن يهدؤوا حتى يرسلوا مدداً من رجالٍ وبارود و....

قاطعته: أهل القاهرة مشغولون بتأمينها ببناءِ المتاريسِ وحفر الخنادق تحسباً لدخول الإنجليز عليهم، ألم تفهم بعد؟! لقد تبدَّل التاريخ بالفعل، هذا ليس التّاريخ الذي تعرفه.

تمتم بغلّ: لم تنتهِ المباراة بعد أيّها الخبيث، انتظر حتى ترى ما سيفعله الباشا محمد علي عندما يعود من الصَّعيد.

عند تلك اللّحظة ولم أستطع أن أمنعَ انفجار ضحكاتي، وقد وصلت أذنه واهتزّت لها طبلتها بعنف، فردَّ لسانه بسبابٍ قاذع، فقلت بمكر: وهل تعتقد حقاً أنه سيعود للقلعة بعد أن صارت للإنجليز اليد العليا في البلدِ كلها؟! هو نفسه أحد الأسباب الرئيسية لحملةِ فريزر كما درسناها، بريطانيا العظمى لم تستطع منع السّلطان العثمانيّ من الاستجابةِ للضَّغط الشعبيّ المصريّ بتوليةِ محمد علي منصب الباشاوية، ورغم كلّ

الضّغوط التي مارستها على الأستانة لإبعاد محمد علي عن الحكم وفرضِ حكم المماليك الموالين لبريطانيا العظمى، لكن السّلطان خشيَ من أنَ تكرّر فرنسا تدخلاتها في أكبرِ إقليم للسلطنةِ في الشّرق، كان ذكياً عندما رفضَ أن يميلَ كفّة الميزان لصالحِ دولةٍ عظمى على حسابِ الأخرى حتى لا يخسرَ أياً منهما، لكن بريطانيا التي غلبت فرنسا اثنين صفر في البحرِ المتوسط، غرّها ضعف خصمها اللّدود فرنسا الذي أنهكتهُ الثّورات الداخليّة والتّحالفات الأوروبيّة ضدّها، فجاءَت فرصتها لقطعِ أرجلها من البحرِ المتوسط، فقرّرتْ فرضَ إرادتها بالقوَّة على الدِّولة العثمانيّة المُنهكة بحربها مع روسيا، فدخلت بسفنها خليج الدردنيل كما دخلت الاسكندريّة بحملةِ فريزر، لم تكتفِ بضربِ عصفورين بحجر، بل هدمت الشَّجرة كلّها على رأسِ العصافير.

أخبرتك من قبل أنني أشجّع اللّعبة الحلوة.

صرخ مغتاظاً: هل صرت محللاً تاريخياً يا ساقط إعدادية يا فاشل في التاريخ!

- عجباً، هل أسمع صوت «منتصر» في الهاتفِ أم يخيّل إليّ؟! كلّهم سواء لا يؤمنون بتعدّد الآراء -

قلت له هازئاً: عليك أن تعترفَ بقدراتي الفائقة في تحليلِ التاريخ، بل واللّعب به أيضاً.

- لا شكَّ أن خاطبَ أختي قد جُن، ونسيَ أنّه في لعبة -

-أيّها السافل النّجس، سيعود محمد علي ويخرجهم من رشيد بمعاونةِ عمر مكرم والناس، وسترى بعينيكَ ماذا تعني مقاومة شعبيّة كاسحة لمحتل.

- محمد علي ليس غبياً ليعود بعدما حدث بالفعلِ مما كان يخشاه من زحفِ المماليك من الصَّعيدِ والبحيرة يطلبون التّحالف معهم ويقدمون القرابين وفروض الطّاعة والولاء للمحتلّ؛ طمعا في أن يختارَ من بينهم باشا للقلعة ويقرّ كل منهم على القطاعِ الذي يحكمه من أرضِ مصر وينهب خيراته تحت سلطةِ بريطانيا العظمى! محمد علي لا يدخل مواجهة قبل أن يتأكدَ تماماً من أنّه في الكفّة الرابحة.

لم لا تسأل صديقك الجبرتي الذي قرأت كتابه مرّات ومرّات؟ ماذا كان يفعل محمد علي عند عودته من الصّعيد بعد أن أرسل الوسائط والمشايخ لمماليك الصّعيد يرجوهم إيقاف الحرب؛ حتى لا يكون ظهره مكشوفاً ولا يصبح لحماً مفروماً في الجُلّاشة! ورغم عدم ثقتهم به، لكنّهم وافقوا على إيقافِ الحرب، هل تتذكّر ما قرأته أم أخبركَ أنا؟!

صمت منصور للحظاتٍ يسترجع عقله كتابَ عجائبِ الآثار الذي حفظه من كثرةِ ما قرأه ودرس ما فيه، وخاصةً ذلك الجزء الخاصّ بتلك الفترة الملحميّة التي مرّت على مصر ولم يمرّ فيها يومٌ دون أحداثٍ جسام، لكن أفعال محمد علي في ذاك الوقت كانت تحمل علامات استفهامٍ كبيرةٍ يصعبُ تفسيرها، فالجبرتي بنفسه حكى عن عودتهِ من الصّعيد إلى القاهرة، فكتب بأسلوبهِ الساخر:

(حتى إن محمد علي باشا لمّا بلغه حصولهم بإسكندرية، وكان يحارب المصريين، ويشدّد عليهم، فعند ذلك انحلّت عزائمه، وأرسل يصالحهم على ما يريدونه ويطلبونه،

وثبتَ في يقينهِ استيلاء الإنجليز على الديارِ المصرية، وعزم على العود متلكياً في السيرِ يظنّ سرعة ورودهم إلى المدينة، فيسير مُشَرِّقاً على طريقِ الشام، ويكون له عذراً بغيبتهِ في الجملة)

-تماماً، لقد وصلت للكلمةِ الصّحيحة «متلكيا»، ذاك الذي تأمل منه إنقاذَ رشيد، زَوّغ على الشام، حسب اللّعبة جيداً ووجدَ أنّه هو وجيشه من الألبان سيسحقونَ ما بين جيش الإنجليز وجيش المماليك الذين يتربّصون به ويريدون الانتقام منه.

- عجباً! ترى ما الذي أغضبهُ لتلك الدَّرجة ودفعه ليبصقَ في وجهي قبل أن يغلقَ الهاتف؟! ترى هل تربطه صلةُ قرابةٍ بأحفادِ محمد علي؟! -

عاد منصور لواقعهِ المؤلم كسجينٍ في القرنِ التاسع عشر في تاريخٍ بديلٍ لا يعلم عنه شيء، يكاد يبكي من فَرطِ اليأس والهزيمة التي نالت منه ومن البلدة بأكملها.

ربت مجاهد على كتفهِ مواسياً: عليك أن تعودَ لعقلكَ سريعاً، حتى نستطيعَ أن نجدَ أختك وباقي عائلتك، لم يعد بإمكاننا فعل شيءٍ سوى ذلك.

انتفضَ منصور من مجلسه، وبدا له بالفعل أن هذا هو الأمل الوحيد للخروجِ من هذا العالم الفانتازيّ المُظلم، أن يجد هالة ويغوصان معاً ومعهما الموبايل في نفسِ المكان الذي عبرا منه من العالمِ الحقيقيّ للعالمِ الفانتازيّ.

فهتف: هالة! ترى أين هي الآن؟!

قال شرقاوي: أختك كانت تصرخ بكلماتٍ عجيبةٍ والمماليك يخرجونها من دارِ السعادة وسمعها كلّ من كان حاضراً، كانت تقول أنّ الباشا سيذبح أمراء المماليكَ في القلعة.

أدرك أن عقلَ هالة الناقص لم يستوعب بعد أبعاد العالم العجيب الذي سقطا فيه، وربّما ما زالت تعتقد بسذاجةٍ أنّها في الماضي الذي قرأته في كتبِ المدرسة.

قال بخوفٍ نافياً تهمة لا يدري ما أبعاد خطرها عليه وعليها في ظلّ تلك الظّروف العجيبة التي تمرّ بها البلدة: إنها مجنونة.

قال مجاهد بصوتهِ الجادّ العميق: لكنّهم صدّقوها وأخذوها معهم لأمرائهم في الصّعيد.

قال بوجل: وماذا سيفعل الأمراء بها؟!

قال شرقاوي: سيستمعون لها ويختبرون صدقها.

تمتم بخوفٍ وقد ارتسمتْ في عقلهِ صورة مرعبة لصدى الكلمة يريد أن ينفيها: وكيف سيختبرون صدقها؟!

تبادل شرقاوي نظرات القلق مع مجاهد وكأنما لا يريد إخباره، فقال منصور وقد تأكدت له أبعاد الكارثة: وهل من شكّ في أنها مجنونة؟!

قال مجاهد: ربّما ظنّوها عرّافة تتنبأ، في كلّ الأحوال لن يتركوها، بل قد يطلبون منها استخدام التِّنجيم أو فتح المندل ليعرفوا اسم الباشا الذي سيوافق هوى الإنجليز.

انزوى منصور في جانبِ المركبِ وعشش اليأسُ فوق رأسه مجدداً، حتى هتفَ مجاهد بصوتهِ الرنّان ولهجتهِ الصعيديّة: لن نتركها يا أخي، سنحرّرها منهم.

ثم التفتَ نحو حسن وهتف آمراً: حسن، أسرع.

انطلق حسن بالمركب وقد صارَ أكثر قدرةً وتحكُّما بها، وأخذ يستعرض مهاراته وقدراته في القيادة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# المولد

كانت هالة تحاول أن تمسكَ ببعضِ النّوم لكنه يتطايرُ بسرعةٍ مخلفاً إرهاقاً في جسدها وتشوشاً في عقلها، فهي لا تستطيع أن تمدَّ جسدها على الأرضِ حياءً، بل تبقى جالسة طوال الوقت تحاول أن تسندَ ظهرها الذي يؤلمها بشدَّة فلا ترتاح، كيف كانت تعيش النّساء في ذلك العصر؟! أظنّها خبرت ذلك الآن بنفسها، الغبيّة كانت تعتقد أنها لو عاشت في الماضي فستعيش كأميرةٍ في قصرِ أبٍ من عليةِ القوم.

كانت تحمد الله أن هؤلاء الوحوش لم يقترب أحدهم منها ولم يفكّروا في إيذائها حتى لا يعاقبهم أسيادهم - الغبيّة لا تدري الحقيقة المريرة، وأن بعضهم يظنّها عرّافة ويخشى أن تسخطه، والبعض الآخر يكذّبها ويظنّها مجنونة، لكنّه يضع احتمالاً أنّها ساحرة، في اعتباره من قبيل الاحتياط ـ

لم تستطع أن تنعمَ بغفوةٍ قليلة، فقد استيقظت على صوت طبلٍ ومزامير وغناءٍ يقترب حتى صارت ضجّة تصمّ الآذان،

موكبٌ كبيرٌ تغلبُ عليه الألوان الخضراء والبيضاء.

يتقدّمه صفوف من الرّجال يلبسون ثياباً خضر، ويحملون راياتٍ خضراء ويهتزّون يميناً ويساراً على أصواتِ الطّبول والدّفوف والصّاجات الكبيرة وينشدون المدائحَ النبويّة، ثم صفوف ممّن يلبسون الملابس البيض وآخر الصّفوف نساءٌ يزغردنَ ويرشّون الملح وأطفال يركضونَ هنا وهناك.

قامت تستطيلُ وتستشرف الموكب بفضولٍ كبير، وأدركت أنّه احتفالٌ بأحدِ الموالد، وابتسمت عندما رأت صفًّا من أصحابِ التنانير الضّخمة الملوّنة بألوانِ الطّيف وعندما يدورون بها تصبح دائرةً واسعةً تذوب ألوانها في اللّون الأبيض ثم ترجع إلى ألوانٍ متفرّقات حسب سرعةِ دورانِ لابسها، والذي يقوم بها بحركاتٍ مدروسةٍ ومدربة لتخلبَ لبّ كلّ من يراها.

كان الأمر أشبه بمهرجانٍ شعبيّ، حتى الرّجل الغريب عبد الله وقف يشاهد الموكب بانبهارٍ وابتسامةٍ مولعة، يتفرّج على هؤلاءِ الذين اجتمعوا يطوفون القرى والبلاد ليعرفَ الناس أن خيمةَ المولد ستنصبُ بالقربِ منهم وأن الاحتفالات ستقام في اللّيالي ليتجمّعوا ويحضروا.

ابتعد الموكبُ عن الركبِ مخلفاً أصواته وضجيجه الذي يخفت تدريجياً، وعينيّ هالة تودّعانه بشغفِ طفلةٍ ترى لأولِ مرةٍ عالماً جديداً من الإبهار، حتى اختفوا فعادت لواقعها الأليم.

وعاد المماليك للجلوسِ في متكئهم حول طعامهم وسمرهم ولم يفوّت عبد الله الفرصة، بل راحَ يسألهم بنهمٍ عن تفاصيل كلّ شيءٍ يراه ويسمعه ويسجّل ويدوّن الأحداثَ في أوراقهِ بلغتهِ بعدَ أن يترجمها الترجمان له، وأدركَ الرّجل أن المماليك توقّفوا هنا لمدةٍ أطول من المعتاد ولم يستكملوا الطّريق حتى يحضروا المولد، فهي مناسبةٌ للمتعةِ لا تفوَّت.

كان يتعجّب من تلك البلدة التي لا تبالي بشيء، ولا حتى باحتلالٍ إنجليزيٍ يوشك على إحكامِ قبضته على جميعِ الأراضي المصرية.

لكن يبدو أن الأخبارَ التي تردُ من الإسكندرية وتنتشر بسرعةٍ عبر أفواهِ النّاس وآذانهم قد طمأنتهم بعضَ الشيء، فالإنجليز بعد أن استولوا على الإسكندرية أمنوا أهلها وتركوهم يديروا شؤونهم فيها كما تعوّدوا ولم يتعرّضوا بسوءٍ للمساجدِ ولا البيوت، لقد استفادوا مما حدثَ للفرنسيين وعرفوا جيداً ما يستفزّ النّاس فتجنّبوه.

لم يكن هذا من حظٍّ رشيد للأسف، فمقاومة أهلها العاتية جعلت الإنجليز يحرقون البلدة ويهدمون الكثير من البيوتِ بالمدافعِ ويقتلون كلّ من يفكّر في مقاومة.

عندما أتى اللّيل طلبَ الضَّيف أن يذهبَ لمشاهدةِ المولد، وصاحبهُ كبراء الرّكب وتركوا بعضِ الجنود يحرسون المتاع وكذلك يراقبون هالة التي كانت ناقمةً أشدّ النّقمة على كلّ شيء، الوقت يمضي عليها بطيئاً مؤلماً برغم أنها أقلّهم تأثراً بالزمنِ الفعليّ، فالزّمن ربّما يمرُّ عليها بسرعةِ اللّعبة لكنّها لا تشعرُ بذلك من كثرةِ التّعب والإرهاق والخوف والغضب.

انتفضَ قلبها فزعاً حتى كادَ يخرج من مكانهِ عندما هاجم المكان مجموعةُ أشباحٍ سوداء على خيولهم لا تكادُ تتبيّن هيأتهم من سرعتهم، أخذوا يدهسونَ كلّ شيء ويقتلون في الحرسِ ويضربونَ المشاعل بالسيوفِ فيسود الظّلام المكان، وحدث هرجٌ كبيرٌ وأخذت هالة تصرخ وترتجف رعباً وهي لا ترى سوى أشباح مخيفة تدور في الظّلام بعد أن انطفأت المشاعل، فالتصقت بالجملِ تحتمي به، لكن قلبها كادَ ينخلع رعباً من صدرها عندما هاجمها أحدهم وهي مقيدةٌ لا تستطيع الدِّفاع عن نفسها، ولم تجد سوى إطلاق صرخاتِ الاستغاثةِ بصوتٍ مدوٍّ، وظنَّت أن مهاجمها خافَ من صرخاتها فتركَ ذراعها، لكنّها أدركت أن أحدَهم ضربه من الخلف عندما خرَّ على وجههِ أمامها ممدداً على الأرضِ لا يتحرّك، وظهر أمامها الغريب الأندلسيّ، والذي تبينتهُ بصعوبةٍ في الظّلام وأخذ يقطع قيدها بسكّينه، والجميع مشغولون بالقتالِ والحرس يحاولون صدَّ الهجوم اللّيليّ بسلاحهم وأرواحهم، وهاجمهما أحدهم فصدّ الغريب الأندلسيّ الهجوم وتصدّى للمهاجم ببسالةٍ حتى قتلهُ ودفع هالة بعيداً لتجدَ المترجمَ خلفها يقول: اهربي بسرعة، إنّهم يريدونك.

ارتجف قلبها رعباً من وقعِ الكلمة، فقالت للمترجم: من هؤلاء؟! وإلى أين أذهب؟ لا أعرف أحداً ولا مكاناً ألجأ إليه.

قال وهو يقود خطواتها ركضاً على الطّريق: اذهبي إلى المولد، السيد عبد الله يقول لكِ ابحثي في المولدِ عن «حوريّة» ستكونين معها في أمانٍ ولن يجدوك.

لم يكمل، فقد كان أحدُ المهاجمين في أثرهما، فتصدّى له المترجم ليبعده عنها حتى انطلقت بكلّ طاقتها في الركضِ نحو أضواءِ المولد البادية من بعيد.

ولم تنظر خلفها نحو الترجمان الذي قاتل المهاجم حتى لحقَ به عبد الله وضربهُ بسلاحهِ حتى أرداه، بل ظلّت تجري تحاولُ أن تنجوَ من كلّ هذا الجنون حتى

وصلت إلى المولد، واطمأنت عندما طغت أصواتَ الطبول والصاجات على كل شيء، وذابت بين زحامِ الناس، في الشوادرِ والخيامِ الملتفّة حول بعضها البعض.

كانت المرّة الأولى التي تقدّر فيها الزّحام وتعتبره نعمة جليلة، فهنا لن يعرفها أحد ولن يهاجمها أحد، كان كلّ شيءٍ حولها غريباً وجديداً حتى أنّها نسيت الخطر وهي تتلفّت حولها بانبهار.

كانت الخيامُ المنصوبة والمفتوحة مرصوصةً على شكلِ دائرةٍ كبيرةٍ في أرضٍ خلاء، وفي وسطها مساحة كبيرة نُصبت فيها جميع أنواع التسالي.

لعبةُ النشان حيث يضرب الأطفال الهدف لينالوا جائزة، وهناك عامودٌ طويلٌ منصوبٌ عرضياً تنزلقُ عليه بنعومةٍ قطعةَ حديدٍ ضخمة تسمّى (طارة) توضع فوقها ثقّالات حديد تزيد تدريجياً حسب الوزن يدفعها بذراعهِ الرجل الذي يريد إثبات قوّته الفائقة ليضربها في حاجزٍ به بعض الكرات الصَّغيرة المحشوَّة بالبارود (البمبة) فإن استطاعَ أن يفرقعها بصوتٍ مدوٍّ يفوز بلقبِ (فتوة).

وهنا مجموعةٌ من الأطفال يلتفّون حول امرأةٍ أمامها صندوق مقسّم إلى مربِّعات صغيرةٍ مغطاةٍ بالورقِ (بخت) يدفع الطفل مقابل أن يثقب بإصبعه أحد المربعات وينال الحلوى المختبئة تحتها، وإلى جوارها حلقة في وسطها القرداتي يُرَقِّص قردة على الطّبلة ويجعله يقفز ويفعل حركاتٍ تضحكُ الأطفال.

والتفتت خلفها على نورٍ يومض وينطفئ، وفتحت فمها انبهاراً، كان الرجلُ نافخ النار يلعب بعصاتين طَرفاهما مشتعلٌ ويقرب النّار من فمهِ وينفخ فتطير لمسافةٍ يبدو فيها أنّها تخرج فعلياً من جوفه، ثم يعود ليملأ فمهُ بالجاز كلّما نفد، لم يكن المُبهر بالنسبةِ لها أنّه ينفثُ النّار بفمه، فهي تُدرك حقيقة اللّعبة لكن ما يدهشها حقاً هو كيف للرَّجل ألّا يموت حتى الآن وهو يشربُ كلّ ليلةٍ من ذلك السائل؟!

كان الأطفال يركضون ويصيحون في كلِّ مكانٍ ويركبون الأراجيح التي تدور كالساقيةِ ويجرون في كلّ اتجاهٍ ويصيحون بصخب.

هدأت، بل نسيت، وأخذت تتأمّل تلك اللّوحة التي صارت بداخلها بالفعلِ وهي تسيرُ بين خيام المولد، وعند المقام كانت حلقة كبيرة من رجالٍ يتمايلون يميناً ويساراً على صوتِ الطّبلة والدّف ومنشد المدائح.

لكن ما أدهشها حقاً هو أن أغلبَ من في المولد حفاة وخاصةً الأطفال، ومن يلبسون نعلاً يحمي أقدامهم كانوا قلّة قليلة ويبدو من مظهرهم أنّهم أصحاب مال، يمكنها ببساطةٍ أن تعرفَ كم تبلغ نسبة الفقرِ بين عموم الشّعب من خلال النّظر لأقدامهم، وشرد عقلها إلى عالمها الحقيقي، لم تعد ترى فيه حفاة، على الأقلّ في رشيد، ولا تدري هل هي ميزةٌ أم عيبٌ أن يختفيَ الفقر والحاجة عن الأعينِ في حذاءٍ قد يكون مستعاراً.

خفضت رأسها لتنظرَ إلى حذائها الذي اشترته أسماء ثم انتقلَ إليها بعد أن لبسته مرّات، ثم اشترت غيره.

لم تجد فائدةَ من الشعور بالأسى لحالها بعد أن قرقرت بطنها جوعاً وأنفها يعبئ من رائحةِ الذّرة المشويّة التي تتقلّب على الفحم، وبجوارها البطاطا.

كانت منبهرة من ذلك المهرجان الشعبيّ العجيب وكأنّها في أحدِ قصورِ الثّقافة التي تحاول تقليد الفنون الشعبيّة القديمة لكن هنا ليس تقليد، بل هو واقعٌ وحقيقة.

الأطفال يسيرون حفاةً بصحبةِ أمّهاتهم يحملون أقماع السّكر وكوز الحلاوة الطحينيّة وحلوى الموز البيضاء.

تلك هي تسالي أطفال هذا الزّمن، لا شيبسي ولا سينابون ولا جلاكسي ولا شيكولاته فاتحة ولا داكنة ولا شكولاته بالقهوة ولا بجوز الهند ولا... ولا...

تسالي الأغنياء منهم عند حلوانية يفترشون الأرض أمامهم صواني الحلويات الشرقيّة كالبسبوسة والكنافة والهريسة يسيل منها الشربات والسّمن السّائح.

كانت رائحتها تخلب لبّها فقد كانت تشعر بجوعٍ شديدٍ ولا تستطيع أن تطلبَ ولو قطعة تسكت جوعها، فهي لا تملك مالاً ولو كان معها جنيهات لما أخرجتها وإلّا أصبحت كفتيةِ الكهف الذين دلّت على مكانهم عملاتهم الغريبة، ماذا لو رأى هؤلاء العملات الورقيّة؟! أو الجنيه ذو اللّونين الفضيّ والذهبيّ وعليه صورة فرعونيّة! ربّما اعتبرها تحمل كنزاً أو سطت على مقبرةٍ فرعونيّة.

تذكّرت الرحالة عبد الله وكلماته عن «حورية» ولكنّها لا تعرف من تسأل ولا إلى أين تتّجه، هل حورية هذه مشهورة في المولد؟! استوقفها صوتٌ حادٌ رفيع تعرفه جيداً ولا تخطئه أذناها، كان صوتُ الأراجوز، دارت في كلّ اتجاهٍ تبحث حتى وجدت دائرةً كبيرةً من الكبار والصغار يضحكون ويصفّقون حول صندوقٍ خشبيٍّ كبيرٍ له نافذةٌ مربعة، ومزيّنٌ بالستائرِ والألوان يخرج منها الأراجوز، ودميةٌ أخرى ترتدي عمامةً ضخمة وذات كرشٍ بارزٍ يزفّها الأطفال باسم العثمانلي، ويتشاجر معها الأراجوز ويضربها بالعصا على ظهرها فيضجّ المولد بالضّحك، عجباً! الفقراءُ الحفاة يسخرون جهراً من رمزِ السّلطنة التي تحكمهم ولا أحد يغضب أو يشكوهم أو يأمر بإلغاءِ فقراتهم التي تسخَرُ من الحاكم.

بقيت دقائق طويلة مسحورة بذلك العالم، فما من أحدٍ كبيراً كان أم صغيراً ولا يحبّ الأراجوز.

تركته واتّجهت لرجلٍ بجوارهِ صندوقٌ عريضٌ مغطّى واجهته بستائر سوداء وأمامه مقعدٌ طويلٌ يجلس عليه الأطفال ويدسّون رؤوسهم بين فتحاتِ الستائر والرّجل يديرُ عصاً رفيعةً تخرج من جانبِ الصّندوق، في البدايةِ لم تفهم ما هذا حتى هتفَ الرجلُ ليلمّ الزبائن (اتفرج على صندوق الدّنيا)

كان الصّغار ينتظمون أمامه في صفوفٍ بشغفٍ هائلٍ في انتظارِ دورهم ليتفرّجوا، عجباً! ماذا لو شاهد هؤلاء الموبايل أو فيديوهات اليوتيوب؟! هل سيعتبرونه جنّي مصباح علاء الدين؟!

كانت تسيرُ في عالمٍ ما قبل التكنولوجيا حيث تحبو عقول البشر ما بين الخرافةِ والشّعوذة والإيمان بالقدراتِ السحريّة التي يقوم بها لاعبُ خفّة اليد، ممّا جعلها تشكر الله أنّها ولدت في القرن الواحد والعشرين.

تذكّرت حورية فسألت الرجل عنها، فأجابها ببساطةٍ وكأنما حورية علمٌ من أعلامِ المولد: تجدينها في خيمةِ العوالم.

فوجئت هالة بأن من كان يقصدها الغريب ما هي إلا راقصة في مولد، وتردَّدت ألف مرّة قبل أن تذهبَ للخيمةِ التي أشار إليها، إذ كيف لها أن تتحدَّث إلى راقصة! وكيف تثقُ بعالمة؟! لم تكن تمتلك أيّ خياراتٍ في عالمٍ غريبٍ لا تعرف فيه أحد وهي مطاردةٌ ومهددة بأن تصيرَ جاريةً بالفعل.

وحتى الآن لا تفهم كيف سقطت في هذا العالم الغريب، هل هي فجوةٌ زمنيةٌ أم عالمٌ سحريّ؟ أم أنّها نائمة تحلم ولا تستطيع أن تستيقظ؟!

سارت تتخبّط بين زحام الناس تشتمّ جميع الرَّوائح المختلفة القادمة من كلّ اتجاهٍ ما بين بخور ودخان حشيش وعطور غريبة وأطعمة وحلويات شرقيّة حتى وصلت لخيمةِ العوالم، والتي يقف أمامها عملاقٌ أسمر يحمل وجهاً مخيفاً وشارباً غزيراً الشّعر يتّصل بسوالفهِ على الجانبين، ويبدو كحارسٍ للخيمة، فجازفت ونحّت خوفها جانباً وسألته عن حورية فأجاب باقتضاب: بالدّاخل.

أشارت له بيدها وهي ترتجفُ أنها تودّ الدّخول إليها لكنه رفض، فتراجعت بخوف، لكنّها وقفت تستمع لصوتِ صراخٍ وولولةٍ قادمٌ من داخل الخيمة، أعقبه صوتُ شجارٍ ولم تتبيّن الكلمات، ثم خرجت امرأةٌ سمينةٌ ترتدي زيًّاً له قماش بخطوطٍ من قصبٍ ويمتلئ بترتر يلمع في ضوءِ المشاعل ولمباتِ الجاز وفوانيس الطّريق الكبيرة التي أحالت الظّلام لنهار، تضع كحلاً طبقاتٍ فوق طبقات داخل وخارج العينين وعلى ذقنها دقّة وشم على شكلِ سنابل القمح، قالت للحارس: أحضر كرسيّ قشٍ بسرعةٍ وضعهُ في أفضلِ ركنٍ لدينا بعيداً عن «الواغش»

انطلق ينفّذ الأمر بسرعةٍ وانتبهت المرأة لهالة الواقفة بباب الخيمة تتطلّع لها بتلهّف وسألتها: ماذا تريدين؟!

أجابت بسرعة: حورية.

قالت المرأة بارتياب: وما غرضك منها؟! أتريدين الرقص؟!

هتفت مستنكرة بفزع: رقص؟! لا، فقط أريد أن أتحدَّث إليها.

تفحّصتها المرأة بعينيها الغارقتين في الكحلِ كما لو كانت تزنها بميزانِ الحريم، ثم نادت حورية، فخرجت من الخيمةِ فتاةٌ تقاربها في العمرِ كالبدرِ في جماله، ترتدي المطرّز اللّامع من الثيابِ يغطيه الترتر وخرج النجف واللولي وسائر أشكال الزّينة التي تلمع وتُصدر أصوات خشخشة.

غمزتها المرأة: لا تطيلي الحديث فلدينا ضيف.

سألتها هالة بتلهّف هل هي حورية أم لا لتتأكد من أنّها تحادث الشخص الصحيح، فأكدت لها وهي تنصتُ لها بفضولٍ واهتمام، فسكبت أمامها قصّتها كاملةً منذ أن أمسكَ بها الإنجليز حتى أرسلها عبد الله وترجمانه إليها وبالطّبع أغفلت متعمدةً قصّة قدومها من عالمِ المستقبل، إحم... - تقريباً ـ

رحبت حورية بها بكلماتٍ مطمئنة، بعد أن تذكّرت الرحال الأندلسيّ عبد الله الذي أغدقَ عليها المالَ وهو يستمعُ لحكاياتها العجيبة ورواياتها الغريبة ويسجّلها في كتبه. فقالت لها: اطمئني، نعم أتذكّر ذلك الرجل الكريم القادم من خلفِ البحار، وأُدين له بالكثير، سأساعدك.

كانت كلماتها كشربةِ ماءٍ باردٍ في جوفِ ظمآن، هبطت على قلبِ هالة بالرّاحة فأخذت تشكرها بكلماتٍ مرتبكة.

لكن المرأة عادت لحوريّة وأخذت تكيل لها السّباب كيلاً حتى احمرّ وجه هالة من الصَّدمة، فالمرأة ذات لسانٍ بذيء، لكن حورية كانت تردّ عليها الكلمة بكلمتين وثلاثة، وتدعو عليها وعلى نفسها وتهدّدها إن لم تتركها وشأنها فستسكبُ الجاز على رأسها وتحرق نفسها أمام عينيها.

كانت هالة تنظر مذعورة للاثنتين، ما هذا العالم القبيح المليء بالبذاءات الذي سقطت فيه!

كانت دائماً تتمنّى عالماً بلا بذاءاتِ البلطجيّة ولا أطفال الشوارع والسرسجية الذين صار السّباب بالنّسبة لهم كشربِ الماء.

لكن يبدو أن البذاءةَ شاملة لكلّ العصور إذاً! ودائماً ما تكون هناك طبقة من المجتمعِ تمّ تحويلها بنجاحٍ لحثالة.

لكن ما كان يشغل عقلها هو كيف لرحالةٍ أجنبيٍّ راقٍ أن يستطيعَ التّفاهم مع تلك الكائنات العشوائيّة البذيئة؟! الأمر لا يتعلّق بالفقرِ بحدِّ ذاته، لكنّه يتعلّق بالأخلاق والدِّين والألفاظ والتّعامل.

اعترضت المرأة عندما سحبت حورية هالة من يدها وأدخلتها الخيمة رغماً عنها، لكنّها صمتت مرغمةً عندما أقسمت أنّها لن ترقصَ إن طردت هالة، ثم أجلستها على الأرضِ في ركنِ الخيمة رغماً عن أنفِ المرأة.

انكمشت هالة بخوفٍ وهي تنظر نحو المرأة منتظرةً أن تطردها في أيّ لحظةٍ لكنّها لم تفعل، بل رمتهما بشررِ نظراتها، وتركتهما وذهبت تتفقّد الآلاتيّة، كانت هالة جائعة للغاية لكنّها ما كانت تستطيع أن تفتحَ فمها وتطلب أيّ شيء، فحورية كما رأت بعينيها لا تملك من أمرها شيء، ولا داعي لتثقلَ عليها بطلبٍ قد يجرّ عليها السّباب وربَّما الضَّرب من المرأة، يكفيها أنّها تجلسُ هنا وتشعرُ ببعض الأمان مِن مَن هربت منهم، فقد صدقَ عبد الله، هنا لن يجدوها.

كانت حورية ترقص وتغنّي لجماهيرِ المولد، وفي الصّدر منهم كان كرسيُّ قشٍ عالٍ يجلس عليه أحد المماليك الألفيةَ الذي كان من وقتٍ قريبٍ في جيشِ الألفي

وتفرّق شملهم بعد موتهِ وبقيَ أغلبهم في البحيرة ودمنهور وكادوا يهربون للصّعيد لولا أن دخلَ الإنجليز إلى الإسكندرية، فاطمأنوا واستقرّوا في أماكنهم وعاثوا فساداً في القرى والبر كلّه، فسيدهم كان صديقاً للإنجليز.

خلف الكرسيّ القشّ بمسافةٍ تراصّت مقاعد خشبيِّة عريضةٍ قصيرة يجلس عليها من يدفعون أكثر من غيرهم، ثم في الخلف يفترش الأرض الفقراء الذين يدفعون أقلّ القليل.

أنهت حورية عرضها وتساقطت العملات الصَّغيرة والكبيرة تحت قدميها من الذين أتوا لرؤيةِ البدرِ يرقص، ثمّ عادت للخيمة، وألقت بجسدها المتعب على الأرضِ إلى جوارِ هالة وهي تتألّم وتتأوَّه، فأشفقت عليها هالة من حياةٍ بائسةٍ كتلك، فسألتها بتردّد: وكأنّك لست سعيدة!

أجابت بصوتٍ يائسٍ متعب: سعيدة؟! إن الإماء والجواري حالهم أفضل من حالي، أحياناً أدعو الله أن أكون جاريةً بين جدرانِ واحدٍ من المماليك أو الكشافين، أفضل من أن أكون قرداً يلعب ويسلّي الناس ليحصدَ القرداتي المال من عرقهِ وشقاه.

سألتها: ومن أكرهكِ على تلك الحياة؟!

قالت بأسى: وأين أذهب من أبي وأمي؟!

قالت بدهشة: أهذه المرأة...؟!

لطمت خدّيها بحسرة: إنّها أمّي، وأبي بالخارج يجمعُ المال من فتاتِ لحمي الذي أرقتهُ في عيونِ حثالةِ القوم.

لم تستطع هالة أن تقول شيئاً أمام كلماتها المتألمة، فلم تكن تتخيَّل أن تلتقي يوماً فتاةً تفضّل العبوديّة وحياة الجواري على حياتها الحرّة بين أبيها وأمّها، يبدو أن ههنا أنواعاً من العبوديةِ أشدّ قسوة من حياةِ الجواري.

فالجاريةُ أمةٌ لسيدٍ واحد، والعالمة ملكاً لكلّ مَن يدفعُ لأبيها.

دخلت الأمّ الخيمة وأمرت ابنتها أن تستعدَّ لوصلةِ الرقص التالية، فالزّبون من البكوات المماليك الألفية دفع جيداً مقابل المزيد من الرّقص، لكن حورية التي كلَّت وملَّت هذا العمل، رفضت أن تطيعَ أمّها، فقد رأت فتاةً من نفسِ عمرها تصون نفسها وترفضُ أن تكونَ قرداً للتّسلية، بل وتهرب وتعرض حياتها للخطرِ وتفضّل الموت على أن تكونَ لعبةً بيدِ المماليك.

رفضت حورية أن تنهض، فانكبّت عليها أمّها وجرَّتها من شعرها، فتدخّلت هالة التي أزعجها بشدَّة صراخُ حورية، واندفعت تحولُ بينها وبين المرأةِ التي دفعتها بكفّها فسقطت أرضاً، لكنّها قامت بسرعةٍ وقد تحولت...

- نعم تحوَّلت عزيزي القارئ، فعندما تغضب هالة تتحوَّل ويركبها ٦٠٠ عفريت ـ

انقضَّت هالة على المرأةِ وعضَّت يدها المتشبّثة بشعرِ حوريةٍ فصرخت بألمٍ وانفكّت أصابعها من حولِ خصلات شعرها، فدفعتها هالة لتسقطَ المرأةُ على الأرض،

وحورية تصرخ وتلطم خدّيها، ماذا فعلت أيّتها التَعسة؟!

- حقاً إنّها تعسة - فلم تدرك هالة حجم فعلتها الحمقاء ولا خطر التصدّي لعالمة، إلا عندما نادت المرأة على الحارسِ لينقذها من هالة، فوجدت نفسها وجهاً لوجهٍ أمام الحارس المخيف الذي لا يستطيع أن يفكّر وحده، بل إن مفاتيح تشغيل عقله في لسانِ تلك العالمة التي أمرتهُ أمراً مباشراً: ألقها بالخارج.

أدركت حورية أنّها لن تستطيعَ إنقاذها، فقد أمرت أمّها وانتهى.

لكن كلّ شيءٍ انقلبَ في لحظة، وسمعوا أصواتَ صراخٍ وهرجٍ قادمة من خارجِ الخيمة مختلطةً بأصواتِ خيولٍ وضجيجٍ وتحطيم.

اقتحم الخيمة رجلٌ أشعث اختلطَ بياض شعره بسوادِه عليه جلباب بلديّ قديمٌ مرقّع وهو يصرخ بفزع: المماليك يهاجمون المولد.

صرخت المرأة السّمينة وحاولت القيام فلم تساعدها كتلُ الشّحم المستقرَّة على جسدها فساعدها الحارس لتقومَ وتهرب خلف زوجها.

أمّا هالة فقد أدركت أن المماليكَ أتوا ليبحثوا عنها، ولم تكن مستعدّة أن تتركهم يمسكوا بها فاندفعت تجري خارج الخيمة بلا هدى، هدفها الوحيد فقط هو أن تنجوَ من مطارديها، وتبعتها حورية، ومن خلفهما انهارَ عامود الخيمةِ وتمزَّقت قطعاً من ضرباتِ سيوف فرسانٍ على خيولٍ قويّة انتشروا في المولد يدوسون كلّ شيء ويهدمون الخيام على رؤوس من فيها وينشرون الفزع والرّعب بين الناس الذين كانوا منذ لحظاتٍ يستمتعون بفرحةِ المولد هم وأطفالهم.

قد يتساءل قارئ منكم، من هؤلاء المماليك الذين اقتحموا المولد بحثاً عن هالة؟! ولماذا تمّ مهاجمة مخيم مماليك الصّعيد الذين حملوا معهم هالة من رشيد.

الإجابة في كلمةٍ واحدةٍ عزيزي القارئ.

إنّه صراع أجنحة كما قال الجنرال ستيوارت لبتروتشي قنصل بريطانيا، فالمماليك فرقٌ متناحرة، ومماليك الصّعيد يسابقون مماليك وجه بحري والقاهرة في محاولاتِ السيطرةِ على أكبرِ عددٍ من مربعاتِ رقعة الشّطرنج التي نعيش عليها، بل الأكثر من هذا، الاقتتال على مربعِ الوزير، أو الطّمع فيما هو أكبر من ذلك.

اندفعَ المماليك يضربون النّاس ويسوقونهم أمامهم ويقتلون أيّ أحدٍ يحاول التّصدي لهم، لكن الناس الذين اعتادوا تلك الأفعال على مرِّ السنوات لم يتصدّوا لهم بل هربوا وفرّوا من المكانِ فرادى وجماعات، حتى «انفضّ المولد».

وأدركت هالة وهي تجري بكلِّ جهدها على السكةِ الزّراعية المظلمة أنّها صارت مستهدفة، وتملكها الرّعب ولم تكن تدري إلى أين تذهب، لكنّها سمعت صوت حورية من خلفها يناديها، ولمّا التفتت لها ارتدّت أنفاسها الضَّائعة لصدرها، فلم تعدْ وحيدة، ومعها رفيقٌ يمكن أن تثقَ به.

ألقت حورية لها بملاءةٍ سوداء وهي تجري، فتلقفتها ووضعتها على رأسها وكذلك فعلت حورية وهي تحذرها: اخفِ نفسكِ جيداً ولا تُظهري وجهكِ حتى لا يعرفوك.

أطاعتها هالة وقد بلغ بها الخوف مبلغاً عظيماً، ثم غطَّت وجهها ببرقعٍ مثل برقعِ حورية، وانطلقتا تركضان على الطَّريق، لكن الخطر لم يتركهما، فقد تبعهما أحدُ المماليك المترجّلين ولحقَ بهما، وسقطت هالة في دوامةِ الخوف بعد أن أدركت أنها هالكة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(عليَّ أن أجد هالة)

ردّ شرقاوي: وكيف ستجدها وهي ضائعةٌ في الطَّريق ما بين رشيد والقاهرة، هل ستفتح المندل؟!

نظر في وجهِ شرقاوي بيأسٍ وقد صدمه أنّه بالفعلِ لا يستطيع أن يجدَها، لكنّه في النِّهاية أخرجَ الهاتف واتّصل بي وبمجردِ أن رددت عليه صرخ: أين هالة وكيف أصل إليها؟

لم يهتم بالعيون المتعجّبة التي أحاطت به من كلّ اتجاهٍ تراقبه برهبةٍ كلّما أخذ يتحدّث لكائنٍ غير موجود.

قلت له ببرود: وما شأني؟! أنتَ أضعتها، أنتَ عليك أن تجدها.

-أختك بين يدي المماليك وأنت من ذواتِ الدمِ البارد! ابحث عنها على الخريطة.

-لا تظهر لي أيّ علامةٍ تدلّ عليها.

-كيف لا تظهر؟! أخبرتني أنني أظهر أمامك بعلامةٍ زرقاء والمركب بعلامةٍ حمراء، فلم لا تظهر لهالة علامة؟!

-عندما تجدها فلتسألها، فهي من أفسدت كلّ شيء، ما كان لكَ أن تتزوَّج من ساحرة، ثم تشكو لأنّها مارست قدراتها السحريّة وأسقطتكَ في عالمِ الدّيجيتال.

صرخ بغيظٍ شديد: أيّها الشيطان النجس، فقط عندما أضع يدي...

-سمعت هذا التّهديد من قبل، ولكن عليك الإسراع قبل أن يغلقَ الطّريق للبوابةِ التي تحت الماء في رشيد حيث تبدو أمامي على الخريطة كطريقٍ وحيدٍ للعودةِ لعالمك الواقعي، ولو لم تخرج منها فلا أملكُ لكَ حلولاً أخرى.

أغلق الهاتف في وجهي وأخذ يهزّ ساقه وهو يتقطّع غيظاً ورفاقه ينظرون إليه بوجل، وقد تركوا بينهم وبينه مسافة وتكوّموا فوق بعضهم في جانبٍ من المركب، ما كان لديه رفاهية الوقت ليصرخَ بهم بألّا ينظروا إليهِ كما لو كان مجنوناً، بل هتف بعجلة: حسن...

انتفضَ حسن برعبٍ ولبّى بخوف: لبيكَ أخي.

استغل شرقاوي انشغال منصور بالحديثِ إلى حسن والبحث عن حل للوصولِ للركبِ الذين أخذوا هالة، وهمسَ في أذن مجاهد: لا تغضبه، فهو مخاوي جنّي، ألا تراه وهو يحادثه باستمرار!

- حقاً أنا جني –

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# المجنونة

كيف نجت هالة من ذلك المملوك الذي كان يطاردها هي وحورية، حسناً تركناها وهي تركض بالملاءةِ السوداء ومعها حورية، كان مفهوماً وواضحاً أن المماليكَ يريدونها حيّة «تسعى»؛ لذلك فلم يرفع سلاحاً وهو يطاردها، وكان ذلك هو مقتله، فقد أمسكَ بذراعها وأرادَ شلَّ حركتها وإجبارها على السيرِ معه، لكنّها قاومتهُ بضراوةٍ وأخذت تركلهُ وتدفعه بكلّ قوّتها وانضمَّت لها حوريةَ واستخدمت مخالبها وأنيابها في عضِّه وخمشهِ حتى تراخت يده عن ذراعِ هالة التي ركلتهُ بين ساقيه وانطلقت تركض هاربةً وخلفها حورية، لكنّها التفتت تنظرِ خلفها على صوتِ صراخِ أعقبهُ حشرجة، لتجدَ المملوك افترشَ الأرض صريعاً ومن خلفه ظهر عبد الله وفي يدهِ سكّين ملطّخ بدمِ المملوك، ولحقَ به ترجمانه، كانت المرّة الثانية التي ينقذها فيها في وقتٍ قليل- أَحمق كبير! - وقفت مكانها تلهثُ ولم تتقدَّم فبعد كلّ ما حدث لا يمكنها التهوّر والثّقة بأيّ أحد، لكن حورية هي التي جرَت نحوه وهي تصيح بفرح: السيد عبد الله الأندلسيّ، يا ليلة السعدِ والهنا، تلك هي أمانتكَ التي أرسلتها إليّ.

كانت هالة تنظرِ إليهما بريبة، لكن ما كان لديها اختيار سوى الثّقة بهما، فمن الصَّعب أن يبذلَ إنسان جهده في انقاذكَ عدّة مراتٍ ولا تمنحه ثقتكَ التامّة، قال لها عبد الله عن طريقِ ترجمانه: اطمئني، لن يمسّك أحدٌ بسوء.

اطمأنّت هالة في صحبتهِ فقالت له برجاء: هلا صنعت لي معروفاً وأعدتني إلى رشيد؟

قال بأسف: رشيد صارت تحت حكمِ الإنجليز ومن الخطرِ الذّهاب إلى هناك.

أغرق الدّمع عينيها ووجهها وبدت مرتبكةً حائرةً وهي تقول: لا أفهم حقاً ما الذي يحدث، كلّ شيء خطأ، أنا لم أخرج من رشيد طوال أيامِ عمري، لكن، ليست هذه رشيد التي أعرفها، إن ما يحدث هو خطأ فادح، ورغم كلّ المخاطر، فعليَّ أن أعودَ للمكانِ الوحيدِ الذي أعرفه.

شردت لحظة وهي تكمل: ربّما ألتقي منصور هناك.

لم يخذلها، بل سارَ هو وترجمانه معها هي وحورية التي لم تكفّ عضلةُ لسانها عن الرّقص في فمها وهي تحكي لها عن أيّ شيءٍ وكلّ شيء، بداية من حكايتها مع السيد عبد الله الكريم الذي يُغدق عليها المالَ بحفاوةٍ لتحكي له سيرة البلدة والبيوت والحوانيت والرّجال والنّساء والأحداث ليسجلها في أوراقه، وما كانت لتردّ له طلباً بمجردِ أن تسمع اسمه، وهذا هو ما جعلها تساعد هالة وتفعل كلّ ما وسعها لتحميها إكراماً له، وبالطّبع لم تترك هالة إلّا بعد أن حكت لها كلّ شيءٍ عن مذبحةِ المماليك في القلعة، بل صدّقت أنّها منجمة وطلبت منها أن تقرأ لها طالعها وبختها الأسود من قرنِ الخرّوب، حتى كادت هالة أن تصرخَ في وجهها لتدعها وشأنها.

عندما طلعَ النّهار وهم سائرين في الطريق استوقف السيد عبد الله أوّل عربةٍ يجرّها حصانٌ مرَّت على الطَّريق، ودفع للعربجيّ مقابل أن يوصلهم لأقربِ مرسى ليستقلّوا منه مركباً متجهاً لرشيد، فَوَفى بوعدهِ وأوصلها آمنةً للمَرْسَى، وبمجردِ أن استقرَّت هالة في المركب مع تلك الصّحبة شعرت ببعضِ الراحة، فالسيرُ على الماءِ يناسبها أكثر من الأرض ويطمئنها، كما أن فرصة لقائها بمنصور – إذا ما استطاعَ الخلاص من الإنجليز - تبقى نسبتها أعلى من اللِّقاء على اليابسةِ على اعتبارِ أن المركبَ مع أصدقائه الذين لا تعرف حقاً من هم ولا كيف صاروا أصدقاءَه.

كانت تتلفّت حولها وتنظر في كلّ اتجاهٍ على أملِ أن ترى أو تسمع صوت مركبها الأليف يهدر بالقربِ منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن ما حدث في دمنهور وفي المولد تحديداً ليخفى على أحد، فالمذبحةُ التي حدثت لمماليك أمراء الصّعيد، ثم ما حدث في المولد تناقلته الألسنةُ أسرع ممّا يفعل «تويتر» في عصرنا الحالي، وبمجردِ نزول منصور وأصدقائه لشاطئِ دمنهور سمعوا قصّة الفتاةِ التي دخلت خيمةَ العوالم وهدمتها على رؤوس من فيها، فكانَ القرار هو العودةُ السريعة للمركبِ والبحث عن هالة بمحاذاةِ الشاطئ، فالمنطقُ يقول أنّها هي أيضاً تبحث عنه كما يبحث هو عنها، ولن تبتعد عن الشاطئ طالما تعلم أنّ المركبَ معه هو وأصدقاؤه كما تركتهم في رشيد، وهذا ما حدثَ بالفعل، فقد كان حسن يقود المركبَ ببطءٍ ليتمكّنوا من النظرِ إلى الضّفّتين علّهم يجدوا هالة، وعندما اقترب مركبها عرفته من بعيدٍ وأخذت تنادي «منصور» بأعلى صوتٍ لديها، فانتبه حسن للفتاةِ التي تلفّ نفسها بملاءةٍ سوداء وعلى وجهها برقع وتلوّح من المركب، فالتفت لمنصور وسأله: عبد العزيز، أهذه أختك؟!

اقتربوا جميعاً من حافةِ المركب ينظرون حتى كاد يميل بهم لولا أن صرخَ حسن فيهم أن يتراجعوا ويقسموا أنفسهم على الجانبين ليضبطوا اتزانَ المركب.

سأل مجاهد منصور: لماذا تناديك منصور؟!

أطال الصَّمت مفكراً يبحث عن سببٍ مقنعٍ يُسكت فضول من حوله، حتى قال أخيراً وبرمجة عقله تتبدّل بسرعة إلى وضعيةِ الكذبِ المُتقن: أبي دائماً يناديني بالمنصور، فهو يثقُ بنجاحي ثقةً مطلقة، لذا فكلّ العائلة تناديني بذلك اللَّقب.

كانت كذبتهُ متقنة جعلت من حولهِ يصدقونه، بل إن مجاهد أعجبه اللّقب وقرَّر أن يدعوه هو أيضاً بالمنصور، لكنّها فجّرت في قلبهِ نقمةً شديدةً على أبيهِ الذي لا يترك مناسبة فشلٍ أو نجاحٍ إلّا ويصُّب عليه اللَّعنات ويرميهِ بكلّ كلمات الفشلِ والخيبةِ والخسران، بل ذكرتهُ بكم هي رجولته مهدرة في حضرةِ أبيه.

حاذى حسن جانب المركب بمهارةٍ إلى جانبِ المركب الذي فيها هالة حتى تلاصقا، وودَّعت هالة حورية بالأحضانِ والشّكر على ما فعلته لأجلها، وكذلك ودَّعت عبد الله بعباراتِ الشّكر والامتنان لإنقاذه لها مرتين: سيد عبد الله، لن أنسى لك جميلك ما

حييت، وأتمنّى أن يمنحني الله الفرصة لردّه لك يوماً، أو... ربما لأحفادك لو عرفت مكانهم في العصرِ الذي أتيتُ منه، هل يمكنني أن ألقبكَ بالمُنقذ؟

- البلهاء، تظنّ نفسها في العالمِ الحقيقي! ـ

ابتسمَ لها: احرصي على نفسك، وإذا ما وقعت في ورطة، اذهبي إلى حورية في دمنهور، تعلمينَ أين تجدينها، وهي تعلم أين تجدني، وسواء كنتِ حقاً منجمةً أم لا، فلديّ فضولٌ عظيمٌ لأعرفَ هل ستصدق توقّعاتك؟ وهل سيتمّ ذبح المماليك حقاً في القلعة! أم سيكونون هم الأذكى ويأخذون حذرهم ولن يقعوا في الفخ؟ وخاصةً وقد ألقيتِ بالشكِّ والرِّيبة في جعبتهم، وصار الجميع يعلمون بالقصّة.

قفزت هالة إلى مركبها وفي عقلها يقينٌ بأنها لن تراهما ثانية، وعندما رآها حسن تراجع مرتبكاً على الفور من أمام المقود وقد رمتهُ بنظراتِ الشرّ والوعيد، كما لو كان لصّ مراكب، ثم انضمَ لرفاقَه الذين انتشروا على جوانبِ المركب، وانطلقت هالة بالمركبِ نحو رشيد كما أخبرها منصور، ليخرجا من اللّعبة إلى العالمِ الحقيقي.

مال شرقاوي على أذنِ منصور وقال: أختك ماهرةٌ في قيادةِ المركب العجيب، ونعم التّربية.

نظر له منصور بترقّب ينتظر ما سيقول، فتلك الكلمات لها ما بعدها، خاصةً وأن شرقاوي يتلفّت حوله يترقّب رفاقه بقلق، ثم استجمعَ شجاعته وقال: ترى، كم يطلب والدكَ مهراً لها؟

تجهم وجه منصور وقال بذهول: ماذا؟!

أكمل شرقاوي يسكب الكلمات قبل أن تهربَ شجاعته: فتاةٌ مثلها سيقفُ الخطاب على بابها زرافات.

- يا لسذاجةِ شباب القرنِ التاسع عشر، لعابهُ يسيل لرؤيةِ فتاةٍ كهالة! ماذا سيفعل لو رأى ممثلات الأفلام أو فتيات التيكتوك! الأبله لا يدري أن تلكَ التي يريد خطبتها لم ينظر رجلٌ في وجهها سوى ابن عمّها مأموراً من والدهِ لغرضٍ ما في نفسه ـ

ابتلع منصور غصَّة في حلقهِ وقال بلهجةٍ متوعدة: ماذا تريد؟!

قال شرقاوي وقد امتلأ بالشجاعةِ كما لو كان شرب لتوّه مشروب الطَّاقة: أريد أن أناسبَ عائلةً كريمةً كعائلتكم.

اشتعلت أعصاب منصور، وشبّت النَّار في عروقه، فقد صار أشبه بكيس جوافة وهو يتلقّى عرض خطبة خطيبته.

قرب حسن وجهه منهما وقال لشرقاوي بمكر: يا لكَ من خبيث، لقد تزوَّجت من عدةِ أشهرٍ وتريد الزَّواج بالثانية قبل أن تضعَ زوجتك حملها الأول؟!

دفعه في كتفه: وما شأنك أنت! جَيبي عمرانٌ بالمال، وأملك الطين، ولا يعيب الرجل سوى جيبه.

قال حسن: ألا تنتظر حتى تعرف كم ستدفع عائلتك لعلايف العسكر؟! في المرةِ الأخيرة باعَ والدك فداناً ليشتري العليق ليملأ به بطن الخيل والبغال والحمير فما فوقهم، ترى كم سيطلب الباشا هذه المرّة ليصدّ الإنجليز عن القاهرة؟!

نظر له منصور باهتمام: علايف العسكر؟!

وكأنّما مرَّت الكلمة على عقلهِ من قبل.

(ليس على رعية البلد خروج، وإنّما عليهم المساعدة بالمالِ لعلايف العسكر)

ذاك ردّ محمد علي على السيد عمر مكرم والجمع الذي ذهب إليه يطلبَ الخروج لجهادِ الإنجليز ودفعهم عن رشيد فأهل البلد في هذا الزّمان ما كانوا يحملون السِّلاح ولا يعرفون فنون القتال، بل كانت تلك مهمّة ووظيفة الحاميات العثمانيَّة التي يرسلها السّلطان للبلادِ الموالية له، أو المماليك الذين تربّوا في مدارسِ السّلاح على أيدي أساتذتهم الذين كانوا يشترونهم ويصنعوا بهم عصابات تقاتل بعضها بعضاً، وتثرى من نهبِ وسلبِ أهلِ البلدِ فقراء وأغنياء.

دفع شرقاوي كفّه في وجهِ حسن وعلا صوته مغتاظاً: ابتعد يا وجه الشؤم، فكلّنا في الهمّ سواء، ألم يستولي الإنجليز على ورشةِ إصلاحِ المراكبِ التي توارثتها عائلتك أباً عن جدّ في الإسكندرية! بل ودفعوا قبلها لعلايف العسكر الذين سلّموا الإسكندرية للإنجليز؟!

اهتزَّ المقودُ بيدِ هالة فمالَ المركب قليلاً، لكنّها أحكمت السيطرة عليه مجدداً، ثم التفتت خلفها بعد أن صعقتها في أذنها كلمات شرقاوي.

ترى أين في هذا الزّمان ورشتها التي ورثتها عن أجدادها، وماذا عن بيتِ عائلتها الأثريّ! هل استولى عليهِ الإنجليز أم احترقَ من قذائفِ المدفعيّة على البلدة؟!

قال حسن ساخراً: الكلّ سيدفع لعلايف العسكر حتى لو باعَ خفّيه وسرواله، سيدفع رغم أنفه.

صفعه مجاهد على قفاه: صن لسانك يا غبيّ، فمعنا حريم لا يصحّ أن يسمعوا تلك الكلمات.

أكمل بأسف: لو كنّا نشتري السِّلاح والبهائم لنقاتل بأنفسنا، لكان لتلك البلدة شأن، ولكنّا الآن في حالٍ غير الحال.

تركهم منصور يتشاكسون، ووقف إلى جوارِ هالة وتحدَّث إليها بصوتٍ منخفض: عليك أن تصلي لنفسِ المكان الذي سقطنا فيه في الماء من قبل.

-إنه بالقربِ من القلعة.

-عندما نصل، أوقفي المركب وسأفتح شاشة الهاتف على اللّعبة ونقفز معاً.

قالت بضيق: وماذا عن مركبِ أبي، هل سنتركه لهم؟!

قال مغتاظاً: مركب أبيكِ ليس هنا، بل هناك في العالم الواقعيّ يا حمقاء.

صاحت غاضبة: لا تسبني.

تلفّت حوله وكاد أن يطبقَ كفّيه على زمارةِ رقبتها وهو يرى الشباب يحملقون فيهما، لكنّه أمسكَ أعصابه لآخرِ لحظةٍ ولم يتبقَ على عودتهِ لعالمهِ إلا بضعِ دقائق: هل سنتشاجر؟! تذكّري ما حدث سابقاً بسبب شجارنا، ركّزي في الخطّة حتى نستطيعَ العودة لعالمنا.

قالت منذرة: وأنت كفّ عن استفزازي وإلّا أريتَك ما تكره، وعندما نعود سيكون لي شأنٌ آخر مع أبيك.

ابتلعَ غضبه العارم الذي يخلفه ذكر أبيه في أيّ حديث، وقد تأكّد له شعوره البغيض بالانحطاطِ في البيئةِ التي يعيش فيها، فالفتاة التي من المفترضِ أنّه هو زوجها، تحلّ مشكلاتها معه بالشكوى لأبيه.

تراجع وجلس مع رفاقه حتى لا يستسلم لغضبهِ ونقمتهِ فيهدم المعبد على رأسهِ هو قبل رأسها، فليخرج أولاً من هذا الجحيم وليحدث أيّ شيء بعد ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المركبُ يدور مع منحنياتِ نهر النّيل بسرعة لم يعتدها الشّباب وما يدهشهم حقاً هي مهارةُ هالة في السَّيطرةِ على المركب.

حتى اقتربت من مدخلِ رشيد الجنوبيّ حيث يقع مسجد أبو مندور وأمامه الجزيرة الخضراء فيتلوّى النّهر كجسدِ ثعبانٍ ناعمٍ جميل المنظر وكان على هالة أن تهدئ من سرعةِ المركب وهي تقترب من مسجد أبو مندور الذي يقتحمُ صفحةَ النّهر ببروزهِ الذي هو أشبهُ بجزيرةٍ داخل الماء.

فسمع أصوات استغاثاتٍ قادمة من المسجد، فوقف الجميع في المركب يتأمّلون ما يحدث وقال مجاهد: صوت امرأة تستغيث.

قال حسن: يبدو أنهم بعض الفارّين من رشيد بعد أن استولى عليها الإنجليز.

تجمّدت قبضتيّ هالة على المقودِ وشعرت بِهَم كبير يطبقُ على قلبها فهؤلاء النّاس أجدادها سكان رشيد وقد تكون تنتمي لشجرةِ عائلةِ أحدهم، اقترب منها منصور وقال آمراً: أسرعي بالمركب وتجاوزيهم، نريد الوصول لهدفنا.

سمعه مجاهد من خلفه فهتف: ماذا تقول يا أخي؟ إنهم أهلك... عائلتك ربّما التي تبحثُ عنها من بينهم.

هتفَ منصور في هالة: لا تستمعي له وانطلقي إلى القلعة بسرعة.

قالت بألمٍ وعقلها مع هؤلاء المساكين الذين هربوا من جحيمِ الغزاة: لا تصرخ.

كلّما علت أصوات المستغيثين كلّما توتّرت أعصابها بشدَّة. ودخل مجاهد ومنصور في جدالٍ حامٍ.

مجاهد يريد للمركبِ أن يتوقَّف ومنصور يرفض.

فجأةَ انخلع قلب هالة من مكانه، فقد رأت وجه أمّها يطل عليها من أمام المسجد وقد تقدّمت بضع خطواتٍ في الماء تشير لمن في المركب وتصرخ مستغيثة.

فهتفت بانفعال جارف: أمّي!

التفت لها منصور وظنّ أنها جنّت: أمك!

هتف مجاهد: إنّها أمك يا أخي لقد وجدنا من كنّا نبحث عنهم.

انطلق منصور لهالة وهتف مهدداً: إياكِ أن توقفي المركب.

لكن هالة كانت في عالمٍ آخر، فوجه أمها لا يفارق عينيها وصوتها يملأ أذنيها فلا تسمع معه أيّ شيء آخرً.

لم يستطع منصور أن يسيطرَ على الوضع، فمجاهد يقف له بشخصيتهِ الصَّارمة ومن خلفهِ رفاقه الذين مرمطتهم الأيام في البحثِ عن عائلةِ صديقهم، وهالة تُهَدئ سرعة المركب ولا تستمع لكلماتِ منصور الذي لم يجد حلاً للمصيبةِ سوى الاتصال بي لأوقظَ أخته - أعني أختي -

من جنونها.

فهتف بي مغتاظاً: يا لكم من عائلةٍ مجنونة! أخبرني بسرعة كيف أوقظ أختكَ من جنونها؟ ستوردنا المهالك! ألّا يكفي هؤلاء الأربعة الذين ابتلينا بهم؟! تريد أن تأتينا بمصائب أخرى لن نستطيعَ الخلاصَ منها.

قلت وأنا أضحك بشدَّةٍ من غضبه: لو حوّلتم المركب لتاكسي نهري لصرتم من أصحابِ الملايين.

صرخ: هل تمزح في هذا الوقتِ الحرج؟ إن بوابة العودة على بعدِ بضعة كيلومترات وأختك لا تفهم أن هذا ليس عالمها، إنّها تظنّ المرأة التي تناديها أمّها حقاً.

قال ضاحكاً: هيهات أن تقنعها بالعكس، فنقطةُ ضعفها الوحيدة هي أمّي، قد ترمي بنفسها في الهلاكِ إن شعرت فقط أن أمّي تحتاجها.

صرخ مغتاظاً: إنّها ليست أمّها أيّها الغبيّ ونحن لا ننتمي لهذا العالم.

قلت ضاحكاً: حاول أن تقنعَها بذلك لكن أعلم أنك ستفشل لا محالة، فعقل هالة الآن مع صوت ووجه أمّها، لن تنتبهَ لشيءٍ غيره.

أغلق الاتصال في وجهي يائساً، وأمسكَ بذراعيّ هالة التي كانت عينيها في مكانٍ آخر.

وأخذ يوقظها وهو يهتفُ بيأس: هالة استمعي إليّ إنها ليست أمك، هذا ليس عالمنا، وهؤلاء الناس لا ننتمي إليهم يجب أن نعودَ الآن إلى عالمنا.

هتفَ حسن: عبد العزيز، الإنجليز قادمون.

نظر منصور باتجاهِ الشمال ليجدَ مركب إنجليزي آتٍ. فصرخ: هالة اهربي الآن سيمسكون بنا.

لكنّها كانت في وادٍ آخر، فأمّها تنادي وتستغيث.

وبالفعلِ توقّفت بالمركبِ أمام المسجد لتتقدّم أمّها في الماء وتصرخ باكية: أغيثونا زوجي مصابٌ ولو أمسكَ بنا الإنجليز لهلكنا.

هتف مجاهد: الشيخ سلامة مصاب؟!

قفزَ حسن وشرقاوي وطه في الماءِ الضَّحل، ومعهم حبل، ومنصور يصرخُ في هالة: تحرّكي إلى القلعة.

ومجاهد يمسك بذراعهِ ويصرخ في وجهه، ويحول بينه وبين هالة: توقّف يا أخي هل ستهرب من أهلك؟ استيقظ، عُد إلى رشدك، ألا زلتَ لا تتذكّرهم؟

كادَ منصور أن يجنّ.

استطاع الثلاثة الذين نزلوا في الماءِ حملَ جسد الشّيخ سلامة ومساعدة المرأة على الوصولِ إلى المركب.

أخذ منصور يتلفّت حوله وينظر نحو المركب القادم من بعيد واستشاطَ غضباً، ستنتهي فرصتهُ الوحيدة للعودةِ إلى عالمه إذا ما أغلق الإنجليز الطريقَ بينه وبين القلعة التي أمامها بوابة الخروج من هذا العالم تحت الماء، فهم الآن يُحكمون سيطرتهم التامّة على الثّغر وينشرون جنودهم في الطَّريق النهريّ المؤدّي للقاهرة حتى لا يأتي المجاهدون المتطوّعون من هناك، وهو عالقٌ هنا لم يصل بعد إلى نقطة العودة لعالمه الحقيقيّ، فأخذ يصرخ في هالة: انطلقي نحو القلعة.

لكنها صرخت: لن أتركَ أمّي.

قال: إنّها ليست أمك... ألا تفهمين يا غبيّة؟!

دفعها بذراعهِ بعيداً عن المقودِ لتسقط في أرضِ المركب ويتولّى هو القيادة، فتعقّد الموقف، فقد انتفضَ مجاهد وهجمَ عليه وجرَّه بقوةٍ من قفاه وهو يصرخ: أتتخلّى عن أهلك؟! لقد جننت بالفعل!

ما كان منصورِ ليتركَ المقود أبداً فهو طوق نجاته الوحيد من ذلك العالم، فاضطرَّ مجاهد أن يمسكَ رأسه بكفّيه ثم وجّه له ضربةَ رأسٍ كادت تحطّم جمجمته، وأصابته بدوارٍ عنيفٍ فترنّح جسده وسقط على ركبتيه.

وألقى مجاهد بحبلٍ في الماء ليساعدَ رفاقه في رفعِ الشيخ المصاب للمركبِ وخلفه زوجته الباكية، ثم تعلّق الشباب بالحبل وعادوا للمركب.

بمجردِ أن وقعت عينا هالة على وجهِ الرجلِ الفاقدِ للوعي حتى تجمّدت من الصَّدمة، ومجاهد يصرخ بهم: أسرعوا، الإنجليز قادمون.

حاول منصور الوقوف على قدميهِ لكن الدّوار لم يسمح له فجلس مكانه، وصرخ مجاهد في هالة: انطلقي بالمركب، سيلحقون بنا.

كان صوت مجاهد الجهوريّ هو الشيء الوحيد الذي أيقظ هالة من حالةِ الجنون التي أوشكت على السقوطِ بها، فابتعدت عن أمّها وحاولت الوصولَ إلى المقودِ لكن حسن كان الأسبق، فأمسك بالمقودِ فقد غلبه جنونه وحبّه للمراكب، كان بداخلِ عقلهِ يسبح قبطانٌ قيّده أهلهُ وألقوهُ في الأزهرِ لتلقّي العلم الدينيّ وأبعدوه قسراً عن البحر.

وكان مركب هالة يُخرج من داخلهِ عشقهُ المكبوت وموهبته الدَّفينة في قيادةِ المراكب.

ولكن هالة ما كانت لتسمحَ لأحدٍ بقيادةِ مركبها الذي استأمنها عليها أبوها قبل موته.

أبوها! هل هو ذلك المصاب المسجى أمامها في المركب! أو ربّما يكون شبيهه، أو ربّما يكون جدّها! هذا لو أنَّ ما هي فيه الآن تاريخاً بالفعل لا لعبة تبدّل فيها التاريخ.

تشاجرت هي وحسن على المِقودِ حتى لحقتهم سفينة إنجليزيّة كبيرة، ورفع منصور رأسه بيأسٍ يتطلّع إلى النَّهر باتجاهِ القلعة والذي سُدَّ بسفنِ الإنجليز التي تعاقبت لتغلقَ الطَّريق وتؤمن وجودها في رشيد، فغشيهُ اليأسُ الشديد، وضاقت روحه بكلّ ما حوله وكاد يصرخ صرخةَ قهرٍ عالية، والمجرى أمامه يغلقُ وعلى دفّتي النّهر ينتشر الجنود بملابسهم الحمراء وقبّعاتهم متسلّحين ببنادقهم.

لقد انتهى آخر أملٍ له في الوصولِ لبوابةِ العودة.

لم تكن هذه هي الكارثة الوحيدة التي تسبب بها جنون هالة، بل إنّها بشجارها مع حسن سمحت للسفينةِ الإنجليزية باللّحاق بهم، وقفزَ أحدُ الضبّاط إلى مركبهم ممسكاً بسلاحهِ يهدّد الجميع، وكانت الأقرب لطرفِ المركب هي هالة، فأمسكَ بها ووضعَ سلاحه على عنقها وصنع منها درعاً بشرياً كي لا يفاجئه أحدهم بطلقةٍ أو يهاجمه بسكين.

كان الضّابط الإنجليزي ينظر للشباب الخمسة بقلقٍ فهم ممتلئين بالحيويةِ والقوّة، ثم ينظر لرجالهِ على السفينة وهم يستعدون لسحبِ الأسرى لسفينتهم الكبيرة والاستيلاء على ذلك المركب الصغير العجيب والتي أمرهم الجنرال بمطاردتها والحصول عليها بأيةِ وسيلة.

فقال بإنجليزية وقد فهمها المتعلّمون: استسلموا واصعدوا بهدوءٍ إلى المركب وإلّا ذبحتها أمام أعينكم.

لم يتحرّك أحد فقد كان الموقف رهيباً ونظرت هالة في وجوههم تباعاً تقيّم من منهم يمكنه مساعدتها على النّجاة!

كان حسن ملتصقاً بالمقود ولا يريد أن يتركه من يده، ثم طه بجانبهِ ومنصور الذي زاغت عيناه وجلس مستسلماً لمصيرهِ وقدره وقد تشوّه جبينهُ بانتفاخٍ كبيرٍ تسبّب به رأس مجاهد الحجريّ، ثم شرقاوي.

نظرت نحو أمّها التي تحتضن رأس أبيها في حجرها وتبكي برعب، فتفطر قلبها والجنرال الإنجليزي يكمل: نريد هذا الرجل فهو أحد الزّعماء في عصاباتِ المخرّبين المطلوب القبض عليهم.

أدركت في عقلها أن الشباب حتى لو استطاعوا النَّجاة فلن ينجو أبوها ولا أمّها فكلمات الضَّابط واضحة، وحتَّى لو نجا أبوها من إصابته فقد حُكمَ عليه بالإعدام لمقاومتهِ للإنجليز.

- المجنونة فقدت عقلها تماماً، هي تعتقد أن هذا أباها وتلك أمّها! لقد حذّرها منصور ولم تستمع له ـ

نظرت نحو مجاهد الذي انحنى جسدهُ وثنى ركبتيه قليلاً متخذاً وضعيةً تشبه النّمر، وأخذ يزوم وجسده كلّه يرتجف غضباً وعيناه حمراوان حتى أن الضّابط الإنجليزيّ خشي من أن يثبَ عليه في أيّ لحظة، فأراد أن ينهيَ الأمر بسرعة، فالتفت نحو حسن وصرخَ فيه: أنت، ابتعد عن المقود.

استغلّت هالة تلك الالتفاتة، ووجّهت نظراتها صوب النّمر الأسود المتحفّز وألقت إليهِ برسالةٍ مبطّنة: مجاهد... أمّي.

ثم فعلت أشدّ الأفعال جنوناً على الإطلاق، فقد ارتدت برأسها إلى الخلفِ في ضربةٍ عنيفةٍ أصابت وجهَ الضّابط الممسك بها، ثم دفعت يديها لأعلى بالحبلِ الذي اختلستهُ في غفلةِ الضّابط من قاعِ المركب بمهارة، وألقت بظهرها على جسدهِ دافعةً إيّاه للخلفِ بكلّ ثِقلها عليه.

فوجد الضَّابط جسده يندفع للخلف بفعلِ ثقلِ جسدِ هالة والضَّربة العنيفة التي تلقَّاها في وجهه، ليسقطَ الاثنان معاً في الماء أمام أعينِ الجميع وقد جمدهم الذّهول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# القاتلة

كان آخر ما سمعه مجاهد هو وصيةُ هالة له بأمّها، وآخر ما رآه قبل أن تقفزَ في الماء، هو حبلٌ كانت تُخفيه في يدها، وما كان له أن يهدأ أو يستكين أمام وقفٍ كهذا! وفي ثوانٍ انقلبَ الوضع فاندفعَ النَّمر الأسود بقفزةٍ سريعةٍ خلف هالة والضَّابط الإنجليزيّ ليسقطَ في الماءِ وهو يصرخ في نفس اللّحظة: حسن، اهرب بالمركب.

حسناً الأمر الآن انفرط، ومنصور أسقط في يدهِ فكّل شيء تخرّب في لحظةِ جنونٍ سيطرت على هالة، وهو يستحقّ بالطَّبع أن يقعَ في خطبةِ فتاةٍ مجنونة تُفسد له حياته.

لكن لحسن حظّه أنّه تعرَّف إلى شلّة مجانين صاروا أصدقاء له، الواحد منهم يتمنّى أن يُقطع رأسه بكلّ رضا ويقدّمها فداءً لرفيقه.

إنّها نوعية تليقُ تماماً بذلك العصر، يؤمنون بمبادئ عفا عليها الزّمن، فكرة الصَّداقة والتَّضحية والنَّجدة والمروءة... إلخ...

إلى أيّ مدى؟ إلى المدى الذي يجعله الدّين الذي تعلموه في الأزهر فرضاً وواجباً مقدساً قد يدخلهم الجنة لو تمسّكوا به أو يهوي بهم في النارِ لو أعرضوا عنه.

هؤلاء المجانين لو كانوا في عصرنا هذا لصار لمنصور حياةً مختلفة تماماً، وتبدلت شخصيته ليصبح إنسان آخر.

فمجاهد عندما وجد امرأةً في خطرٍ تضحّي بنفسها لأجلِ أن تسهّل أمرَ الهروب عليهم وتبعد عن أمّها وأبيها - هكذا يظنّ - الخطر جازفَ بحياتهِ لينقذها، وحسن نجحَ بالفعلِ بالانطلاقِ بالمركب وابتعد عن سفينةِ الإنجليز وتفادى نيران أسلحتهم بمهارةٍ فائقة، متجهاً إلى الجنوب ومبتعداً عن القلعة ممّا جعل منصور يحترق غيظاً، لكنه ما كان يستطيع الاعتراض، فالعودة للقلعة التي انتشرَ حولها جنود الإنجليز هي انتحارٌ بالفعل.

لكن حسن رغم ذلك يلتفّ عائداً نحو سفينةِ الأعداء الشراعيّة ليمرَّ بينها وبين المكان الذي قفزَ فيه مجاهد وهالة في الماء.

واللانش يتمايلُ يميناً ويساراً بين يديهِ وهو يحاول كلّ جهده تفادي نيران الأعداء ورفاقه يتمسّكون بالمركبِ كي لا يسقطوا في الماء، وحسن قد اكتسبَ مهارةً عاليةً في المناورة في زمنٍ قصيرٍ للغاية - الوغد بالفعل قبطان بالفطرة ـ

فهم منصور ما يفعله حسن، فهو يمنع الأعداء من الانطلاقِ خلف من سقطوا بالماء، كما أنّ طه استخدمَ الأسلحة التي معه هو وشرقاوي للتصويبِ على سفينةِ الإنجليز بصعوبة، ونجحوا في جعلِ الجنود يرتبكون من تلك المناورة العجيبة ويعجزون عن اتخاذِ القرار المناسب، وحسن يشتتهم بالدّوائر التي يدور بها بسرعةٍ هائلةٍ بالمركب، ولم يتوقف حتى صرخ شرقاوي: الله أكبر، نجا مجاهد.

التفت منصور، ليجدَ هالة قد وصلت لشاطئ كفر الشيخ بالفعل وخلفها مجاهد يسبح حتى وصل أيضاً للشاطئ، وعلى صفحةِ الماء بالقربِ منهم تطفوا قبعةُ الضّابط الإنجليزيّ التي فارقتْ رأسه فأنشغل كلّ من في السفينةِ الإنجليزيّة بالبحثِ عن ضابطهم.

وانطلق حسن بالمركب والشرقاوي يصرخ على مجاهد بصوتٍ جهوريّ وصل إليه: الأزهر.

اطمأنّ أن مجاهد سمعه ولوّح له وسيلحق به في الأزهر.

نظر منصور نحو الهاربين وهما يبتعدان ركضاً على الشاطئ حتى اختفيا عن الأنظارِ داخل الحقول وبين الأشجار، وقد تجمّد عقله عند ذلك المشهد وارتبكت مشاعره بعنف.

أعتقد أنه قد صار الآن كيس جوّافة فاخر، فقد اتصل بي في تلك اللّحظة ليسكبَ في أذني أعلى أصوات غضبه: ما الذي تفعله أختك المجنونة وأين ذهبت مع الصعيديّ؟

عجباً هل يغار الندل؟! لقد كان على وشكِ أن يتركها كالمعلقةِ ويغادر البلد كلّها، هل تفجّرت دماؤه بالغَيرة؟

صرخ بي: انطق أيّها القذر، ابحث على الخريطةِ وأخبرني أين ذهبا؟

قلت وأنا أخفضُ صوت اللابتوب حتى لا يصل صوت صراخه لأحد يمرّ تلك السّاعة المتأخرة ليلاً، وقلت محاولاً تجنب استفزازه: أخبرتك من قبل إنها لا تظهر لها علامة على الخريطة، فهي ليست لاعب في اللُّعبة وليس لها شخصيّة موازية في هذا العالم، لقد اقتحمت اللّعبة عنوةً كما لو كانت هاكر.

قال هادراً: وماذا عن الصعيديّ؟ الآن صار بطلاً بعد أن قتلَ القائد الإنجليزي و...

تسرعت في الحديث وأوقفته: مهلاً مهلاً، أتظنه هو من قتل الضّابط؟! أنت واهم.

هتف: ماذا تقول؟ أتعني أن هالة... لا يمكن أن تقصدَ أن فتاةً كهالة تقتل رجلاً مسلحاً كالضابطِ الإنجليزي.

يا للبراءة! إنه ساذجٌ بالفعل.

اندفعت متحمساً أصحّح له فكرته الغبيّة: إنّها ليست المرَّة الأولى.

صمت لحظاتٍ يحاول استيعاب ما قلته، ثم قال: هاه؟!

لا أدري حقاً لم حكيت له، لقد ضربَ الدَّم في نافوخي، ربما نكايةً في الساحرةِ الشريرة التي تكدّر عيشي وتفسد عليّ حياتي، المهم أن عريسَ الغفلة سمع مني قصّة هالة والبرنس كاملة.

ففي ليلةٍ سوداء عاصفة ممطرة اجتمعت فيها كلّ كوارث الطَّبيعة، سحبتني هالة من رقبتي حتى خرجنا إلى المرسى وهناك كان البرنس يحتلّ مركبنا ويهمُّ أن يطلع بها،

فألقت بي في المركب كخرقةٍ مهترئة، وهي تعلم يقيناً أنني سأموت لا محالة لو مسَّ جسدي الماء، وخصوصاً ماء بكلّ هذه البرودة وفي ليلةٍ شتويةٍ عاصفة.

وإن لم أمتْ من برودتهِ فأنا صاحب عيا، وسِجلُّ تاريخي حافلٌ بالالتهابِ الرئويّ فسأموت من شهقةِ الرّعب لا محالة إذا نزلت في الماء، وتلك هي الجريمةُ الكاملة التي لم ولن يكتشفها أحد ولا يعاقبها عليها.

لم أذكر أنني قد أموت أيضاً بين يديّ البرنس بلطجي المنطقة، لأنّه احتمال أبعد من الاحتمالين المؤكدين!

انكمشت أنا متشبثاً بطرفِ المركب والرُّعب يشلُّ أركاني، وهي تواجه البرنس في المركب وهو مطمئنٌ أنّها امرأة كسيرة الجناح وأخيها قزمٌ معلول، فأنا لا أستطيع حتى أن أفتح عيناي من ماءِ المطرِ المنهمرِ على وجهي ولا أستطيع أن أصرخَ من الريحِ البارد التي تصطدم بوجهي وما كان ينقصني إلّا وجود البرنس!

البرنس بلطجي منطقتنا كان يريدُ سرقة مركبنا لأنّه مركب «ولايا» بلا رجل كما يعرف كلّ أهل رشيد.

وأمّي رفضت أن تخرجَ هالة له وحدها وقرَّرت ترك الأمر للشّرطة، وهي تعلم يقيناً أن الشرطةَ لن تفعلَ أيّ شيء، والمركب سيعمل بفضلِ البرنس خط أجرة نقل أنفار ذهاب فقط رشيد اليونان.

لكن هالة أصرَّت على استردادِ مركب أبيها وسحبتني من رأسي خلفها كالعجلِ المساق للذّبح وهي تقول: إن لم تكن رجلاً في هذا الموقف فلن تكون رجلاً أبداً بعد ذلك.

حسناً لم أكن أنوي أبداً أن أكون رجلاً بمفهومها ولا أريد إثبات رجولتي لأحد، فبقيت متمسكاً بموقعي بالمركب وهي تصارع البرنس، حتى سقطا معاً في الماءِ الذي يضرب الشاطئ بعنف.

تلك المجنونة قد تقتل نفسها ألف مرّة لكنّها لن تسمحَ لأحدٍ بوضعِ يده على مركبِ أبي.

لا أحد يمكن أن ينجوَ من تحت الماءِ في رشيد، وفي ليلةِ شتاءٍ قارسٍ وقت نوة من أشدِّ النّوات الشَّتوية.

رأيتهما بعيني يغوصان معا تحت ظلماتِ الماء

وبقيت وحدي متجمداً في الظَّلام على ظهرِ المركب، مقطوع الأنفاس، أرتجف بشدَّة، من البرد.

بل من الرعب...

المطر لا ينقطع، والسّماء المظلمة تشقّها شرارات البرقِ المرعبة، وصوت الرّعد يصمّ الآذان.

بدأت الآن فقط أستوعب الأمر، هل ماتت هالة؟!

ماذا سأفعل الآن، وكيف سأنجو؟!

فجأةً اهتزَّ المركب ومالَ بشدَّة، لم أتبيّن السبب إلّا بعد أن شقّ السّماء ضوءُ البرق، فرأيت كفاً تتعلّق بجانبِ المركب، كدت أموت رعباً بعد أن أدركت أن البرنس خرج من الماء وسينتقم مني، أو أن عقلي كان يتوهّم أنّه البرنس حتى لا يقرّ بالحقيقةِ الأبشع التي ستحيلُ حياتي إلى جحيمٍ أبديٍّ لا نجاة منه.

كانت هالة تتسلّق جانب المركب وهي تخرج من الماء كالنداهة التي كانت يوماً بطلة الحكاياتِ المرعبةِ القديمة، ثم انزلقت إلى داخلِ المركب، وهي تسعلُ وتتقيأ الماء الذي ابتلعته.

كانت قد فقدت وِشاحها والتصقَ شعرها الأسود على الجانبين، وغطّى نصف وجهها الذي رفعتهُ نحوي بنظرةِ شرٍّ قادحة.

فأخذت أنكمشُ في مكاني وأتمنّى أن أختفيَ أو أصير قطعاً من خشبِ المركب، وأنا أراها بتلك الهيئة المرعبة تنهض ببطءٍ على أربع وتتقدّم نحوي، فلم يعد لديَّ شكٌّ بأن مصيري الآن كمصيرِ الضَّحايا في أفلام الرّعب والوحوش الأمريكية.

وقفت هالة أمامي مباشرةً بهيئتها الرَّهيبة المُخيفة التي شلَّت جسدي، وقلبي يكادُ يتوقّف من الرّعب، ثم انقضَّت عليَّ فلم تفلتني...

كانت تصفعني وتلكمني بكلتا يديها وأنا مستسلمٌ تماماً متجمّد من الرُّعب، وصوت صراخها في أذني أعلى من صوتِ الرعد.

(لن تكون أبداً رجل)

الجملة التي قضت على آخرِ خيطٍ رفيعٍ في علاقتنا الأخويّة، الجملة التي جعلتني أكره هالة كما لم أكره مخلوق في هذا الكون، بل لقد صارت مشاعري تجاه أيّ شيءٍ يحدثُ لها كالحجارةِ أو أشدّ قسوة، بل ربما أشعر بالشماتة لكلِّ مصيبةٍ تقع فيها، فلتذهب للجحيم، فاختفاؤها يجعل الحياة بالنسبةِ لي أفضل.

أمّا عريس الغفلة فقد أخذَ يستمع لي ذاهلاً دون أن ينطق، وقد أدرك أخيراً أنه قد سقط بين براثن فتاةٍ مجنونة قد تتحوّل في لحظةِ غضبٍ عابرة إلى «زومبي».

أعتقد أنّه ليس الوحيد الذي أدركَ حقيقة هالة، فالصّعيديّ رآها بعينيهِ تحت الماء وهي تلفّ الحبلَ الذي كان بين يديها حول رقبةِ الضَّابط الإنجليزيّ ببراعةِ بمبوطي قديم يلعب بالحبالِ والمناديل وهو يرقصُ في فرحٍ شعبيّ، بالطَّبع ساعدها الصعيديّ وأمسكَ بيدي الضَّابط الإنجليزيّ وقيَّد حركته، لكنّه في المجمل مات خنقاً بحبلٍ بين يدي هالة كما فعلت من قبل بالبرنس - كما أعتقد ـ

ترى كيف حال منصور الآن بعد أن أدركَ أن عروسه حفيدة ريا وسكينة؟! لقد تركني معلقاً على الهاتفِ لفترةٍ طويلةٍ ثم أغلقَ الهاتف بلا رد، مسكين، لم يتحمَّل الصَّدمة وبقيَ جالساً في المركبِ بلا حراكٍ لا يعي شيئاً من حوله، وترك قيادة

المركب لحسن، حتّى أنّه لم يسمع صوت أمّه وهي تناديه ولم يلتفت لها... أعني أمّي بالطّبع، فقد تبدّلت الأدوار واستولى هو على مكاني.

كان شارداً تماماً في عالمهِ الذي فقده وأملهُ بالعودة الذي انتهى، والاثنان اللّذان على الشاطئ، والمركب يبتعد عن رشيد التي صارت ثكنة لجنودِ الإنجليز ويتلوَّى مع انحناءَاتِ النيلِ متجهاً للجنوب.

ترى... هل لا يزال هناك ما هو أسوأ؟

ربما...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت هالة تشعر بمشقةٍ كبيرةٍ وهي تهرولُ محاولةً اللَّحاق بخطوات ذلك الصعيديّ الذي يشبه طائر الحجل، الذي يقفز بدلاً من أن يسير، في البداية كان الأمر مرهقاً وملابسها مبتلّة، وسرعان ما جفّت وصار الأمرُ أسهل بالتعوّد.

وما كانت هالة لتظهرَ ضعفها أو تعبها أو دموعها أمام غريب، كما أنها تعلم أن الجنود الإنجليز في أثرها بعد ما حدث للضّابط، وكذلك ما كانت لتشتكي أو تزعج الشخص الوحيد الذي قفزَ خلفها في الماءِ كطوربيدٍ موجّه، لينقذها من الغرقِ ويساعدها على التغلّبِ على الضَّابط الإنجليزيّ. لكن ركناً خفياً من قلبها صار كالتّنور من كثرةِ الخذلان، ولا يمكنها البوح بالألم القاتل، ولا أن تسمحَ لصدى الحسرة أن تطفوَ على عقلها بأن من فعلها لم يكن منصور، بل شخصٌ آخر، دائماً ما يكون شخص آخر غريب عنها.

طعنةٌ ستبقى قيد الكتمان في قلبها، ولن تبديَ خيبتها لمخلوق.

نجح مجاهد أن يوقفَ عربةً على الطَّريق يقودها أحد الفلّاحين تحمل حمل برسيم، ودون حديث اتّخذت هالة لها مجلساً فوق حُزم البرسيم جعلها ترى الدّنيا من علو، لتريحَ جسدها المُتعب من السيرِ الطّويل علَى العيدانِ اللّينة، وتستمتع بمنظرِ الغيطان الخضراء في أجملِ وقتٍ في العام في الزّراعة، حيث تكتسي الأرض باللّون الأخضر الزاهي.

وركب مجاهد إلى جوارِ العربجيّ الذي سيوصلهما في طريقهِ لأقربِ مركز، ومن هناك يأخذ ركوبة إلى القَاهرة ليلحقَ بمنصور ورفاقه في الأزهر.

عندما وصلوا دسوق، لم يستطع مجاهد أن يكملَ طريقه للقاهرة بعدما رآهُ على الضّفة الأخرى من النّيل، تحوَّلت السَّماء لدخانٍ كثيفٍ أسود ورائحة حرق الأخضرِ واليابس يحملها الهواء لمسافاتٍ بعيدة.

ومن دون أن يتكلّم أدركت هالة أبعاد الكارثة، إنّها دمنهور!

وعندما قفزت خلفه في معدية نقلتهما للبرّ الغربيّ، لم تجد هالة دمنهور كما تركتها، بل كانت تحترقُ بنيرانِ المماليك الألفية (رمزياً وفعلياً) شبَّت النّار في كلّ مكان، حتّى لم تعد هناك معالمٌ لكلّ ما رأته سابقاً، وما كان لمجاهد الصعيديّ أن يتركَ

النّاس يحترقون ويبقى ساكناً دون أن يفعل شيء، فاندفعَ يساعد الأهالي على النّجاة بحياتهم، ويقتحم مع الرّجال لهيب النّار التي أشعلها المماليك الذين طغوا وتجبّروا واستقووا في وجودِ الاحتلال؛ لينقذَ النّساء والأطفال، حتى المولد لم يسلم من النّيران - أو ربّما هو السبب في إشعالها ـ

وأدركت هالة أن عليها ديناً استحقّ سدادهُ بسرعةٍ لم تكن تتوقّعها، هنا في تلك البلدة التي تحترق، وفي شوادرِ المولد تحديداً، فانطلقت مبتعدةً عن المكانِ الذي تركها فيه مجاهد، وأخذت تبحث عن حورية في المولد - أو ما تبقى منه - لكن صوت مجاهد كان خلفها كالرّعد: إياكِ أن تبتعدي حتى أردَّك لأخيك سالمة.

التفت تنظر نحوه وهي لا تدري هل هذا الحريق الذي شبَّ في عروقها ممّا يحدث للبلدةِ التي كانت منذ وقتٍ قريبٍ آمنة مطمئنة، أم من كلمةِ (أخيك) التي كان لها أثر طعنةِ خنجرٍ في ظهرها.

ابتلعت مرارتها وقالت له: سأعود عندما أجد الفتاة التي أبحث عنها.

تابعها بنظرةٍ غاضبة، فهي تكسر كلمته، وهو لم يتعوّد من أيّ امرأةٍ على عدمِ إطاعةِ أوامرهِ دون أن تصدرَ صوت، وكان هو مضطراً لتحمّل أمانة صديقه رغماً عن أنفهِ حتى يوصلها إليه، فأخذ يناديها: يا حُرْمَة، يا (مرة) لكنّها لم تلتفت إليه وجرت نحو خيام المولد التي تأكلها النار، وهي تسأل كلّ من تقابله عن حورية، وتناديها بأعلى صوتٍ لديها وسط الهرجِ والفزعِ الذي عمَّ المكان، حتى وجدتها تدور كالمجنونةِ وتصرخُ على أبيها وأمّها، وأدركت هالة أنّهما تركاها وهربا نجاة بنفسيهما، فأخذتها هالة معها دون تردٍّد ولا كثيرٍ من الكلام، وكان عليها وحدها عبء مواجهة غضبِ الصعيديّ الذي حمل على عاتقهِ مسؤولية ردّها لأخيها.

أقصد ردّها لصديقه عبد العزيز... أقصد صديقه منصور...

حسناً، هناك (error) في شخصيةِ اللّاعب الأساسيّ في اللّعبة، وأرجو من القارئ أن يتفهّم ذلك.

صار فرضاً على مجاهد أن يحمل رغماً عن أنفهِ مسؤولية اثنتين، واحدة منهما عالمة لم تكفّ لحظة عن الولولةِ والنحيبِ وندبِ حظّها وهو يتقدّمهما بخطواتٍ سيراً في الطَّريق، حتى سئمَ منها وصارت أعصابه كالجمرِ المشتعل، فالتفتَ لها ورفعَ كفّه لأعلى مهدداً وهو يصرخ بغضبٍ عارم: اخرسي يا غازية ولا تفتحي فمكِ وإلّا قطعتُ خبرك.

تراجعت حورية بذعر، وانقطعَ نفسها رعباً، لكن الوحش الأسمر وجد أمام وجه هالة الغاضب، وما أدراكَ ما هالة، فقد دفعت كفّه بقبضتها وهي تصرخُ في وجههِ بشراسة: إياكَ أن تضربها.

تجمَّد من الصَّدمةِ وصارت عيناه كجمرتين مشتعلتين واسودّ وجههُ بشكلٍ مرعب، فلم يتعرَّض لموقفٍ كهذا من قبل، ولم تقف له امرأة وتصرخ في وجههِ كما تفعل تلك المجنونة، ولولا أنه تذكّر في آخرِ لحظةٍ وجه صديقه وأخيه في الأزهر لما تركها حيةً لحظة، فألجمَ غضبه الذي يوشك على الانفجارِ بعزيمةٍ من حديد.

واندفعت حورية تتعلق بذراعها وتجذبها للخلف وهي ترتجف رعباً من غضبتهِ المرعبة، وتحاول أن تبعدها من أمامه، وهي تهمس لها: اسكتي... اسكتي... سيقتلنا.

نفضت هالة يدها عن ذراعها بغضب، فتراجعت حورية برعبٍ وأخذت تلطمُ خدَّيها وتبكي بلا صوتٍ حتى لا تثير غضب المارد الأسمر.

وقفت هالة تواجهه بشجاعة، وتقول بصرامة: أهذه مروءة وشهامة الصّعايدة؟! ترفع يدكَ لتضربَ امرأة وحيدة بلا أهلٍ تلوذُ بكَ لتحميها وتسترها! أهذه أخلاق الأزهريين؟!

لم تصدّق حورية عينيها عندما رأت المارد الذي كادَ يفتك بها منذ لحظةٍ قد أشاح بوجههِ بعيداً وسارَ مبتعداً عنهما ليقفَ وحده وظهره لهما، لكنّها انتفضت فزعاً عندما رأته يحمل بيديهِ صخرةً كبيرةً من الأرضِ ويرفعها فوق رأسه، ثم يقذف بها لتسقطَ على بعدِ أمتار.

- ربّما لو كان موجوداً في أيامنا لانضمَّ لمنتخبِ ألعاب القوى وفاز بالأولمبياد ـ

لم يعد لهما إلا بعد أن هدأت غضبتهُ وعادَ وجهه للونهِ الطبيعيّ، ثم قال بصوتٍ رخيمٍ بدا فيه الهدوء وهو يغضُّ بصره عنهما: علينا أن نجدَ السيرَ حتى نجدَ عربة، فالطّريق طويلٌ للقاهرة.

سارتا خلفه، لكنّه التفت لهما مجدداً وهتف محذراً: ولا أريد أن أسمعَ صوت ولولةٍ ولا ندبٍ ولا عويل.

كتمت هالة الغضب من معاملتهِ السّيئة في صدرها، وهي تحمل له جميل ما فعله لأجلها ولأجل حورية، وسارت خلفه الاثنتان بصمتٍ دون كللٍ ولا شكوى لساعات، وكلّ العربات الكارو التي تمرّ عليهما قادمة من دمنهور ليس بها موضع قدم لشخصٍ زائد، وقد امتلأت عن آخرها بالمنكوبين من أهالي دمنهور بزوجاتهم وعيالهم وما تبقّى لهم من متاعٍ قليلٍ يحملونه على رؤوسهم.

ولم يعد لهم حلاً سوى استكمال المسير لساعات، حتى انفجرت حورية بالنَّحيب والعويل وهي تلقي بجسدها متربّعة على الأرض وأخذت تلطمُ خدّيها وتدعو على نفسها بالموت، حتى كاد أن ينفجرَ مجاهد في وجهها، لكنّه أدرك أن الكلام مع الحريم نقصان عقل.

فابتعد عنهما خطوات وأخذ ينظر للجّهتين حتى رأى عربةَ كارو قادمة من جهةِ وجه بحري، فأشارَ لها ليوقفها، وبمجردِ أن رأت حوريّة من عليها حتى أطلقت زغروتةً طويلةً عالية منغّمة وصرخت بفرح: السيد عبد الله! كم هي صغيرة الدّنيا!

فهمت هالة من كلماتِ ترجمانه أنّه علمَ بما حدث في دمنهور فعاد مسرعاً بعد أن غادرها بوقتٍ قصير، وسأل عن حورية ولم يجدها، فخرجَ يبحث عنها على الطّريق.

كان الأمر أشبه بمصادفةٍ عجيبة، لكن هالة اطمأنّت عندما حيّاها وابتسم، فما زالت تحمل له جميلٍ إنقاذها.

ركبوا جميعاً معه هو وترجمانه والعربجيّ يقود العربة، يجلس خلفه مباشرة عبد الله ومجاهد والتّرجمان، والفتاتين في الخلف، وأمر التّرجمان العربجيّ أن يتوجَّه للقاهرة ليوصلهم «للمشهد الحسيني» بجوارِ الأزهر.

كان الحوار يدور بين عبد الله ومجاهد عن طريقِ الترجمان، ومجاهد يعبّر بحماسِ الشّباب عن استيائهِ الشديد ممّا يحدث في البلدةِ وما يفعله المماليك في الخلائق، حتى قال في خضمِ غضبه: إن الأزهر لن يبقى صامتاً طويلاً أمام كلّ هذا الظّلم.

قال عبد الله: وماذا بوسعِ طلبةِ العلم وشيوخهم أن يفعلوا أمام جنود المماليك وعسكر حامية السّلطان المسلّحين خاصةً بعد أن دخلَ الإنجليز البلاد!

-بوسعهم الثّورة كما فعلوا أمام نابليون، ومن بعده كليبر.

-وقتها كان سلاح الأمراء المصريين مع الثورة، والآن ستكون ثورة شعبيّة بلا سلاح، بعد أن صارت مصالح الأمراء المماليك مع الإنجليز، وذلك لا يعني سوى الانتحار.

هتف مجاهد بغضبة الحماسة: الأمراء المصرلية ما كانوا سوى قيد في رقبةِ الناس يكبّلهم ويخذلهم عن مقاومة الفرنسيين، ومراد بك الذي قاومَ الفرنسيين في البداية، تحوّل في النّهاية إلى خائنٍ وتحالف معهم علينا لأجلِ مصلحته الشخصيّة، حتى يتركوه حاكماً على الصَّعيد باسمهم.

لم يُخرج الفرنسيين من بلادنا سوى النّاس الذين خرجوا من بيوتهم يواجهون الموت وحدهم ويقاتلون جنود نابليون وكليبر من الدّلتا للصّعيد، حتى أهل رشيد، وقفوا وحدهم أمام جنود الإنجليز دون سندٍ أو معينٍ من مماليك أو سلطان.

قال بهدوء: لكن عسكر السّلطان وكذلك الإنجليز لهم الدّور الأكبر في إجبارِ الفرنسيين على الانسحابِ من مصر.

اندفعت هالة في الحديث بعد أن ظلَّت أذنها تتردّد بينهما وتتابع الحوار بشغف: ما كان الفرنسيون ليخرجوا من تلك الأرض لولا أن بها شعباً يقاوم.

التفت مجاهد خلفه وألقاها بنظرةٍ غاضبةٍ متجهمة لها ألف معنى، فسّرها عبد الله بكلماتٍ نقلها ترجمانه: من النادرِ هنا أن تشاركَ امرأة في حديثِ الرّجال بجديةٍ وحكمة.

أخذت حورية تجذبها من ملابسها لتسكتها وهي ترتجفُ من نظرات النّمر الأسمر التي تتوعّدهما، لكن هالة لم تخفْ ولم تأبهَ لهما، بل وجّهت كلماتها لعبد الله: إنّه تاريخ تعلّمناه في المدارس، أسباب فشل الحملة الفرنسيّة على مصر، كفاح الشّعب المصريّ ونضاله ضدّ المحتل.

- الحمقاء! تظن أنّها تحادث شخصاً مثلها من القرنِ الواحد والعشرين ـ

قال بتعجب: شعب! ومدارس! هنا! تتحدّثين وكأنك قادمة من أوروبا.

تجاهلت ذلك النّمر المحدّق بها يتوعّدها بغضب، واكتفت بذلك الدّرس من التاريخ، فقد بدا لها المستقبل القريب جداً مظلماً عندما أحاط بهم كشّاف الناحية وعسكره ذوي الطرابيش الحمراء.

ووقفت فوق العربة تستعدّ للقفزِ منها وللهروب السريع، لكنها فوجئت بأن هنا من يستعدّ للقتالِ دفاعاً عنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الجارية

كنت أتابع النّقطة الحمراء التي تشير لمكانِ مركب هالة على الخريطة، حتى وصلت ميناء بولاق ليلاً، والجميع في ذهولٍ مما يحدث - أو على وجه الدقّة، مما لا يحدث - فعندما تركوا القاهرة وذهبوا لرشيد كانت القاهرة تغلي ليلاً ونهاراً، وكل سكانها تركوا بيوتهم ورابطوا على المداخلِ والأبواب متربّصين للمحتلّ القادم من جهة رشيد.

هتف حسن وهو يتقدّم بالمركبِ ببطء: المحروسة أظلمت!

تمتم شرقاوي وهو يتلفّت حوله ينظر نحو المينا: أين الناس؟! أين المشايخ؟! أين السيد عمر النقيب؟! الذي تركناه في قلب الناس وحولهم، يجمعهم ويحرّضهم على تحصين القاهرة وبناء الخنادق والمتاريس للمعركةِ القادمة إذا ما فكّر الإنجليز في التوجّه إليها!

ظلّت الأسئلة معلّقة بلا أجوبة، هناك أمرٌ جللٌ حدث للناس في القاهرة، ما يعنى أن كلّ من على المركبِ قد يكونوا في خطرٍ داهم غير معلوم مصدره ولا أسبابه.

ولأن الحرصَ واجب، فقد حرص كلّ من فيها على إحداثِ أقل قدرٍ من الضجّة، فأوقفوا الموتور وقادوه بالمجاديف، وسبقهم شرقاوي يتحسّس الطّريقَ ويراقبه يميناً ويساراً، وحمل طه الشيخ الجريح على كتفهِ وتبعته زوجته في وزرتها السّوداء واليشمك على وجهها، وهي تستندُ لذراعِ ولدها منصور، أعني عبد العزيز... وتركوا خلفهم حسن يخفي المركب في مكانٍ آمنٍ ويُنَكِرّها ويغطيها بالخيش، ثم لحقَ بالمجموعةِ إلى دارهم في المشهدِ الحسينيّ، والتي يتخذها الخمسة في جوارِ الأزهر - بمساعدة أموال عائلاتهم - سكناً لهم وأرقد طه الشيخ سلامة المصاب في فراشِ ولده عبد العزيز، وجلست إلى جوارهِ زوجته تعتني به وتطمئنّ على جروحه، وخرج شرقاوي ليحضرَ له الطّبيب من حارةِ اليهود، وبقيَ حسن وطه ومنصور في بهوِ البيت في انتظاره، وكلّما أبدى منصور قلقهُ على هالة، يطمئنه حسن بأنّها مع مجاهد، ولن يتركها حتّى يردّها لأهلها سالمة.

يبدو أنَّ ثقتهم بهذا «المجاهد» فاقت كلّ شيء، فهم يتحدَّثون باطمئنانٍ عجيبٍ أن الفتاةَ ستعود حتماً سالمة لأبيها وأمّها وأخيها طالما هي في حمايةِ مجاهد، وعليهم أن ينتظروهما هنا حتى يعودَ بها كما أخبره شرقاوي.

وصل الطَّبيب مع شرقاوي وتولّى علاج جراحِ الشيخ سلامة وطمأنهم أنه سيتعافى.

بقيت المرأة إلى جوار جسد زوجها المسجى على الفراشِ تذرفُ دمعاتها بصمتٍ نبيل، وتحت إلحاحِ حسن وشرقاوي اضطرَّ منصور أن يدخلَ الغرفة ليطمئنّ على أمّه - كما يقولون ـ

وبمجرد أن رأته المرأة ألقت بنفسها على صدرهِ وبكت وانتحبت لتفرغَ كلّ ألمها على صدرِ ولدها وتطمئن بقربه

- ابتعد عنها أيّها الخبيث، إنها أمّي أنا ـ

تراجع مبتعداً برفقٍ محاولاً قدر جهدهِ ألا يثيرَ ريبتها وهي تناديه ولدي عبد العزيز وهو يشعر بالحرجِ الشديدِ منها، ولكن سرعان ما تذكّر أن المرأة الكبيرة ما هي إلا حماته وزوجة عمّه، فزالَ عنه الحرج واسترخت أعصابه وتركها تأخذ بيدهِ لفراشِ والده، أعني والدي.

حسناً لا تهتم أيّها القارئ فاللّعبة انقلبت وصرنا داخل الفانتازيا، وأعتقد أن الجميع فقد عقله بالفعل.

جلس بجوارِ رأسِ أبيه وأخذ يتأمّل وجهه بتعجب، أهذا هو وجه عمّي حقًا؟!

تمتم لها: كيف حاله الآن؟

قالت باكية: الطَّبيب يقول أنّه سينجو لو بقيَ حياً حتى الصَّباح، لقد فقد الكثير من الدّماء.

سألها: كيف أصيب؟

أخذت أمّه تحكي له وهي تنتحب: كنت أعلم أنّهم لن يتركونا، رجوته كثيراً أن نغادرَ رشيد، لكنَّه أبى، انضمَّ لمجموعةِ الشباب الذين يخرجون كلّ ليلةٍ لمناوشةِ الإنجليز واصطياد جنودهم فرادى في الحارات، وذبحهم بالسكاكين، وكلّما سألته بماذا سيجدي ما تفعلونه، سيأتون بجنودٍ أكثر يقول بيقين: سنلقي الرّعب في قلوبهم، لن يناموا فيها ليلة واحدة مطمئنّين، وسيخرجون كما خرج قبلهم الفرنسيون.

كان يتظاهر بالهدوءِ وهو يستمع لها، ورأسه يعجّ بجحيم مستعر، والده في اللّعبة عكس والده الحقيقيّ في كلّ شيء، هنا مناضلٌ يقاومُ الأعداء المحتلّين لأرضهِ وبلاده، ويدفع حياته ثمناً لذلك برضا، ووالده الحقيقي لو وجدَ من يلقي لهم بأولادهِ مقابل حفنةٍ من المالِ ما تردّد لحظة.

سمعَ المرأة تكملُ القصّة: تلك اللَّيلة انطلق الإنجليز يبحثون عن الشبابِ الذين يكوّنون العصابات، وأخذوا يفتّشون البيوت والدكاكين والحارات، وترك الشباب مجموعة من الجندِ يدخلون السرجة، وغلقوا الباب من دونهم وأشعلوا النارَ في الزيتِ فلم يَنجُ منهم أحد، فخرج عسكر الإنجليز على الناس كالكلابِ المسعورة وأمسكوا كثيراً من أهالي رشيد، وطاردوا الشّباب في الحارات، وكان الشَّيخ سلامة من بينهم فأصابوه في ساقهِ وعندما سقط انهالوا عليه ضرباً، لكن الشباب تجمّعوا وهاجموا الجندَ بضراوةٍ حتى خلّصوه من بين أيديهم وحملوا جسده وهربوا به إلى جامع أبو منضور، وحمل أحدهم إليّ الخبر، فخرجت أجري إليه كالمجنونة ولحقت به في الجامع، وكان الإنجليز قد انتشروا في جميعِ أنحاء البلدة حتى أحكموا قبضتهم عليها، وأدركت أنّنا هالكان لا محالة لو أمسكوا بنَا، فخرجت بمحفتهِ إلى النّهر لعلّ الله يجعل لنا مخرجاً كما جعل لموسى وأمّه، فاستجاب ربّي لدعائي ودموعي، ورأيت المركب في النّهر.

كان يتأمّل وجه الرجل المسجى على الفراشِ أمامه، ترى، ماذا لو كان بالفعلِ أبيه في الحياةِ الحقيقيّة وقامَ برعايته وتربيته!

هالة لم تأخذ شيئاً من ملامحِ أمّها الجميلة، لكنّها أشبه بأبيها على الأقلّ ظاهرياً، ترى هل تحمل أيضاً جرأته وطباعه؟!

هذا ما يبدو له في الوقتِ القليل الذي عرفها فيه، جرأتها، إصرارها، تمسّكها بمركبها، تضحيّتها بنفسها دون تردٍّد لإنقاذ من معها، هل كان والدها في الحقيقة يحمل بداخله تلك الصفات!

نعم يا زوج أختي، كان أحمقاً مثلها تماماً، قضينا عمرنا في فقرٍ مدقعٍ لأجلِ الحلال والحرام ومساعدة المحتاجين وما شابه، ثم ذهب ليأتي لنا بالمالِ من بلادِ الإفرنج، لكن البحر يحبّه كثيراً هو وأمثاله فأبى أن يتركه للبابسةِ واحتفظَ به خالصاً لنفسه.

هل بهرتك شخصيته وأفعاله ورأيت فيه أباً صالحاً تتمناه؟! لعلّك نسيت أن أباً مثله كما أنجبَ فتاةً اسمها هالة، أنجب أيضاً الزفت الذي سرقت منه دور البطولة.

لكلّ عملةٍ وجهان، لا تنسى ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان من النادرِ مشاهدة رجلٍ حقيقيّ - لا دوبلير سينما - يثبُ برشاقةِ نمرٍ من فوق عربةٍ إلى ظهرِ حصان يركبه دالاتي يحمل سلاحاً ومتمرّس على القتال.

كان مجاهد يراقب كلّ الخيل التي انتشرت حول العربة، لكنه وثبَ فوق ذاك الذي ترك الرّجال وطارد الحريم، لقد أسقطه بالفعلِ من فوق الحصان وأخذ سلاحه ليصدّ به من يهاجمونه.

صرخت حورية بافتتانٍ وهي تراقب ذلك الوحش الأسمر الذي يطيح ضرباً في رقابِ العسكر: يا حلو يا زين يا صعيديّ.

ولم تستطع هالة أن تبقي ساكنةً وقد رأت في أعينِ النّسور التي تهاجمهم أنّها هي المقصودة، ففرَّت هاربةً وهم في أثرها، لكن عبد الله لم يقف ساكناً بل حالَ بينها وبينهم وأعاقَ مطاردتهم لها، فاستطاعت الإفلات وتبعتها حورية وهي تصرخ بها: الدراوية.

لم تفهم هالة ما تقوله، فالتفتت لها لتجدها تجري نحو حقلٍ للذرةِ استطالت عيدانه الخضراء وصار ملجأً لكلّ من يحبّ الاختباء ومتاهة تدوخ الفئران - أعني البشر - لم تكن هالة لتنجوَ منها إلّا أن حورية كانت تقود خطواتها بخبرتها الطّويلة بالاختباءِ بين عيدانِ الذّرة وهي تحاول الهروب باستمرارٍ من أهلها.

وقد تنجح في الاختباءِ من البشر، لكن أنّى لها أن تنجحَ في الاختباءِ من النار!

أحرق الدلاتية الحقل للإمساك بامرأتين، حسناً عليَّ الاعتراف بأن شعب رشيد وزعيم الثّورة الشيخ حسن كريت كانوا محقّين برفضِ قدوم عسكر الدلاتية إلى

رشيد وهم في معركتهم مع المحتل، فقد أدركوا أنهم بهائم بلا عقول، ومرتزقة لا يهمهم سوى المال وتنفيذ الأوامر، والإمساك بالفتاتين ولو أحرقوا العالم بالنوويّ.

وبالفعل كان لهم ما أرادوا، فقد هربت الفتاتان من النيرانِ فانكشف مكانهما للعسكرِ وانطلقوا خلفهما وأحاطوا بهما وسحبوهما مقيَّدتين على حصان، والتفتت هالة خلفها تنظر نحو عبد الله ومجاهد وهما يقاومان العسكر مقاومة الأبطال البواسل، وبكت كما لم تبكِ أبداً عندما سقط مجاهد أرضاً أمام عينيها والدِّماء تنزف من رأسهِ بغزارة، قلبها يتقطَّع حسرة، فالرجل الوحيد الذي دافعَ عنها طوال حياتها يقتل الآن أمام عينيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكف حورية عن لطمِ خدّيها بكفّيها حتي وهي مقيَّدة بالحبالِ من رسغيها حتى صارتا كالطماطم وهي تَولول وتندب حظّها العسر، فقد ضاعَ الرجلُ الذي كان يُغدق عليها من أموالهِ في شربةِ ماء، بل ضاعت هي من بعد سقوطها في يدِ عسكر الدلاتية.

ضربتها هالة في كتفها وهي تجلس خلفها على الحصان: كفّي عن الولولة، رأسي ستنفجر.

هتفت باكية: ليتها تنفجر لنرتاح، فالموت أهون مما سيفعله بنا الطراطير.

-مَن الطراطير؟!

-إنّهم الدلاتية.

-ومَن الدلاتية؟!

-إنّهم باشبوزق.

-ماذا؟!

-العسكر الأجانب.

-حسناً فهمت.

-لم تفهمي شيئاً بعد، سيـ...

لم تكمل حورية فقد فهمت هالة فعلياً من هم الدلاة، أو الدلاتية أو أصحاب الطراطير، بمجردِ أن توقَّفت قافلة العسكر وأنزلوهما، فقد تجلَّى لها الفرق واضحاً بين المماليك وفرقة الدلاتية المرتزقة الذين يستعين بهم الباشاوات في أقذرِ الأعمال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نجا عبد الله من بين أيديهم بأعجوبة، فعندما عرفوا أنّه أجنبيّ تركوه ورحلوا بصيدهم، واهتمّ هو بذلك المسفوك دمه، وضمَّد جرح رأسهِ وجراح جسدهِ ثم حمله مع ترجمانه على العربةِ وقادها بنفسهِ بعد أن اختفى العربجيّ عندما شاهد العسكر مقبلون ولم يظهر أبداً حتى بعد رحيلهم، وعندما أفاقَ مجاهد من غيبوبتهِ سأل عن

الفتاتين وهو شبهَ متيقنٍ من الإجابة حتى سمعها من عبد الله وترجمانه، واشتعلت النَّار في عروقه وتحاملَ على جسدهِ ليجلس وعبد الله يسأله عن حالهِ وحال جرح رأسه، فطمأنّه: رأسي كالحجرِ اليابس، لا تكسر من ضربةٍ واحدة.

قادَ عبد الله العربة إلى القاهرة ولم يتبادل مع مجاهد كلمة واحدة، فقد كان منظره مخيفاً بذلك الغضب المكظوم المرتسم في ملامحه وملابسه المغرقة بالدّماء، كان أشبه بمارد مسلسل في مغارة من قصصِ ألف ليلة.

وصلت العربة للقاهرة وأراد عبد الله أن يذهبَ لحال سبيله ليكملَ رحلته هو وترجمانه، لكن مجاهد رفض أن يتركه ودعاه إلى الدّار التي اتّخذها هو وأصدقاؤه طلبة الأزهر في المشهد الحسيني.

فزع شرقاوي من منظرِ مجاهد وهو يدخلُ عليهم الدار برأسٍ مربوط بمنديل وملابس شربت الدّماء وآثار المعركة ما زالت على وجهه.

(لقد أسرها الدلاتية)

كانت تلك الكلمة كفيلةً بهدم آخر أملٍ لمنصور بأن ينقذ هالة، فقد بقي شارداً لا ينطق وشرقاوي يتحدّث إليه فلاَ يسمع، كان عقله يستعيد كلّ المعلومات التاريخيّة التي يعرفها عن فرقِ الدلاة الذين يسمّونهم الناس (الدلاتية) ووحشيتهم مع أهلِ البلاد التي يبتلونَ بهم فلا يسلمُ من اعتداءاتهم لا امرأة ولا طفل ولا شيخ ولا حتى الدّواب والحيوانات.

أسموهم الدلاة من (دلي) وهي صفةٌ تركيةٌ بمعنى مجنون أو متهوّر، وهم فرقٌ غير نظاميَّة من الفرسان في الجيشِ العثمانيّ، أطلقوا عليهم صفة الجنون لاشتهارهم بالشَّجاعة والإقدام في الحروب، وتمّ تجنيدهم من الأتراكِ وأخلاط بلقانيّة، وبوسنيّة، وصربيّة، وكان النَّاس يدركون خطرهم، فأعلنَ أهالي رشيد رفضهم بأن يمدّهم الباشا بعسكرٍ لحماية الثغر؛ لأنّهم إن كثروا يأتي منهم الفساد والإفساد على حدِ قولهم.

- لو أسريت لك بعيداً عن أذنيّ هالة وشبشبها بأنني لا أعتبر الدلاة مجرمين، فهل ستعتبرني خائن! ـ

في الحقيقة لو كنت مكانهم لفعلت مثلهم، إنّهم مرتزقة اتّخذوا لهم مهنة حماية البلدة التي يرسلهم إليها السّلطان ويقاتلون ويقتلون لردِّ أعداء السّلطان عنها، ثم ينتظرون أجرتهم، فتتأخر رواتبهم، وقد لا يرسل السّلطان لهم أيّ شيء، فينتقمون بنهبِ وسلبِ المدن المكلّفين بالدفاعِ عنها.

هل صدمتك آرائي عزيزي القارئ؟ لعلَّك تتَّهمني بالساديّة والعداءِ للمجتمعِ الذي أعيش فيه، لكن عليك أن تعترفَ بأنّني على صواب، فالخطأ ليس على الدلاةِ المرتزقة، بل على أكبرِ ولايةٍ في السّلطنة وشبابها ورجالها يسدّون عين الشَّمس، ورغم ذلك لا يستطيعون الدِّفاع عن أنفسهم، ويخضعون لحمايةِ عسكرٍ تمَّ جمعهم من دولٍ مختلفةٍ من الخرابات ومقالب القمامة ليقاتلوا في بلادٍ لا يعرفونَ عنها شيئاً مقابلِ المال.

دعك من فلسفتي وتعليقاتي الآن، ولنعد لمنصور الذي لم يعدْ يتحمل المزيد من الصَّدمات.

كانت الكارثة الأولى التي دهمته هي السُّقوط من العالم الحقيقيّ إلى عالم لا يفهم أبعاده وقوانينه، ثمّ الثانية باستيلاءِ الإنجليز على كلّ رشيد وإغلاق بوابَّة العودة للزمن الحاضر - احم احم - أعني العودة لعالمه الحقيقيّ، وها هو ينالُ الثّالثة في وقتٍ قليل، لقد فقد هالة بأشدِّ الطُّرق قسوة، ربّما لو غرقت في البحرِ أو احترقت لكان الأمرُ هيناً.

علا صوت شرقاوي: ولمَ تطارد فرقة من الدلاتية فتاةً لا حول لها ولا قوة؟

قال عبد الله: الأمرُ واضح، الإنجليز يريدون المركب العجيب، وخبرها وصل بالفعل لكلّ المماليك في كافةِ الأراضي المصريّة وربَّما يظنونها ساحرة أو منجمة، بل وصاروا يتقاتلون للإمساكِ بها، وخاصةً بعد ما قالته في رشيد أمام الجنرال الإنجليزي، والكتخدا (نائب الباشا) أرسل خلفها فرقةً من الدلاتية يأتونه بها، فقد صارت شخصيّة هامّة للجميع.

قال حسن: ربَّما يريدُ أن يسمعَ منها ما ستقول عن ذبحِ المماليك.

قال شرقاوي مهوناً عليهم الكارثة: وهل سيصدّق ذلك الهراء؟!

قال مجاهد: الباشا ولَّى ولم يعقب، ننتظر فرمان السّلطان هل سيرجعه أو سيعزله؟

قال حسن ساخراً: غادر بإرادته ولم ينتظر أن يطويَ «أبو طبق» السجاد من تحته، ويقول له كلمته المأثورة (انزل يا باشا) صان ماءَ وجهه ولم يخرج بزفةٍ شعبيّة كمن سبقوه.

قال شرقاوي: إذا ما الذي يريده الكتخدا منها، وهل سيصدقها؟!

قال عبد الله: لو صدّق لكان أهون الضَّررين، فعلى الأقلّ سيمهلها ليستمعَ لها، ولو كذّبها فسيعتبرها فتنة وإيقاع بين الأمراء، وإشعال نار جديدة في بلدةٍ لا يخمد لها حريق.

تطلّع إليه الجميع، لا يجدون رداً على كلماته، فهو محقٌّ.

وجه عبد الله السؤال الصَّعب لمنصور: ماذا سنفعل الآن؟

ما كان باستطاعته أن يردّ، لكن صوتاً آخراً ملأ المكان

(سنعيدها).

اتَّجهت الأنظار كلّها لمجاهد تتطلَّع إليه ما بين أملٍ وتعجبٍ وإشفاق، فمنصور يجدُ بكلامه القويّ وثقته بنفسه طوقَ نجاةٍ ولو كان قشَّة يتعلَّق بها، وعبد الله يتعجّب من إصرارهِ الذي غلب عزيمة أخيها، وأصدقاؤه يشفقون عليه من اندفاعهِ واستمرارهِ في معركةٍ خاسرةٍ كادت تودي بحياته بالفعل.

لكنّه نهض من مكانهِ وقال بكلماتهِ السّريعة: لن نضيَّع الوقت في الكلام، الفتاة سيأخذونها الدلاتية إمّا إلى القلعةِ أو إلى قصرِ الباشا في الأزبكيّة وعلينا أن نستردّها.

وقف حسن أمامه: لن تتحرَّك من هنا قبل أن نفهمَ إلى أين ستذهب؟

قال وهو يزيحهُ عن طريقهِ برفق: إلى بيتِ الشّيخ الشرقاوي.

كان اسمه كفيلاً بإسكاتهم، والاطمئنان إلى أنه لن يتهورَ أو يتورَّط بحماقةٍ جديدة، بل سيدعُ الكبار يتحدّثون، فالشيخ الشرقاوي هو شيخ الجامع الأزهر وأباهم الروحيّ كطلبةِ علمٍ فيه.

فرافقه الجميع ومعهم عبد الله وترجمانه، وكان منصور مضطراً للهرولةِ ليلاحق خطوات ذلك الرهوان الذي يرمح في الحاراتِ ليصلَ بسرعةٍ إلى الأزبكيّة، فمجاهد معتاد على تلك المشية السّريعة التي تجعل جسدهُ الأقرب للنَّحافة يميلُ يميناً ويساراً في سيره، لكن منصور سبقَ حسن وشرقاوي، وطه خلفهم يتّبعهم ليحميهم، وركضَ ليقتربَ من مجاهد ويسأله السؤال الذي يلحّ عليه: الشّيخ الشرقاويّ هو شيخُ الجامع الأزهر أليس كذلك؟!

قال دون أن يبطئ من سرعتهِ وكأن ما يسأل عنه أمر لا ريب فيه: ربّما عاد لكَ عقلكَ وتذكّرت أخيراً.

لكنّه سأله مجدداً باهتمام: والسيد عمر النّقيب، هل ما زال نقيبا للأشراف؟

زفر بغيظٍ لكنه أجاب حيرة صديقه المريض بفقدانِ الذَّاكرة - كما يظن -: لا شيء يبقى على حاله، فنحن في أيامِ نحس، لا أحد يعلم عنه شيء ولا إلى أين ذهب.

عادت نفسه تحدّثه ويغوص في معلوماتهِ التاريخيّة القديمة عن قائدٍ التفَّ حوله الناس ثم خذلوه، وزعيم ملهم باعه رفاقه، ترى أين هو الآن وما هو مصيره في هذا العالم المقلوب؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تحت تأثير الصَّدمة وهي تتلفَّت حولها بعينين جاحظتين كتمثالٍ أخرسٍ بوجهٍ مذعور، فقد استولت الصَّدمة على كلّ كيانها وزادَ من شعورها بالرّعب تلك التي تجاورها ولم تكفّ لحظةً عن الولولةِ ولطمِ الخدّين والصّراخ.

وكلّما فعلت كلّما زادَ من ضحكِ الجنود وشراستهم وهم يلتفّون حولها، وتكاد هالة تجزم أن صراخها ولطمها في عيون تلك الوحوش أشد إثارة من رقصها.

كانت الشمس قد صارت في منتصفِ السَّماء بعد مسيرٍ طويلٍ أصابهم بالعطشِ والجوع، لكن هذا لم يسبب لهم أيّ مشكلة، فهنا فلاحين لطَّفاء ظرفاء بيوتهم الطينيّة عامرة بكافةِ أنواعِ الطّعامِ والحبوبِ والطُّيور والحيوانات الدَّاجنة.

لكن الدلاة لم يفعلوا كما فعل المماليك بإرسالِ من يأتي لهم بالفلاحين وطعامهم وزادهم وزوّادهم، بل هبطوا على القريةِ كعصابةٍ من اللُّصوص ففزعوهم واقتحموا

عليهم البيوت وأخرجوهم منها واحتلوا مكانهم فيها، ومن يقاومُ أو يعترض يقطع رأسه على الفور.

وكثير من بيوت القرية هربَ من فيها نجاةً بحياتهم ونسائهم، مخلفين كلّ شيء يمتلكونه - وما أقلّه - خلفهم ومن لا تسعفه قدماه للهربِ يقبض عليهم العسكر ويجبروهم على خدمتهم ومدّهم بالطَّعام وكلّ ما يملكون، حتى حرمات النِّساء لم تسلم منهم.

كان ما يشغل عقل هالة في تلك اللَّحظة هو لماذا لم ينكّلوا بها هي وحورية؟! لم تكن تستطيع أن تفهمَ لغاتهم المختلفة وتعجَّبت كيف تجمَّع كلّ هؤلاء الحُثالة في كتيبةٍ واحدةٍ تأتمرُ بأمرِ قائد وليس بينهم لغة واحدة مشتركة!

ساقهما الجنود لأحدِ بيوت الفلاحين وحبسوهما فيه، كان التبرير الوحيد المنطقيّ لعدم إيذائها هي وحورية هو أن الأوامر تقتضي إيصال الطَّرد سليماً إلى الطالب، ولكن من هو الطالب؟! ترى هل هم مماليك الصَّعيد الذين أخذوها من الإنجليز؟ أم الآخرين الذين هاجموهم وقتلوهم؟ ولكن لماذا هي مطاردة من الأساس؟ ما الذي يريدونه منها؟!

عبد الله يقول إنهم يظنّوها عرَّافة، هل للمنجّمين كلّ هذه السُّلطة على عقولِ هؤلاء الناس؟! إن ما يفعله هؤلاء الدلاة الآن مع الفلاحين يدلّ على أنّهم وحوش بلا عقول لا يهمّهم في الحياةِ سوى الاستيلاء على ما ليس لهم، ورغم هذا لم يتعرَّضوا لها بسوء، بل لا يفهمون ماذا تقول ولا يهمّهم إن كانت عرَّافة أم لا.

إذاً مَن الذي أمرهم بالإمساكِ بها؟!

أخيراً وصلوا القاهرة، وأدركت هالة أنَّهم بالفعل مأمورون بالحفاظِ على توصيلها سليمةً إلى صاحبِ الأمر، وكانت الوجهة هي قصرِ الباشا في الأزبكيَّة.

مما جعل حورية تشهق بانبهارٍ وتهتف: بايضة لك في القفص يا حورية يا بنت شفيقة، دخلت بقدميكِ قصور الأزبكيّة.

لم تنطق هالة فقد كان الرُّعب يشلُّ لسانها وقلبها منقبضٌ بشدَّةٍ مما هي مقبلة عليه، فهناك كارثة تنتظرها عند بركةِ الأزبكيَّة.

لكن في لحظةٍ انقلبت الأمور راساً على عقب، ووجدت نفسها في قلبِ مقتلة على أبوابِ القاهرة، فقد قطع عليهم الطَّريق مجموعةٌ من جندِ المماليك المسلَّحين، فتحفَّز الدلاتية واتَّخذوا تشكيل القتال ورفعوا الأسلحة، وأدركت هالة أنّها هالكة، فأخذت تردّد الشهادتين بلا وعي، أمَّا حورية فقد وصل صراخها وعويلها لأبعدِ مدى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصل الشباب ومعهم عبد الله إلى قصرِ الشيخ الشرقاوي في منطقةِ بركة الأزبكيَّة، وهي منطقةُ القصور وسكن عليَّة القوم وكلّ من يصل إلى الحُكم، وقَبِل الشيخ الشرقاوي أن يجتمع بهم ويسمع منهم.

تولى صديقه شرقاوي الحديث وشرح الأمر للشيخ، بينما منصور صامتٌ شاردٌ ينظر لتلك العمامة العجيبة المنتفخة، تماماً كما وصفوها في كتبِ التاريخ، الشيخ الشرقاوي تلك الشخصيّة العجيبة التي قرأ عنها كثيراً في التاريخِ حتى إنه لم يسمع نصف حديث شرقاوي مع الشيخ.

كان الشيخ يجلسُ على أريكةٍ وثيرةٍ فاخرة، وحول رأسه عمامةٌ كبيرةٌ أنيقة أكبر عمامةٍ رآها في حياته، تماماً كما وصفه الجبرتي بأكثرِ ما يميّزه، وهو عمامته الضَّخمة التي زادَ في حجمها بعد أن فتحت عليه الدُّنيا، كانَ يرتدي الغالي من الثِّياب ويسكن قصراً فاخراً بين قصور الأمراء وطبقة الحكَّام في أجملِ وأغلى منطقة بالقاهرة حول بركة الأزبكيَّة.

أخذ منصور يسترجع في رأسهِ معلوماتهِ التاريخيّة عن الرجل، والتي أهَّلته بحقٍّ ليكونَ رجل كلّ العصور وشيخ كلّ الحكَّام، فهو يجيد بمهارةٍ توفيق أوضاعه حسب شخصيَّة كل حاكم وعلاقته حسنة بالجميع، الحكام من جهة، وطبقات الشَّعب في ذاتِ الوقت.

اختاره الفرنسيون لرئاسةِ الدّيوان الذي شكَّله نابليون بالإضافةِ إلى تولّيه مشيخة الأزهر حتى أن الناس لقَّبوه بذي الرياستين.

كان شخصيةً عجيبةً بحقّ، فهو مع المقاومة والنِّضال الشعبيّ وطلبة الأزهر، حتى أن نابليون وضعه تحت الإقامة الجبريّة، كما شارك في الثَّورة الشعبيَّة ضدَّ خورشيد باشا، وكذلك شارك في اختيارِ محمد علي كحاكمٍ للشَّعب بمبايعةٍ شعبيّة.

شخصيُّة محيِّرة لكلّ المؤرخين، هل يحتسبونه على الشَّعب أم على الحكَّام؟!

استفاق من شرودهِ على صوتِ مجاهد يحتدّ وشرقاوي يحاول أن يحجمَ غضبه ويسكته، ثم عادَ يتحدَّث للشيخ في محاولةٍ أخيرةٍ لجعلهِ يتوسّط لدى الكتخدا في إرجاعِ الصبيَّة لأهلها.

لكنّه أخذ يسوق الحجج والمعاذير بأنّه مشغول، أو لا يستطيع، أو لا يتدخلَ إلّا في مشكلاتٍ كبيرة، أو أن سلطتهُ فقط تخوّل له التدخّل لأجلِ طلبةِ الأزهر لا لغيرهم.

وأدركَ منصور في النِّهاية أنّهم طرقوا الباب الخاطئ، وانتفض مجاهد واقفاً، وخشيَ شرقاوي أن يقوم بتصرُّف أحمقٍ أو يهين الشَّيخ، لكنه ترك المجلس وانصرف مسرعاً وتبعه الجمع بعد أن اعتذرَ شرقاوي للشيخ.

لم يكن هناك من يستطيع إلجام غضب مجاهد، فأكثر ما كان يحرق روحه أنّه لم يستطع حمايةَ الفتاةِ ولا إرجاع الأمانة سالمةً لأخيها، وأدرك شرقاوي ذلك فأمسكَ بذراعِ منصور ونصحه ألّا يقترب من مجاهد وهو على تلك الحالة من الغضب، لكن مجاهد تجمَّد في مكانهِ وقد سمع صوتاً يناديه، فالتفت نحوها، كانت مُساقة بين مجموعةٍ من المماليك إلى أحدِ قصورِ الأزبكيّة.

لم يكن مجاهد وحده هو من انتبه لصوتها، بل التفت منصور ينظر نحوها وفي عقله ألف سؤال! فهالة لم تناديه هو كما اعتادت، بل نادت مجاهد!

كانَ السؤال الذي يحرقه هو لماذا تنادي مجاهد ولا تناديه، وما الذي حدث بينهما في الطَّريق؟

وأتتهُ الإجابة بأسرعِ ممّا كان يتوقَّع، فقد ترك مجاهد رفاقه وانطلق يجري تجاه بوابة قصر سليم بكَ التي ابتلعت موكب العسكر المماليك وفي القلبِ منه هالة وحورية، فما زالت كلماتها الحارقة ترنّ في أذنيه (أهذه شهامة الصَّعايدة؟! أهذه أخلاق الأزهريين؟!).

- الأحمق يؤمن بكلماتٍ رنّانة كتلك، وينخدع بفتاةٍ كهالة تستثير حميَّته لينقذها ـ

كان السؤال الذي يدور في أذهانِ الجميع في تلك اللَّحظة، كيف انتقلت هالة من أيدي الدلاتية إلى أيدي فرقةٍ من المماليك المرادية (أتباع مراد بك)! ومن الذي يديرُ كلّ تلك الأحداث العجيبة؟! ومن هو الآمرُ ومن المأمور؟! ولم صارَ كل ذوي الشأنِ يجرون خلف فتاةٍ بسيطةٍ من عائلةٍ من الرشايدة؟!

وعلى بوابةِ القاهرة انتشرَ الخبر، فالمماليك عرفوا بقدوم العرَّافة مع فرقةِ الدلاتية، فقطعوا عليهم الطَّريق وأجبروهم على تسليمها لهم بعد أنَ حاصروهم بعددٍ من جندِ المماليك المسلّحين ضعف عددهم، فانسحبَ عسكر الدلاتية نجاة بحياتهم.

كان على رفاقه بذل كلّ جهدهم لمحاولةِ منعه، فالحرس المدججين بالسِّلاح على البوابة لن يستقبلوه بالورود، لكن مجاهد ما كان ليترك استرداد أمانة ضيّعها ولو كانت حياته الثَّمن، فلم يستجب لنداءِ رفاقه ولا أياديهم التي تكاتلت عليه لتمنعه من اقتحامِ البوابة، بل دفعهم عنه وغيّر مسار طريقه إلى وجهةٍ أخرى.

قد يكون مجاهد متهوراً لكنه ليس أحمق، فقد قال لهم الحلّ الوحيد المنطقيّ لإنقاذِ هالة من أيادي المماليك (فلنذهب للسيدة نفيسة المرادية).

اطمأن الجميع إلى مدى عقلانيَّة ذلك الحلّ وشجعه عبد الله الذي كان يدرك جيداً بحكمِ حياته في مصر لسنوات مدى أثر السيدة نفيسة وكيف أن لها كلمة مسموعة علىَ جميع المماليك.

كانَ عليهم الانتظار على البوابةِ لمدةٍ طويلةٍ حتى يستأذن الحرس من سيدةٍ كانت يوماً سيدة مصر الأولى، ولها سلطة عظمى وكلمة معتبرة عند جميع المماليك.

وأخيراً تمَّ السماحُ لمجموعةٍ من عامةِ الشَّعب بلقائِها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلك المدّة التي غابت فيها هالة داخل قصر سليم بك ومعها حورية، وقد تركت عقلها بالخارج مع هؤلاء الذين أتوا مسرعين لإنقاذها، كانت خائفة حتى الموت ألّا ينجحوا، لكن في ركنٍ ما من قلبها كانت ثمّة سعادة خفيَّة بأن هناك من يبالي بها وبسلامتها، هناك من يبحثُ عنها ويقطع الطّرق ويجوب المخاطر لأجلِ أن يجدها.

لقد رأته بالفعل، لكن شيئاً ما منعها من أن تناديه، ربّما لأن الموقف أكبر منه، أو لأنّها تعلم جيداً أن مجاهد هو الوحيد القادر على التَّصرف بمقاييسِ هذا العالم

الغريب، وهو الذي بيده مفتاح قيدها هي ومنصور الحبيس مثلها في القمقم الزجاجي.

لم تستطع هالة أن تستغرقَ في أفكارها لحظة، أو حتى تفكّر إن كان ما فعلته خطأ أو صواب، فقد كانت حورية تشهقُ كل لحظةٍ شهقةً تخرجها من شرودها وتفزعها وهي منبهرةٌ بذلك القصر الفخم، ترى هل هي سعيدةٌ بتحقّق حلمها بسرعة؟!

بأن تكون جاريةً في قصرِ أحدِ المماليك؟!

أهذه هي الحياةُ التي كانت تتمنّاها فتاةٌ من فتيات ذلك العصر؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف الشباب أمام الخوند نفيسة المرادية التي تقيم في قصرٍ فخم في بركة الأزبكيَّة، ومنصور تراوده نفسه ويدفعه عقله لأن يسألها هل هي نفيسة المرادية زوجة مراد بك الذي كان حاكماً للصَّعيد وقت الحملة الفرنسية!

كان عليه أن يتأكدَ من ذلك فهمسَ بما يحيره في أذنِ شرقاوي الذي أجابه بما توقعه بدقّة.

نفيسة المرادية، أو كما يطلق عليها العامّة «نفيسة البيضا»، هي امرأةٌ دخلت مصر كجاريةٍ شركسية، ثم تزوَّجت من علي بك الكبير الذي صار شيخاً للبلدِ وكاد أن يستقلّ بحكمِ مصر بعد أن خاضَ حرباً ضاريةً ضدّ قوَّات الدَّولة العثمانيَّة في الشام، لولا أن قُتلَ بخيانةِ تلميذهِ ومملوكه محمد بك أبو الدهب.

وبعدها تزوَّجت نفيسة من مراد بك حتى الاحتلال الفرنسي، بل إن نابليون أظهر لها الاحترام وعفا عن المماليكِ الذين توسَّطت لديه لعدم قتلهم، عجباً لتلك المرأة، لا تتزوَّج سوى الحاكم الفعليّ، ولولا أن محمد علي كانَ يكره المماليك لكانت بالفعل سيدة مصر الأولى في العالم الحقيقي، لكنّه في الواقع أهانها وأذلَّها وسلبها أموالها وتركها تموتُ فقيرة في قصرِها بالأزبكيّة.

تاريخٌ عجيبٌ حقاً! أم أن تلك البلدة هي العجيبة! فكلّ من أتاها حقيراً حافياً عبداً مملوكاً لغيره، نالَ منها حظاً إمّا بمالٍ وإمّا بسُلطة، ليبقى أهل البلد الأحرار حفاةً عراةً يسكنون العشش الحقيرة ويتجرَّعون أسوأ أنواع الفقر، ويرزحون تحت عبوديَّة من أتوا إليها رقيق من بلادٍ أخرى.

استقبلتهم نفيسة المرادية فأحسنت استقبالهم، وكانت حقاً كما وصفتها الكُتب التاريخيَّة ذات وجهٍ جميلٍ بياضه شاهق بحمرةٍ رائقة، ازداد بهاءً مع تقدّم عمرها وهي تتنعمُ في العزِّ والجاهِ والسُّلطة والمال.

بل كانت مضيفة محسنة وأكرمتهم واستمعت لهم وكان المتحدّث فيهم هو شرقاوي ذو اللّسان اللّبق الذي لا يكفّ عن الشرح والاستفاضة ويُجيد فنّ المدح ورصّ الكلام بأناقة، فشرحَ لها أن الفتاةَ التي دخلت قصر سليم بك الحين ليست جارية، بل ابنة رجلٍ من أعيانِ رشيد وخطفها الإنجليز هي وأخيها، ثم أرسلوها إلى المماليك، ثم قبضَ عليها الدلاتية وفي القاهرة كادَ المماليك أن يقاتلوهم عليها.

لم ينتبه أحد منهم للعضلةِ التي تحرَّكت تحت جفنها السفليّ من شدّة الارتياب والتّعجب مِن قصَّة تلك الفتاة التي يسعى الجميع لخطفها وماذا فعلت ليجريَ كلّ هؤلاء خلفها؟!

برغم قلقها وارتيابها في الأمر، لكنّها رفعت رأسها ونظرت لهم نظرةً مطمئنة وقالت: كونوا مطمئنّين، ستعود الفتاة لأهلها، بعد أن أتحدّث إليها بنفسي، لا أعلم لمَ يأخذ سليم بك فتاةً من رشيد إلى قصره، لكنني سأرسلُ على الفورِ من يحضرها إلى هنا لأستمع لها.

غارت الدِّماء من وجهِ منصور وصمت صمتَ الميت، كان أكثر ما يخشاه هو لسان الحرباءَة هالة الذي سيلتفّ حول عنقيهما ويسلّمهما للمشنقةِ تسليم أهالي، سيقف مبتلعاً لسانه والمرأة تسألها عمّا فعلوه بها ولماذا قبضوا عليها، لتتحوَّل في لحظةٍ إلى جيفارا وتهتف كالبلهاءِ بالحريةِ لرشيد ويسقط المماليك ويحيا محمد علي والموت لمن يحتل مصر وقد تُسَمِّع لها كتاب كفاح شعب مصر، وهنا قد تغضب المرأة لانحيازها لطائفةِ المماليك، فتأمر بإعدامهما في الحمّام ضرباً بالقباقيب على طريقةِ شجرةِ الدرّ.

استفاقَ من تخيّلاته السوداء عندما حضرت هالة وخلفها حورية إلى المجلس باستدعاءٍ مباشرٍ من سيدةِ المماليك في ذاك العصر، وتعلّقت عيناه بشفتيها ينتظرُ القضاء المستعجل مع أولِ كلمةٍ تنطق بها، لكنّها خالفت توقّعاته ولم تنطق، لقد تعلّمت الغبيَّة أخيراً أن الصَّمت وقاية وحماية لها قبل غيرها، سألتها المرأة مباشرة، وهي تشير لمنصور: أهذا أخوك؟

اكتفت بإيماءةٍ من رأسها وعيناها معلّقتان به تنتظر أن يغششها الإجابة الصَّحيحة على الأسئلةِ حتى تستطيع أن تخرجَ سالمة.

وعندما سألتها لماذا أمسكَ بها الإنجليز، لم تنطق بل تعلَّقت عيناها بمنصور مرةً أخرى والذي حاول إيجاد مبررٍ مناسبٍ في عقله، لكنّه كان أبطأ من مجاهد الذي ركبَ في قلبهِ سخان ٢٠ لتر تمرّ دماؤه عليه في اليومِ عشرات المرَّات فلا يكادُ غضبه الحامي يهدأ لحظة.

لم يكن مجاهد مقتنعاً باستجوابِ فتاةٍ خُطفت من أهلها وجاء أخوها لاستردادها، فاندفع محتراً: يا «خوند»([1])، الفتاة مخطوفةٌ من أهلها، وهذا أخوها، وكلّ ما نطلبه هو أن تعودَ لدارها سالمة.

عقدت المرأة حاجبيها، وتراجعت في كرسيها أمامِ غضبةِ مجاهد الذي قلَّما يراه أحد في لحظاتِ غضبه ولا يهابه، وقد كان في تلك اللَّحظة مخيفاً بالمنديلِ المربوط على رأسه وملابسه الملطّخة بالدِّم من أثر المعركة مع الدلاة.

استأذن عبد الله في الحديث عبر ترجمانه بلباقةٍ وقال ملطفاً الأجواء: يا خوند، هاتان الفتاتان حرَّتان، ولهما أهل، وكلّ ما نطلبه هو أن تعودا لأهليهما.

نظرت السيدة لحورية وسألتها: لماذا أمسك بكما الإنجليز؟!

انكبت الفتاة على الأرض تحت أقدامها وسكبت دموعها بين يديها: أقسم لكِ يا خوند أن لا شأن لي بأيّ شيء، ولم أقل أبداً أن الإنجليز سيُهزمون ويرحلون عن رشيد، هي من قالت، أنا لا أعرف أيّ شيء، ولست عرَّافة ولا أفتح المندل، ولا أعرف شيئاً عن مقتلِ الأمراء المصرلية، ولا أن باشا القلعة سيذبحهم جميعاً عند باب العزب ولن يذرَ منهم أحد.

أنا غازيةٌ فقيرةٌ مسكينة، وأبي وأمّي من دمنهور والدلاة أحرقوا خيامنا وأمسكوا بي معها رغماً عني.

أسدل الصَّمت السِّتار على المسرحيَّة التي فشلَ فيها الممثّلون في قولِ كلمةٍ واحدةٍ صحيحة تحبك السيناريو، الذي أحرقته العالمة ببضعِ كلماتٍ لم تستغرق دقيقة.

اعتقدت طويلاً أن هالة لديها القدرة السحريّة على إحراق مراكب العودة لبرِّ الأمان، لكن هذه المرة لم يكن اللُّغم النَّاسف من وضعِ يديها، فحورية منحت الخوند الحبلَ الذي ستشنقهم جميعاً به، ففي ظلِّ تحالفِ الأمراء مع سلطةِ الاحتلال، تظهر عرَّافةٌ في الصورة وتتنبأ بأن الاحتلال سيزول، وأن الأمراء سيذبحون في القلعة!

- هل آن الأوان لأتلقّى عزاء أختي؟! -

هبّت الخوند قائمةً من مجلسها وقالت غاضبة: ماذا تقول هذه؟!

قال شرقاوي محاولاً تدارك الموقف: سيدتي إنّها مجنونة تختلقُ قصصاً كالراوٍ في الموالد.

قالت السيدة: يجب قتل كلّ من تسوّل له نفسه الحديث بسوءٍ عن الأمراء، من هذا الذي يتجرّأ على ذبحِ أمراء مصر؟!

هتف مجاهد محتداً: يا خوند، إن الأمراء لا يزال تحالفهم مع القبائل في الصَّعيد سارياً، فلترحل الفتاتان معنا الآن حتى لا تقوم فتنةٌ بين الأمراءِ وبين القبائل لسببٍ تافه.

انقلبت سحنتها للتجهم فقد كان تهديده واضحاً، وبينما كانت تفكّر جدياً في أن تأمرَ الحرس بأخذِ الفتاتين للسجن، تحدث عبد الله بلباقة: فلتسمح لي الخوند بإيضاحِ بعض الأمور.

أذنت له بالحديث فأكمل بعقلانيَّة: لقد بلغت كلمات الفتاة مبلغاً بعيداً، وعلم بها الإنجليز وأمراء الصَّعيد، لكن الأمر لا يعدو سوى كلماتٍ تناثرت من فتاةٍ مجنونة أو عرَّافة تهرف وقد تصيب كلماتها أو تخطئ، وعدم اكتراث الأمراء بكلامها سيُميته، لكن قتلها أو حبسها في قصورِ الأزبكيَّة ليس له سوى معنى واحد، وهو أن كلامها أصاب، وأخاف الأمراء، وعندها سيتجرأ العامّة والرّعاع على الأمراء.

كانت كلمات عبد الله العقلانيَّة هي سبيلُ النَّجاة الوحيد الذي أخرجهم من الأزبكيَّة على أرجلهم ومعهم هالة وحورية التي مشت تحتمي وتتعلّق بعباءَةِ السيد عبد الله كي لا يفعصها مجاهد بأصبعينٍ فقط جزاءً لما قالته أمام الخوند، وعاد الجميع إلى المشهدِ الحسينيّ ليبحثوا عن حلٍ لمنصور ومكانٍ آمنٍ يأوي أسرته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# الحمقاء

(أهو حقاً أبي أم طيفٌ ظهرَ لي من بين طبقات التَّاريخ! ولكن ما نحن فيه الآن ليس تاريخ، منصور يقول أنَّ التاريخ ههنا تبدَّل وصار لعبةً بيدِ مراهقٍ مجنون).

كانت تحادث نفسها وهي تتفحَّص وجه أبيها - أو شبيهه - الغارق في غيبوبتهِ بين الحياةِ والموت، ذاكَ الوجه في عالمها كان رجلاً عادياً يجري خلف لقمةِ العيشِ حتى لو كانت بين أمواجِ البحر، وارتضى مستسلماً أن يبتلعه البحر وهو يحاول أن يجدّ لأبنائه عيشاً كريماً يسترهم في الدّنيا، أما هنا في هذا العالم (خارج منطقةِ الزون) فهو مجاهدٌ يدفع الاحتلال عن بلادهِ ليجدَ لأبنائهِ عيشاً كريماً على أرضٍ حرّة - ولكن هل كانت مصر يوماً حرة؟!ـ

أفاقت من شرودها على صوتِ أمّها: قومي يا بنيتي لترتاحي من التَّعب والنصب طوال أيامكِ الماضية.

أخذت تناظرها بوجهٍ جامدٍ وعينانِ زجاجيّتان لا تكاد تصدّق أنَّها حقاً أمّها ففي الحقيقة أمّها الجميلة في عالمها توارى جمالها خلف طبقاتِ الفقرِ والمرضِ والهمّ الذي رزحَ على كاهلها برحيلِ زوجها فزادها أعواماً فوق عمرها الحقيقي، ولكنِ ههنا تبدو أصغر بكثير، أقرب للشّباب، ذات جسدٍ فتيٍ ووجهٍ ممتلئٍ يشعّ حيويةً ونضارة.

امرأةٌ لها رجل يحبّها ويذب عنها الأعداء ويكفيها الهمّ ويحمل سلاحه دفاعاً عنها، ولكن ما شطر قلبها نصفين هو أن أمّها لم تعرفها من أولِ لحظةٍ دخلت فيها الدَّار ووقعت عيناها عليها وتمنّت أن ترتميَ على صدرها وتبكي لأيام، لكن أمّها لم تعرفها ومنصور لم يتكلّم كالعادة - هو دائماً لا يتكلّم عندما تحتاج أن تسمعه ـ

والعجيب أن أصحابه ما زالوا يعتقدون أنّها أخته وهو لم يحاول أن يصحّح لهم الفكرة الخاطئة، بل تركَ مجاهد يتصدَّر الكلام ويدعوهم للاجتماعِ في المَقْعَد ويأمرِ الحريم بالتواري بالدّاخل ليعتنوا بالشَّيخِ المصاب، وكالعادةِ كانتَ كلمته مسموعةً وأمرهُ مُطاع.

تركت هالة الغرفة التي بها أمّها وأبيها - أو من يشبهونهما - وهربت بدمعاتها إلى المطبخِ لتجدَ حورية هناك قد سبقتها تحاول أن تعدّ الطَّعام للرجال، لكنها ليست ماهرةً في عملِ النّساء، فأمّها لم تعلّمها شيء من أعمالِ ربَّة البيت بل كانت تعدّها لتكون عالمة تجمع المال من لحمِ جسدها، وعندما احتاجت أن تكون امرأة حقيقيّة لها دور حقيقيّ في حياةِ الآخرين ومَهمّة تقدّم بها العون للمجموعة التي تقبّلتها بينهم وأنقذتها من سوءِ المصير، لم تجدْ لديها أيّ مهارةٍ أو شيءٍ تقدّمه لهم.

الآن تشعر بالنَّقصِ الشديد وأنّها ليست امرأة، بل هي (عِرّة الحريم).

فانسكبت دموعها وأخذت تلطم خدَّيها وتنعي حظَّها فلا هي صارت امرأة ولا هي بقيت عالمة، ولم تجدْ لها رفيقاً تشكو له همّها وتسكب أمامه دموعها سوى هالة التي احتضنتها بصمتٍ دون أن تسألَ عن سببِ بكائها، بل انفجرت هي أيضاً في البكاءِ

والنّحيب وكأنما وجدت من يقاسمها الدّمع والألم دون أن تضطرّ للبوحِ بما يؤلمها أو تبريرِ سبب بكائها.

لكنّها كفَّت عن البكاءِ عندما دخلت أمَّها المطبخ ووقفت ترقبهما بذهولٍ متسائلة عن سببِ تلك المناحة التي نصبوها في المطبخ، لكن الاثنتين تواطأتا على عدمِ البوحِ لأحد.

وكان وجود أم عبد العزيز بينهما كطوقِ إنقاذ لهما، بل ولزمرةِ الرِّجال المجتمعين في المَقْعَد، فقد تولَّت السيدة قيادة غزوة تحضير الطّعام وكانت الفتاتان بمثابةِ ذراعيها اليمنى واليسرى.

لكن هالة أدركت بمرورِ الوقت أنها لن تتحمّل أبداً البقاء في هذا العالم لوقتٍ أطول، فلو نجتْ مما ينتظرها فستصاب بالتأكيد بالجنون، فلا يمكنها تحمّل أن ترى أمّها أمام عينيها وتسمع صوتها وأمّها تتكرها، بل لا تكفْ عن الحديثِ أمامها عن ابنها عبد العزيز قرَّة عينها وحبة قلبها.

ومرَّت بوقتٍ عصيبٍ حتّى استطاعت أن تفهمَ أن من تتحدَّث عنه أمّها ليس عبد العزيز أخيها، بل منصور خطيبها.

هنا... قاطرةُ الجنونِ قادمةٌ بأقصى سرعةٍ لتدهسها وطريق النّجاة الوحيد هناك في رشيد المحتلّة، والقشّة الوحيدة للنَّجاة التي يمكن أن تتعلّق بها هي العودة لرشيد، فإما أن تنجحَ في الوصولِ إلى البوابة التي ستعيدها لعالمها أو تموت برصاصاتِ المحتلّ.

كان الجدال بين المجموعة التي التفَّت حول الطَّعام في المقعد على أشدّه، وانقسمت الآراء بينهم ما بين مصدقٍ ومنكر، فعبد الله ومجاهد يصدقوا أن أيّ شخص سيركب القلعة يمكن أن يُقدمَ بالفعلِ على التخلّص من المماليك، وحسن وشرقاوي يريان أن في الأمرِ مبالغة كبيرة ولا أحد يمكنه أن يستعدي عليه هذا العدد الكبير من الأمراء. المصرليَة كما أن السّلطان لن يسمح بمثل ذلك أبداً حتى لا يختلّ ميزان القوى في أكبرِ ولايةٍ في السَّلطنة، فوجود قوةٍ هائلةٍ كالمماليك سيخيفُ الوالي الذي يعينه السّلطان، فلا يُقدم على حماقةِ الطَّمع في السّيطرة على الولاية أو عدم إرسال الضَّرائب والخراج للأستانة.

وكان الشَّخص الوحيد المحايد الذي يستمع فقط دون مشاركة هو أكثر من يعلم أن الأمرَ ليس فقط قابل للتنفيذ، بل أنه قد حدث بالفعل ولكن بيدِ شخصٍ لا أحد يعلم يقيناً إلى أين ذهب بعد خروجه من مصر.

كان حسن يتلقّف بأسنانهِ قطعةً كبيرةً من الباذنجان الذي فاحت منه رائحة الثّوم بالفلفل الحار فاحمرَّ وجهه، وسال أنفهُ وقد انتشى لسانه بالطَّعم اللَّذيذ، والجميع ملتفّون حول الطَّعام الشهيّ من لحم البط والأرز المعمر، فقال وقد سئمَ ذلك الحديث: في كلّ الأحوال لن يستطيع الناسَ أن يأمروا بمعروفٍ أو ينكروا منكراً، فكلّ ما نفعله اليوم هباء، فالأفضل ألّا نفعل أيّ شيء.

ترك مجاهد قطعة اللحمِ من يدهِ وتجهم في وجهه: لم يأمرنا نبينا بهذا يا خفيف العقل، بل أمرنا بجهادِ الظّلم ولو كنت على بعد رميةِ حجرٍ من قبرك.

قال ضاحكاً وهو يلقي بنظراته تجاه منصور: أنت تريد الموت شهيداً، هذا شأنك، أمّا أنا فكلّ أملي في الحياة أن أطلبَ العروس.

عقد منصور حاجبيهِ وقال بترقّب: ماذا تعني؟!

قال مفسراً وعيناه تلمعان: المركب يا أخي، عروس رشيد، تلك الأعجوبة التي ليس لها مثيل في البحار، سأبيعُ كلّ ما أملك في الحياة وأشتريها.

ضحك شرقاوي: يا لكَ من أبله، لم تعد تمتلك أيّ شيء لتبيعه أيها البائس.

هتف في وجهه: اخرس أنت، لا تعايرني ولا أعايرك الهم طايلني وطايلك.

أوقفهما مجاهد عن المشاكسة: اخرسا نريد أن نقول كلاماً مفيداً، علينا أن نجدَ مكاناً آمناً لعبد العزيز وعائلته، فلو دخل الإنجليز القاهرة سيطاردون كلّ من جاهدهم في رشيد وغيرها، فوجودهم هنا بجوارِ الأزهر لن يكون آمنا لهم.

سأله حسن: لديك أقارب هنا في القاهرة أليس كذلك؟

لم يردّ، فقد كان شارداً يفكّر في كيفيةِ العودة لرشيد ربّما وجد طريقةً هناك للوصول إلى بوابةِ العبور للزّمن الحقيقيّ، وحتى لو لم يكن شارداً، فكيف يردّ على سؤالٍ موجّه لعبد العزيز لا منصور؟!

بل أخذ وقتاً أطول في استيعابِ السؤال وفهمه وضبط بوصلة عقلهِ على وضعهِ الجديد في اللّعبة ورغم هذا لم يستطع الردّ، فليس لديه أيّ معلوماتٍ عن عبد العزيز الذي يقصدونه، فحاول الهروب من الموقف: سأسأل وأخبرك.

شعر مجاهد بالإشفاقِ نحو صديقهِ الذي لا يزال لا يستطيع أن يتذكّر أيّ شيء - كما يظن –

هتف شرقاوي بخبث: ولمَ لا نسأل أخته؟

توجّهت نحوه كلّ الوجوه بعد أن توقّفت الأفواه عن المضغ، وشعر بأنّهم سيفترسونه، فاستدرك بسرعةٍ رغبته في النّجاة: أو أمّه، هي من تستطيع أن تخبرنا.

كان منصور يعلم جيداً أن المكانَ الضّروريّ لإيواءِ عائلته - كما يظنّ أصحابه - لن يصلحَ لحلّ مشكلته ومشكلة هالة، فوسيلتهم للعودةِ لعالمهم، هناك في رشيد المحتلّة.

اجتمع الجميع بعد الطَّعام في المَقْعَد وانضمَّت لهم أم عبد العزيز وأخته، أعني... خطيبته... حسناً إنّها هالة، فلا تشغلوا عقولكم بالعلاقاتِ في لعبةِ فانتازية.

وبدأ مجاهد الحديث بسؤالِ أم عبد العزيز عن المكانِ الآمنِ الذي يمكن أن ينقلوا زوجها إليه، فهاهنا في المشهد الحسينيّ قلب البلدة، تختلط بيوت كثيرٍ من المماليك الشراكسة والوجاقلية ([2])والأرناؤود ([3])مع الأهالي ومساتير الناس ([4]) وهذا قد

يكون خطراً على زوجها ويكشف موقعهَ لكل من يرغب بالتَقرب للاحتلال فيسلمونه للإنجليز.

شكرتهم أم عبد العزيز ممتنةً على ما قدّموه لزوجها من عنايةٍ وحماية، ثم أخبرت مجاهد عن بيتِ أخٍ لها يسكن في حيّ الجمالية، وكان هذا هو الحلّ الأمثل الآمن لحمايةِ الشيخ سلامَة، فلم يكن من المعتادِ وقتها البحث خلف الحريم والعائلات لتكوينِ شبكةِ معلوماتٍ عن المطلوبين وعائلاتهم - أظنه نظامٌ تمّ استحداثه بعد اختراع السجلّ المدنيّ أو في عهد محمد علي -

كانت هالة تراقب الكلام الدائر في المجلسِ وركبتها ترقصُ صعوداً ونزولاً بغضبٍ هائلٍ مكظوم، وعينها على وجهِ منصورٍ تنتظر منه أن ينطقَ أو يأخذ بلجام الحديث ويُنَحّي مجاهد الذي صار متحدثاً وحيداً بلسانِ الجميع، يقررّ عنهم ما يصلَح لمكانِ إقامتهم وأين يذهبون دون حتى أن يسألهم، لكن منصور لم ينطق، لم تكن هالة تفهم حقاً ما الذي فعله والده به ليصيرَ على تلك الصُّورة المستسلمة الأليفة التي يتمرّد حتى عليها صغار الأطفال الذين لا يسمعون الكلام.

وصبرت هالة وعضَّت على لسانها لعلَّ منصور يتكلَّم، حتى انتهى مجاهد من الاتفاق مع أمّها على كلِّ شيءٍ لنقلهم جميعاً كعائلةٍ للجمالية.

وهنا لم تستطع هالة السكوت، فهبَّت من مجلسها وانفجرت كمدفعٍ من مدافعِ ذاك العصر ألقى بقنبرة (هكذا كانوا يسموّنها) في ميدان مأهول: سأعود إلى رشيد.

كان الشباب ينظرون لبعضهم البعض ويهمهمون ما عدا منصور الذي نظرَ لها بصمتٍ لا يدري ماذا يقول فهي تنطق بما جبن عنه هو، لكن مجاهد انتفضَ واقفاً أمامها والشررُ يطق من عينيه، وصرخ: ستطيعين كلام الرجال.

صرخت في وجهه: لا كلمة لكَ عليّ، لست أبي ولا أخي، ولا خاطبي، ولن تملي عليّ أين أذهب ولا ماذا أفعل.

فأخذتهم جميعا الكرشة (هكذا يسمّيها الشيخ الجبرتي، علينا أن نسايرَ موضة ذاك العصر)

وهبّوا جميعاً على أقدامهم، فالكلّ يعلم ماذا سيحدث إذا ما انفلتَ غضبُ مجاهد في وجهِ هالة.

وحتّى يستطيع القارئ أن يستوعبَ مدى عمق الكوميديا السّوداء التي طغت على المشهدِ الذي تحوَّل بالفعلِ إلى مهزلةٍ مأساويّة، فعليَّ إيضاح بعض الأمور.

مجاهد تولَّى من البداية دفَّة الحديث نيابةً عن صديقه الحميم الذي تصدع بالفعل جزءاً من عقلهِ بفعل مكوثهِ تحت الماء وانكتام نفسه لفترةٍ حتى أنقذه حسن من الغرق - ذلك هو ما يعتقده - فهو يخشى بالفعل أن تكون نوبات النّسيان التي استقرَّت في عقلهِ قد أنسته أن المرأة التي تجلس أمامه الآن هي أمّه، فأحواله معها ليست طبيعيَّة أبداً، ولا يتعامل معها كأمٍّ حقيقية، لذا فهو يتولَّى بالفعلِ إدارة شؤون صديقهِ وخدمة عائلته حتى يعود له عقله.

منصور... أصابه سهمُ هالة في مقتلٍ وقد وجَّهته مباشرةَ إلى كرامتهِ بكلمةِ (خاطبي).

لكنّه مكبَّلٌ وعاجزٌ عن التَّصرف، فهو بين أصحابه «عبد العزيز» ومع هالة - التي يعتقدون أنّها أخته - «منصور» وتلك المرأة تعتقد أنه ابنها، لكنّها لا تعرف هالة رغم أن هالة ترى فيها صورة أمّها الحقيقية، ومجاهد لا يعرف أن أمّ عبد العزيز لا تعرف هالة وليست ابنةً لها، وهو يتحدَّث عن هالة ضمنياً دون ذكر اسمها كفردٍ أصيلٍ من عائلة عبد العزيز صديقه.

ولكن... ماذا عن هالة؟!

كانت تشعر في أعماقها أنّها صارت كيس قمامة تتناقله الأيدي والكلّ يريد الخلاص منه.

مشكلة هالة الحقيقيّة أنّها لم يكن في حياتها يوماً رجلٍ يمكن أن تعتمدَ عليه من بعد رحيل أبي، فقد سقطت ما بين أبٍ ترك لها مكانه خالياً ورحل لتتحمّل هي مسؤولية أسرة وتلبس ثوب رجل البيت رغماً عنها، وأخٍ لا تستطيع أن تدركَ مدى «عبقريته» وزوج منتظر كلمته من رأسِ أبيه، بل ويترك الغريب يقرّر مصيرها ومصيره والمكان الذي ستذهب إليه وتبقى فيه رغماً عنها، كما أنها تدرك جيداً أن المرأة التي ستذهبِ معها إلى بيتِ أخيها في الجمالية تعتقد أنّها ليست ابنتها، وبالطَّبع لن تقبلَ بها زوجةً لخطيبها الفعليّ منصور - الذي تظنّه ابنها - بل لن تكون في هذا البيت أكثر من خادمة، أو لنقلِ جارية بمقاييس القرن التاسع عشر، ولو فكّرت المرأة أن تطردها، فلن يكون لها سبيل سوى أن تصبحَ عالمة وتسرح في الموالدِ كحورية.

حسناً...

هل ستبدأ هالة بالقذائفِ العنقوديّة أم ستدخل على الهيدروجينيّة مباشرة؟! أو ربّما فعلت بمجاهد كما فعلت بالبرنس تحت الماء.

ترى هل سأشعر بالشَّفقة للوضعِ المزري الذي صارت فيه؟!

ربّما يوماً ما، لكن الآن أنتظر بشغفٍ معركتها مع مجاهد الذي يهمّ بإنزالِ قبضتهِ الحديدية على وجهها فيشقّه نصفين، لكن الشبشب انتصرت مجدداً، ومن دون حتى أن تقومَ المعركة، لقد تجمّد مجاهد أمامها، واسودّ وجهه واحمرّت عيناه وتناثرت قطرات العرقِ على جبينه، ربّما لو كان له صافرةً معدنية كالحلّة البريستو لسمعت لأنفاسه صوت صفيرِ الغليان، لكنّه انسحبَ من أمامها وغادر المقعد، وفازت المفترية بالضِّربة القاضية ليس فقط على مجاهد، بل وعلى منصور وباقي الفريق، فقد انسحبَ منصور من المقعد متظاهراً أنّه سيتحدَّث إلى مجاهد، لكن الحقيقة هي أنّه لا يرغب في أن يسمعَ ما يمكن أن تسكبه هالة من فمها، وتبع مجاهد الذي اقتحمَ غرفته وأطبقَ كفَّيه على عمودي السَّرير النحاسيّ الأسودين فأخذ يهتزّ بعنفٍ محدثاً صوت صريرٍ حتى ظنّ منصور أن السريرَ سيتحطَّم بين يديه، فتراجع خطوةً للخلف ووقف في مدخلِ الباب صامتاً ينتظر ما سيفعله مجاهد الذي أغمضَ عيناه

بقوّة وأخذ يتمتم بآية الكرسيّ ويعيدها مرَّاتٍ ومرّات حتى هدأ غضبه وتمالك نفسه، والتفتَ له بوجهٍ عادت الدّماء تجري فيه، وقال لائماً: في كلِّ لحظةٍ أهمُّ فيها بالفتكِ بها، أتذكّر أنَّك أخي في الله، فيصير حاجزاً بيني وبينها.

تطلع إليه بصمتٍ وقد حارَ لسانه في انتقاءِ الكلمات ففضّل الاحتفاظ بها داخل فمه، وتركه يُخرج غضبه في كلمات: والدك لم يحسن تربيتها ولا تأديبها، فهي تناطحُ الرجال عيناً بعين وكلمةً بكلمة.

تمنَّى منصور في تلك اللَّحظة أن يمتلكَ ربع تمرّد واندفاع هالة فيجهر أمام مجاهد بضرورةِ عودتهما لرشيد، لكنّه لم يستطع، ولا يعرف السبب، يقولون إن كان الكلام من فضة فالسّكوت من ذهب، لكن في تلكَ اللّحظة صار السّكوت بارود ينتظر جذوة نارٍ فينفجرُ في وجوهِ الجميع، ومنصور يعلم هذا، وأن سكوته سيقضي على آخرِ أملٍ له في العودة إلى رشيد وبالتالي إلى عالمهِ الحقيقيّ، فابتلع ريقه وأخذ شهيقاً طويلاً وبدأ ينطق: عليّ العودة لرشيد الآن.

هم مجاهد أن يصرخَ في وجهه، لكنّه أمسك غضبه في آخرِ لحظة، فقد بدت له المحنة التي يمرّ بها صديقه أكبر مما كان يعتقد، فقال بتعقل: لن أحاسبكَ على ما تقول، أدرك أن عقلك ليس بخير، وبعد أن يمنَّ الله عليكَ بالشفاء، لنا حديث طويل، حديث أخٍ لأخيه.

لم يتوقع مجاهد أن تتجرأ الغازية على التجوّل في البيت دون إذنٍ أو تقترب من غرفته، وكادَ أن يجنّ عندما وجدها تقتحمُ عليهما الغرفة، وقبل أن يقولَ أيّ شيء أو يرتكب جريمة وجدها تهتفُ وهي تلطمُ خدّيها: افعلا شيئاً، لقد جنّت الصبيّة، ستقتل نفسها...

أدركَ منصورعلى الفور عمن تتحدَّث الغازية، فهو لا يعرف مجانين سوى هالة - إذا استثنينا أخاها بالطبع ـ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الراوية

كانت هالة تقف في وسطِ المقعد تتفحّص الوجوه، تبحث فيها عن طوقِ إنقاذ، تعلم جيداً أنها لن تستطيعَ العودة لرشيد وحدها، بل لن تجد مركبها إلّا بمساعدتهم، لذا فعودتها لرشيد لن تتمَّ إلّا إذا وافقوا على مساعدتها.

توقّفت عند عبد الله الذي ترجمَ له التّرجمان كلّ الحوارات التي دارت في الغرفة، ونظرَ لها في انتظارِ ما ستقوله له، فقالت برجاءِ غريقٍ يتطلّع لحبلِ إنقاذ: سيد عبد الله، وعدتني من قبلَ أنَّك ستساعدني إن وقعتُ في ورطة.

انتظر حتى انتهى الترجمان من مهمّته ثم ردَّ عليها: وأنا لا أُخلف وعدي، اطلبي ما تشائين.

قالت: أريدك أن تساعدني في العودةِ إلى رشيد الآن بمركبي.

قال: رشيد صارت خطراً كبيراً عليك، وخاصةً وأن الإنجليز يطاردونك، بل إن الكتخدا علم بأمركِ فأطلق الدلاة في أثرك، يجب أن تختبئي في مكانٍ آمنٍ.

قالت بحسرة: لا مكان آمن لي في هذا العالم، أنا هنا خارج «الزون» فإمّا أن أذهبَ لمنطقةِ النّجاة، أو أموت في أيّ مكانٍ خارجها لا فارق.

لم يفهم عبد الله ماذا تعني بخارج الزون، فهو لا يلعب ألعاباً قتاليّة تفاعلية.

-حسناً أيها القارئ، إذا لم تكن محترفاً في ألعاب القتال التفاعليّة، فاعلم أن الزون في اللّعبة هي منطقةُ الأمان من الهلاك وتبدأ كدائرةٍ كبيرةٍ تشمل كلّ خريطة اللّعبة، ثم تضيق شيئاً فشيئاً وعلى اللّاعبين السَّعي المستمرّ للبقاءِ داخلها، والرَّكض باتجاهها كلّما تغيَّرت إحداثياتها حتى لا يلقوا حتفهم خارجها.

قال عبد الله: لا أفهم كلماتك، لكن ما أعرفه هو أن الإنجليز استولوا على رشيد، وحاصروا كلّ الطُرق التي تؤدِّي إليها، وما عاد الدّخول إليها ممكناً إلا لمن هم موالون للإنجليز، أو من معه إذن من الكتخدا أو الأمراء.

يبدو أن الفتاة قد جنّت ولم تعد تعي أين هي، فقد اندفعت بحمية: لن آخذ إذناً من أيّ إنسانٍ لأعود لبيتِ أبي.

أحاطها الجميع بنظراتِ الإعجاب لما قالت، وابتسم عبد الله: كلام لا تقوله سوى ابنة مناضلٍ يضحّي بحياتهِ لأجل أن يخرجَ الأعداء من أرضه، لكن بيت أبيك سيكون قبراً لكِ إن لم يخرج منه الأعداء أولاً.

هتفت بحسرة ودمعة تبدو جلية في عينيها: لقد خرجوا بالفعل، في العالم الذي أعيش فيه... انتصر أهل رشيد على الإنجليز وقتلوهم وأرسلوا رؤوسهم هديةً لأهالي القاهرة ليعلّقوها على أبوابها.

كان الجميع ينظرون لها غير مصدّقين، والذُّهول يلجمهم، وفي عقولهم يتساءَلون، أهيَ حقاً من المنجمين؟! من أين أتت بكلّ هذا الصِّدق واليقين حتى صارت الكلمات

تنطلق مباشرةَ من قلبها كطلقاتِ المدافع فتصيب أهدافها؟!

التفتت للسيد عبد الله وقالت دامعةَ العينين: سيد عبد الله، هل ستساعدني في الوصولِ لرشيد أم أذهب وحدي؟!

تلك اللَّحظة، اندفع مجاهد إلى المقعدِ بعد أن أبلغته حورية بما تنوي هالة، وكاد يصرخ في وجهها عندما سمعها تتحدَّث عن العودةِ إلى رشيد، فهو لا يحبّ الرأس اليابس، لكنّه كظمَ غيظه، وترك الأمر لأخيها الذي تبعه وانضمَّ للجمع، لكنّه كالعادة لم يتكلَّم، بل تركها في وسطِ البحر تقاوم وحدها موجات الرَّفض وعدم الفهمِ من الجميع.

ومن وسطِ ظلامِ اليأسِ صرخت باسمه كأملٍ وحيدٍ لإنقاذها وإنقاذ البلد كلّها: محمد علي.

تطلَّعت لها كلّ العيون، وقال حسن متعجباً: لقد رحل ولم يعد والياً، فما دخله بمصر؟!

قالت بإصرار: إنه الباشا في عالمي، والي مصر الذي أفشلَ حملة فريزر وأنقذَ مصر من الاحتلال الإنجليزيّ، ومن طغيان المماليك، فقد قضى عليهم في مذبحةِ القلعة.

قال شرقاوي: محمد علي لا يمكنه العودة وإلَّا قتله الإنجليز.

اشتعل صوتها بالحماس: بل سيفعل، هو الوحيدُ القادرُ على إنقاذِ مصر وإخراج الإنجليز من رشيد.

صاح منصور وقد صارت أعصابه على حافة الاشتعال: ما زال هؤلاء المجانين يبحثون عن منقذ! السوبر مان فكرة لا تنتهي في عقول الضعفاء واليائسين.

كانت قد وصلت للحدِّ الأقصى من اليأس فصرخت في وجهه: أتنكرُ أن كلّ كلامي صحيح؟! هو بالفعل من أنقذَ مصر، كلّ كتب التَّاريخ تقول أنّ محمد علي هو باني مصر الحديثة، وهو من أنقذها من الإنجليز والمماليك و ...

قاطعها هازئاً: والفرنسيين والألمان، والروس، ولنضف إليهم أيضاً التتار والمغول وجانكيز خان.

صرخت غاضبة أتسخر؟!

هتف متهكماً: لا، بل أضع الحقيقة المؤلمة أمام عينيّ سمو الأميرة الغافلة، فالتَّاريخ الحديث كُتب في عهدِ أحفادِ أسرة محمد علي، فهل رأيتِ حفيداً يسمح بالحديثِ بسوءٍ عن جدّه أو إظهار عيوبه؟!

صمت الجميع تماماً يرقبون تلك المجادلة الحامية دون أن يفهموا أيّ شيء، وهما يبدوان كاثنين مجانين يتجادلان في أشياء لا يستوعبون معظمها وبلغةٍ عجيبةٍ مفهومة نعم، لكن مصطلحاتها غريبة عنهم.

صرخت في وجهه: لا يهمّ ما فعله، المهمّ أن ينقذ رشيد ويحرّرها من الاحتلال.

صاح منصور: لا تتحدَّثي عمّا لا تفقهينه، محمد علي غادر ولا يمكنه العودة، فالإنجليز الآن لهم اليدُ العليا والمتحكّمين في كلِّ شيء، فهم يكرهونه بعد أن هزمَ الألفي رجلهم الذي كانوا يُعدّونه لحكمِ مصر باسمهم، وخطّتهم لاحتلالِ مصر تقتضي إبعادهُ عن مصر.

استبدَّ بها العناد - أو لِنَقل حبّ الحياة - وصاحت بحماس: إن اقتضى الأمر سنطالب السّلطان العثمانيّ بأن يصدر فرمان بإعادتهِ في منصبِ الباشاوية كما فعل في عام ١٨٠٥، بعد أن توحَّدت كلمة الشَّعب على اختيارِ محمد علي وأجبروا السّلطان على إصدارِ فرمانٍ بعزل خورشيد باشا وتوليته.

قال: الوضع وقتها كان مختلفاً، والسّلطان أيضاً لم تكن عاصمته مهدّدة بالسُّفن الإنجليزيَّة، ولم يكن الإنكشارية قد أظهروا توحّشهم عليه في العلنِ والرَّغبة في عزله، فاستجاب لمطالبِ الثَّورة الشعبيَّة العارمة التي قامت في مصر.

هتفت: سيكرّرها لو قامت ثورةٌ شعبيَّةٌ أخرى في البلاد، سيرضخ لأجلِ استقرارِ الأوضاع وعودة الناس لبيوتهم، كلّ الحكّام يرتعبون من الثوراتِ الشعبيّة ويعتبرونها تهديداً لملكهم، سيطأطئ رأسه أمام غضب الناس وينفّذ مطلبهم كما فعل من قبل.

صاح هازئاً: يا للأحلام الرومانسيّة الحمقاء! تتطلَّعين لإعادةِ محمد علي للحكم بثورةٍ شعبيةٍ ثانية؟! أيّ مجنون هذا الذي يصدّق أن فيلمَ الثورة يمكن أن يعادَ مرتين؟! ومَن ذا الذي يستطيع أن يوقظَ هؤلاء البؤساء التّعساء ويأخذ بيدهم من مستنقعِ الخوفِ ووحلِ الجبن، ويقنعهم بأن يواجهوا الاحتلال الإنجليزيّ والموت والسّجن والكرباج لأجلِ عودة محمد علي للحكم!

(السيد عمر النقيب)

لم تقلها هالة، بل آخرُ شخصٍ يمكن أن يتدخّل في حوارٍ بين أخ وأخته.

- انظر من يؤيد رأيها الآن! -

قد يبدو مجاهد عقلانياً وتقليدياً لأبعدِ الحدود، وقد يبدو عقله أحياناً كرتاج صلب، ورغم ذلك يغلق حجرةً من حجراتِ قلبه على روحٍ ثوريةٍ متوهجةٍ كشررٍ تحت رماد، تنتظر فقط من ينفخ فيها لتشعل حريقاً لا ينطفئ، ما زالت روحه تتوق لتلك الأيام التي كان فيها واحداً من ذلك الزحف الهادر والسيل المتدفّق وهو يخرج من بيتِ القاضي ويزحف باتجاه قلعة الجبل، فينزع خلعة الوالي عن خورشيد ويضعها على أكتافِ محمد علي ويجبر السّلطان على قبولِ من اختاره أهل الحلّ والعقد في مصر والياً عليها.

قال شرقاوي لمجاهد: السيد عمر النقيب لا أحد يعلم مكانه ولا إلى أين ذهب بعد أن انفضّ الناس وعادوا لبيوتهم ينتظرون ما سيفعله الإنجليز بهم! كما أنّه صار كهلاً ولم يعد به طاقة للمزيد.

صرخت هالة وقد وجدت من يؤيّد كلامها وينصرها على منصور فالتفتت لمجاهد: هو، هو، نعم، البطل الذي... الذي...

الذي ماذا؟!

ترى هل تعرف هالة إجابة السؤال حقاً؟! بل هل تعرف كتب الدّراسات الاجتماعيّة في الصفوفِ المدرسيّة التي درستها إجابة السؤال؟!

عمر مكرم ما هو إلا اسمٌ لا يتجاوز ربع سطرٍ في كتب التاريخ المدرسيّة، أو اسم وضع على تمثالٍ في ميدانٍ أو مسجدٍ أو مدرسة، ولكن... هل يعرف الناس عنه شيء؟!

تنفس مجاهد بصوتٍ مسموعٍ وقد أخذته الحماسة من مجردِ ذكر اسم بطله المفضّل - مسكين! ماذا لو شاهد «باتمان» و«سبايدرمان!» - قال: محمد علي بالفعل تولّى الولاية بفضلِ السيد عمرٍ النقيب، فهو الذي حرَّض الناس على الخلاصِ من خورشيد باشا، وبقي شهراً بينهم في الأخطاط والطُّرقات يحاصر معهم القلعة.

وعندما انسحب الجنود الألبان من حول القلعة، أمر الناس بأن يأخذوا مكانهم، ويسدّوا الثُّغور ويتمترسوا حتى يرحلَ الوالي.

اندفع منصور مستنكراً: وهل حفظ له الفضل وصان الجميل؟! لا، بل نفاه لدمياط وأبعده عن مصدرِ قوَّته الحقيقي...(الناس).

انتبه منصور لحقيقةٍ مؤلمةٍ عندما نظرَ في وجوههم، وهي أنه في عالمٍ غير العالمِ الذي يعرفه، وتاريخٍ آخر غير الذي درسه ممّا يعني أن هذا لم يحدث فيَ هذا العالمَ، فبقيَ صامتاً لحظاتٍ يحاول أن يستوعبَ قدر التّشابه أو الاختلاف بين العالمين، لكنّه أدرك أن عقله بدأ يذوبُ في تاريخٍ يشبه التاريخ الحقيقيّ الذي درسه لكنّه ليس هو!

أصابت كلماته أحلام هالة في مقتل، وانهارَ جسدها على المقعد وهي تحملقُ في وجهه بيأس.

لكن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد، فها هنا عقول أخرى قد استيقظت وبدأ سؤالٌ صغيرٌ يشقّ قشرتها ويكبر كلّ لحظة، لينبتَ أملاً صغيراً يدعى «عمر مكرم».

(هو الوحيد الذي وقف خلف أهل رشيد للنهاية)

قالها حسن وفي عينيه أملٌ حسير.

هزَّ شرقاوي رأسه بأسى: ليتنا فقط نعلم مكانه!

أعتقد أن زوجَ أختي محقّ في غيظه، فالبشر في حالات يأسهم يؤمنون بعنف بفكرة البطل المُخَلِّص الهابط عليهم من السماء بمظلة.

- احترس فالبشرية تعود للخلف ــ

كان مجاهد هو أكثر من يؤمن بتلك الفكرة الحمقاء، فلقد حضر ثورة القاهرة الأولى والثانية التي كانت من أهمّ أسباب طرد الفرنسيين من مصر، ثم الثورة على الوالي خورشيد، ورأى بعينيهِ دور عمر مكرم في كلّ تلك الأحداث الجِسام.

ليس وحده، فهؤلاء الشباب الذين تركوا القاهرة وزحفوا نحو رشيد للدفاعِ عن ثغرٍ من ثغورِ بلدهم، ومقاومة المحتلّ بتحريضٍ من عمر مكرم، لا يمكن أن ينسوا تلكً الأيام بسهولة، فقد سلَّموا آذانهم وقلوبهم لمجاهد الذي لمعت عيناه وانبسطت أساريره، كانت من المرَّات النادرة التي تبوح ملامحه فيها بابتسامةٍ أنارت وجههُ الأسمر، وهو يسافر بعقله لتلك الأيام: وقت أن استولى الإنجليز على الإسكندرية، كانت مساجد القاهرة تنادي بحيَّ على الجهاد، وترتجّ منابرها في خطبِ الجُمع بحثِّ الناس على دفعِ المحتلّ والدّفاع عن الأرواحِ والأعراض، واستجاب الأهالي لنداءِ السيد عمر أفندي بحماسٍ وخرجوا لأطرافِ القاهرة يحفرون الخنادق ويقيمون المتاريس، يكتبون وصيّتهم ويعلنون التَّوبة والإنابة لله يستعدّون للقاءِ العدوّ ويتطلّعون بشوقٍ لنيلِ الشّهادة.

وكان السيد عمر مع الناس وبينهم، يأمرهم بحملِ السِّلاح والاستعداد وإقامة التّحصينات، وأقاموا له هناك خيمة، ثم اجتمع بنا نحن المجاورين في الأزهرِ وأمرنا بتركِ الدروس، وطلب من العلماء والشيوخ التوقّف عن إلقاءِ الدروس والتفرّغ لجمعِ النّاس وحشدهم لجهادِ العدو، وقد رؤوا بأعينهم جزاء من يدفع العدوّ عن أرضهِ وعِرضهِ ما استطاع لذلك سبيلاً، يأتيه النَّصر المبين ويخرج العدوّ من أرضه مهزوماً مدحوراً، كما حدث سابقاً للفرنسيين.

وعندما أتانا نبأ حصار رشيد، أمرنا بلبسِ ملابس الحرب والزَّحف إلى رشيد، وذهب هو والعلماء للكتخدا ليأذنَ لهم بالخروجِ إلى رشيد، لكنّه خذلهم وفرّق كلمتهم وصرفهم قائلاً (حتى يأتي أفندينا الباشا ويرى رأيه في ذلك).

قال حسن مصححاً: بل قال له نيابة عن الباشا (ليس على الرعيّة خروج، وإنّما عليهم المساعدة بالمالِ لعلائف العسكر).

أيَّد مجاهد كلماته: نعم، تذكَّرت، لقد تفرّقوا بعد أن خرجوا من عنده، وقتها أدركنا أنّه كان علينا من البدايةِ أن نذهبَ إلى رشيد قبل أن تقع النّازلة ويستولي عليها الإنجليز.

تمتمت هالة بذهول، وقد اختلطت في عقلها أحداث الزَّمن الحقيقيّ بالزَّمن الفانتازي: الأهالي الذين هزموا وحدهم جيش دولة عظمى، في عيون الحاكم ليسوا أكثر من مجرد خدمٍ يرعون خيول وبهائم العسكر ويعلفونهم.

سأل حسن: مَن هزم مَن؟!

قالت هالة باستنكارٍ ذاهل: في عالمي انتصر الرشايدة على الإنجليز نصراً مبيناً مرَّتين، ثم أجلاهم محمد علي عن الإسكندرية بعد أن وقع معهم معاهدة دمنهور في سبتمبر ١٨٠٧.

حسناً... بعد هذا الدّرس العظيم في التّاريخ الحديث ودور السيد عمر مكرم فيه كما يعرفه جيداً كلّ من قرأه، عليَّ أن أقول أنَّ الوحيد الذي لم يستمتع بالقصّة هو منصور، بل كانت دماؤه كسائلٍ سريع الإشتعال يحتاج فقط لجذوةٍ صغيرةٍ لتندلع جحيماً، وكانت نظرات هالة نحو مجاهد الذي قام بدور الراوي أغلب الوقت في المجلس، هي عودُ الكبريت المشتعل الذي سقط على قلبِ منصور، وهو على حالته تلك، يستطيع أن يفسرَ أيّ شيء حوله على غير حقيقته.

- أستطيع أن ألقي هالة بكلّ المثالب، إلا أن تنظرَ لرجلٍ لا يحلُّ لها، فقد ربتها أمّي جيداً فصارت مثلها -

هالة تنصت لمجاهد كما لو كان فيلماً وثائقياً تاريخياً يحكي عن أحداثِ زمنٍ تربَّت على محبّته وتقديره منذ طفولتها، لكن منصور - البعيد أعمى - لا يفهم هذا، ولا يستطيع أن ينسى أن هالة كانت تستنجد بمجاهد وليس به.

حسناً... يمكنني أن أقول بكلّ أريحيَّة أن وجودَ مجاهد بين مجموعة من نوعه تضعهم جميعاً في تحدي إثبات الرجولة من دون أن يقصدَ هو ذلك أو يعيه.

لنعد إلى ما كنا نقوله... انتفض منصور غاضباً وصرخ في هالة: هيا، أكملي المسرحيَّة الهزليَّة، أخبريهم ما الذي حدث في الفصلِ الأخير!

قام مجاهد والدَّهشة تعلو وجهه وقال برفق: ما الذي دهاكَ يا صاحبي؟!

ردّ عليه بتهكم مغتاظ: جننتِ، ساحَ عقلي في وهم حكايات الإنجليز المحتلّين، وانتصارات الرشايدة ولم يتبقَّ سوى أن أغني كعبد الحليم حافظ هي حكاية حرب وتار بينا وبين الاستعمار.

نظر له مجاهد بصمت، لم يكن يعرف رداً مناسباً على كلماتهِ التي لا يفهم أغلبها، ويظنّها اعتلالاً في عقلهِ من أثرِ حادث الغرق الذي تعرَّض له.

لكن هالة هي من ردَّت هذه المرة، فصرخت في وجهه: لِمَ تصرّ أن تفسدَ كلّ شيء؟! هل ستلقي بهزائمكَ الشخصيَّة علينا وتدَّعي أن هزيمة الإنجليز لم تكن نصراً مبيناً لأهل رشيد؟! ربما تدّعي أنَّها كانت مؤامرة مدبّرة من الدّول العظمى أو من عسكر المماليك.

تجاوز هجومها على شخصهِ وهتف في وجهها: أيّ انتصار لا يمكن الحفاظ عليه ولا حمايته فسيؤول في النّهاية لهزيمةٍ ساحقةٍ لا قيام بعدها أبداً، انظري لحالكِ وحال الرشايدة في زمننا وأخبريني ما قيمة انتصارٍ مرَّ عليه مئتي عام ولم يجنِ ثماره سوى ديكتاتور يجلس في القلعة ويترك باقي الشَّعب حفاةً عراة؟! بل أخبريهم ماذا كان جزاءُ أهل رشيد الذين حملوا على عاتقهم وحدهم مهمّة الدِّفاع عن بلدهم!

صمتت ولم ترد، كانا يبدوان كاثنين يلعبان التَّحطيب في المولد والباقي يتفرّج وينتظر من سيغلب، فمن الذي يستطيع أن يتدخل في حوارٍ بين اثنين مجانين قادمان من قاعِ البحر يتحدَّثان عن عالمٍ خياليٍّ غير موجود؟!

هتف بغيظ: سأحمل عنكِ أنا عبء حكاية بقيّة القصّة، كأي نصرٍ شعبيٍّ عظيم لا يرتبط باسم شخصيةٍ تاريخيةٍ معروفة، يسهل استلابهُ ونسب الفضل فيه لمن لَديه القوَّة الإعلاَميَّة، ففي القاهرة لم يكن البطل هو أهل رشيد البسطاء، فلا يعقل أن تنهزمَ جيوش الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس أمام أهل قريةٍ صغيرةٍ كرشيد وأناس عاديين من دون سلاح ولا جيش كشعبها.

بل هي معجزةٌ سماويةٌ وقوّة علويَّة تناصر الخليفة التركي الصالح الذي هاجم أعداء الله دولته وغزوا موانئه فأذاقهم الله شرَّ هزيمةٍ في ولايته مصر على يدِ الوالي الصالح المجاهد محمد علي.

هذا ما انتشر بين العامَّة في شوارعِ المحروسة ومساجدها، والتاريخ لا يعرف العامَّة ولا يلتفت لجهادٍ تحققه الشعوب بلا قائدٍ واضح الاسم والمعالم، فالتاريخ يكتبه الحكّام لا المحكومون.

لهذا يرتبط اسم محمد علي بانتصارِ رشيد على الإنجليز لمجرَّدِ أن في عهد أحفاده كُتب التاريخ، لكنّه حقاً لم يكن موجوداً وقت أن انتصر أهل رشيد على جيشِ أكبر قوى عظمى في العالم وقتها.

أخيراً تجرّأ حسن واقتحمَ الحوار بعد أن بدا له أنه يفهم شيئاً مما يتحدّثان عنه، وأنهما فقط أساءا الفهم: لم تنتصر رشيد على الإنجليز، كان الجميع ينتظرون عودة الوالي من الصَّعيد ليمدّ رشيد بالسلاح والجبخانة([5]) والعتاد والجنود المحترفين، لكنه لم يعد أبداً.

اثنا عشر يوماً ورشيد ترزح تحت قصفِ مدافع ستيوارت، أمّا الباشا فقد اتّخذ طريقه إلى الشام ليرحل بجندهِ إلى سلانيك، فأن يكون والي على سلانيك أفضل له من أن يدخل في صراعٍ مع الإنجليز فيهزم شرّ هزيمةٍ أو يشنق على أيديهم.

أكمل شرقاوي: والأن يترقّب الناس لخبرِ من سيصير باشا بأمرٍ مباشر من الإنجليز للسّلطان ويركب القلعة.

قالت هالة: وكيف يوافق السّلطان على أن يفرضَ الإنجليز عليه والياً ليس موالياً للدّولة العثمانيّة، ولا يرضى به الناس حاكماً عليهم؟!

ردّ منصور: لا يستطيع أن يقول لا، فهو محاصرٌ ما بين روسيا وبريطانيا وملكه مهدّد بالضّياع، والسّفن الإنجليزيّة احتلّت الإسكندريّة بالفعل وتحاصر رشيد، وإنجلترا تقاتل معركة وجود لتستطيعَ أن تتفوقَ على جيشِ نابليون وتؤمن طرقها إلى مستعمراتها في الهند، وأملهم الوحيد في ذلك هو السّيطرة على مصر، وعلى رشيد تحديداً.

قالت هالة: إذاً فلا أمل لنا في العودةِ لرشيد إلّا بأن نجدَ السيد عمر مكرم، فهو الوحيد القادر على إقناعِ الناس بجدوى مقاومة المحتلّ والزحف إلى رشيد لقتالِ الإنجليز.

هب مجاهد قائماً وشدّ جسده بحماس: أرواحنا جميعاً فداء له، سنقلب الأرض بحثاً عنه، وسنجده ولو سُفكت دماؤنا أجمعين.

- مهلاً مهلاً... هل اتفقَ مجاهد وهالة أخيراً على مسارٍ واحدٍ للتّاريخ يناسب ذائقتهما، أم أن الفتاةَ جنّت ونسيت أنّها تتحدَّث عن تاريخٍ حدَث بالفعل، بينما مجاهد يتحدَّث عن أحداثٍ يتمنّاها ليغيّر بها واقعه المؤلم! -

قال حسن: لو أن عودته ستساعد في فكّ الأسرِ عن الإسكندرية، فسأبذل روحي في سبيل ذلك.

صاحت هالة: نعم، كان له دور عظيم في تحريضِ النّاس على المقاومةِ والجهاد، والكلّ يسمع له ويُطيع، وهو من يستطيع إقناعَ محمد علي بالعودةِ لمصر.

(أتصدّقون حقاً هذا الهراء؟! إنّكم جميعاً مجانين!)

صاحَ منصور في وجوههم وقد طفحَ الكيل وزاد: تريدون البحث عن عمر مكرم ليقوم لكم بثورةٍ شعبيةٍ على المحتل؟! حتى لو ثارَ أهل القاهرة أجمعين فلن يهتزّ للإنجليز شعرة بعد أن وطّدوا جيوشهم في رشيد والإسكندرية، بل سيسعون لقتل عمر مكرم فهو محسوبٌ على عدوّهم محمد علي، بل إن الإنجليز يظنّون أنّه نائبه ومرشدهُ الروحيّ، كيف لا تدرك عقولكم أبسط الأمور المنطقيّة؟! عمر مكرم هربَ واختفى لأنّه يعلم جيداً أنه مطلوب للقتل!

صاح مجاهد غاضباً: احفظ لسانك، السيد عمر لا يهرب.

التفت لهالة وهتف غاضباً: فلتحترق مصر كلّها، فذلك ليس عالمنا ولا تاريخنا ولا ناقةَ لنا فيه ولا جَمل، علينا أن نعودَ لعالمنا بأيّ ثمن، ولو بعنا أرواحنا للإنجليز ليدخلونا إلى رشيد.

حاصرته نظرات الاستنكار الغاضب منهم جميعاً، وهبّ مجاهد يقف أمامه ويهتف غاضباً: عبد العزيز، أفق لنفسك، أتعي ما تقول؟! لولا أنني أعرف أن هذا ليس لسانكَ الذي يهرف، لقطعته.

صرخ في وجهه: أنا لست عبد العزيز الذي تعتقد، أنا منصور، وإن لم تصدّق كلامي فاضرب رأسك في حجرِ صوّان.

- أخيراً نطق أبو الهول! -

أدارَ نظراته في وجوههم جميعاً: أعتذر عن مقاطعةِ أوهامكم، فلست سوى عابر سبيلٍ ضلّ الطّريق إلى هنا، ومضطرٌ للعودةِ إلى عالمهِ الحقيقي.

لم يستطع أحد منهم الردّ على كلماته التي لا يفهمون أغلبها، فأقبل على هالة وقال: اختاري، إمَّا أن تعودي معي للعالم الذي نعرفه، أو تبقي هنا للأبد وتفقدي ما بقيَ من عقلك.

قالت بريبة: أخبرني أولاً، فيمَ تفكر؟

قال: أفكر في أبسطِ وأسرعِ حل يدخلنا إلى رشيد، نذهب للقائم مقام ونطلب منه تصريحاً بالعودةِ لرشيد، ويرسل معنا رسالة أمانٍ للإنجليز.

عقدت حاجبيها وهتفت باستنكار: أتظنّهم أغبياء؟! ما المقابل الذي سيقايضنا عليه الإنجليز ليتركونا نعود لرشيد؟!

قال بثقة: المركب.

صرخت غاضبة: أجننت؟! لن أترك لهم مركب أبي.

مسح وجهه بكفّيه: يا الله، ليس هذا وقتاً مناسباً للغباء أبداً، مركب أبوك في العالمِ الحقيقي، تركناها هناك وغرقنا معاً في البوابةِ بين العالمين، ألا زلتِ تذكرين؟!

صمتت هالة تفكّر في كلماتهِ التي بدت بالفعلِ كطوقِ النجاة الوحيد لوضعهما المزري، لم يكن الأمر يتطلّب سوى مقايضة بسيطة مع الإنجليز، المركب الذي يحلمون به في مقابل عودتهما سالمين إلى رشيد والسّماح لهما بالغَوص في الماء أمام القلعة بأيّ حجة.

هل يمكنها حقاً العودة لعالمها الحقيقيّ بمثلِ هذه السهولة؟!

لم يستطع مجاهد أن يلجمَ غضبه لوقتٍ أطول، فهجم على منصور وأطبق كفّيه حول وجهه وصوّب لجبينه «روسية» صعيديّ كانت كمطرقةِ صلب نزلت على رأسه زلزلت كيانه: لو لم يعد لك عقلك فسأردّه لكَ بنفسي.

لا تتعجّب من غضبة الصّعيديّ وثورته، فتاريخه الطَّويل مع صديقه منصور - عفواً، أقصد عبد العزيز - تسمح له بأكثرِ من هذا، فهما رفيقيّ جهاد شهدا معاً أغلب الثّورات لأكثرِ من ثلاثةِ عشر عام، وقتما كانا لا يزالان فتيانِ لم يتجاوزا الثالثة عشر تعارفا في دروسِ الأزهر في عمرِ مبكر، وكانا معاً جنباً إلى جنبٍ وقت أن دنَّس نابليون الأزهر بخَيله، ثم اتفقا على تكوينِ عصابةٍ سريةٍ لاصطياد الجنود الفرنسيين وذبحهم في الأزقّة المظلمة، بعدها انضمَّ حسن وشرقاوي لهما في ثورةِ القاهرة الثانية ضدّ كليبر، والتي كانوا يدافعون فيها مع الناس عن القاهرة، وعندما أنشأ الشيخ الشرقاوي رواق الشراقوة بالأزهر وبدا لهم أنّهم سيتفرقون بين الأروقة، سارعوا إلى أهلهم وطلبوا من الأوقاف دار تجمعهم في جوارِ الأزهر حتى تبقى صحبتهم شاهدةً على جهادهم.

لم يستطع مجاهد أن يتحمَّل أن يرى صديقه الذي كان قدوةً له في الجهادِ والشّجاعة يتخاذل لدرجةِ أن يطلبَ العون من أعداءِ بلاده، فبادرَ بأخذِ زِمام الأمر نيابةً عنه، وقرّر في لحظةٍ أنّه عاجزٌ عن التّصرف وحدهُ وفاقد للتفكيرِ السّليم بعد أن فقدَ جزءاً كبيراً من عقله، بل وصار خطراً حتى على نفسه وأخته.

وتحمّل مجاهد اللّوم من رفاقه، وصرخة أم عبد العزيز الغاضبة وهي ترى ولدها يسقط بينهم وقد غشيهُ الدوار، لكن لا أحد في هذا العالم يمكنه الوقوف في وجهِ مجاهد أو صدّه عن شيءٍ هو مقتنعٌ بأنّه الحلّ الوحيد لإنقاذِ صديقه.

وقد قرَّر مجاهد ضرورة ربط صديقه في السَّرير النحاسيّ في غرفتهِ كي لا يُقدم على فعلٍ أحمق وهو فاقدٌ للأهلية، ودون استشارةِ أحدٍ قرنَ القولَ بالفعلِ وحمله على كتفه للغرفةِ وأرقدهُ على الفراشِ وهو شبه فاقدٍ للوعي، وأحضر حبلاً وربط يديه وقدميه في الأطراف الأربعة لعواميد السّرير النحاسيّ حتى لا يستطيعَ مغادرته، وتبعه الجميع للغرفة يطالبونه بالتّوقّف عما يفعل، لكنه لم يبالِ بأحدٍ منهم، وعندما انتهى، التفتَ لهم وصاحَ بصوتٍ مخيف: من يجرؤ على حلِّ قيدهِ سيكون آخر يومٍ في عمره.

خرج من الغرفة ليفاجئ بهالة أمامه تنتظر في البهوِ ولم تتبعهم، فأقبلَ عليها وقال مؤكداً: لا تصدّقيه، من يركن للظالمين يصير منهم.

ثم تركها ودخل غرفة حسن وصفعَ الباب خلفه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# النيران

كانت ليلةً عجيبة اشتعلت فيها أغلب غرف الدّار بنيرانِ الحيرة والصِّراعات والاختلاف في الرأي.

وكانت الغرفة الوحيدة التي يسودها الهدوء هي المقعد، والتي فضّل أن يبيتَ فيها عبد الله وترجمانه ليلتهما، حيث كان يسترجع كلّ أحدثِ اليوم ويدوّنها في أوراقهِ بلغتهِ بينما ترجمانه نائم، وقد انتهت مهمّته اليوم في الترجمة.

وفي غرفةِ مجاهد كان جسدُ منصور المربوط في السَّرير لا يكادُ يهدأ، بعد أن استيقظَ وفهمَ ما فعله مجاهد به، فأخذ يتلوَّى يميناً ويساراً يحاول الإفلات من الحبالِ فلا يستطيع، فيطلق السّباب واللَّعنات على ذلك الصّعيديّ المجنون الذي يذبح أمام عينيهِ آخر أملٍ له في العودةِ لعالمهِ الحقيقيّ.

أمَّا غرفة حسن فقد كانت جدرانها على وشكِ أن تشهدَ مشاجرةً بين الإخوة، فحسن وشرقاوي يعاتبان مجاهد على ما فعله برابعهم أمام أمّه، أمّا هو فقد تجمَّد عقله تماماً بأن هذا هو الحلّ الوحيد الأخير لإنقاذِ رفيق عمره من التورط بخيانةِ أهله وناسه.

وفي غرفة عبد العزيز كانت أم عبد العزيز تبكي فرحاً، وتكاد تطلق زغرودة تسمع بها كلّ من في البيت والحيّ بأكمله، وذلك عندما وجدت زوجها يفتح عينيه والدّماء تعودُ لوجهه، ويستردّ وعيه، وانكبَّت على رأسهِ ويديه تغرقهم بالقبلات والدّموع، وقالت بصوتٍ منتحب: حمداً لله على سلامتك، عبد العزيز ولدك، سيذبح الذّبائح شكراً لله على نجاتك.

رفع رأسه عن الفراشِ وعقد حاجبيه: عبد العزيز؟! بحثت عنه وقت اقتحامِ الإنجليز للبلدةِ ولم أجده، أين هو؟

قالت وهي تكفكف دموعها: في الغرفةِ المجاورة.

في غرفة شرقاوي التي ضمَّت الفتاتان لم تتوقّف حورية لحظةً عن الكلام عن مجاهد وشهامته ورجولته، فهو الصَّديق الصَّدوق والحامي والمجير لمن يعَرف ومن لا يعرف.

لكن عقل هالة كان في وادٍ آخر، فقد استلقت بجوارها على السرير تحدّق في السقفِ الخشبيّ دون أن تراه، ما زالت كلمات منصور تغشى أذنيها ولا تترك لها فرصةً لتنالَ غفوة تريح بها عقلها المشتعل بالصِّراع.

توقن بأن ما قاله منصور هو الحلّ الوحيد لنجاتهما، لكنّها غير راضية عن الطَّريقة، كيف لها أن تتعاونَ مع أعداء بلادها، وتمنحهم مركباً متفوقاً في التقنيات بمئتي سنة وأكثر؟! كيف تبيع للأعداء دماءَ مجاهد ورفاقه وعبد الله التي سالت لأجلِ إنقاذها؟!

بل كيف تبيع دماء أبيها المجاهد الذي يذود عن أرضه وعرضه؟!

انتفضت جالسة في الفراشِ وقد أدركت أنّها بالفعلِ أوشكت على الجنون، ما زالت تتخيّل أنه أبيها!

كانت تحاول أن توقظَ عقلها من هذا الجنون، وقد أصابها الرّعب من أنّها في لحظةٍ ما قد تنسى كلّ شيءٍ عن عالمها الحقيقيّ وتستغرق بعقلها وقلبها في هذا العالم الفنتازي، لكن ما كان يؤجل الأمر هو وضعها الغريب في هذا العالم، فلا هي ابنة الشّيخ ولا زوجته أمّها، ولا هي أخت عبد العزيز كما يظنّ أصحابه في هذا العالم، ليس لها شخصية حقيقيّة ولا موقع من الإعراب.

بالطَّبع أيّتها الغبيَّة، فلم ولن تكوني جزءاً من عالمِ تخيلتهِ وصنعتِ منه لعبةً أنا فيها اللّاعب الرئيسيّ والبطل الأوحد، لا مكانَ لكِ هنًا فأنت كالدمل الذي أتمنى إزالته والشّفاء من آثاره.

لم تسمع هالة من ثرثرةِ حورية الطَّويلة سوى جملة واحدة: أنا جائعة، سأذهب للمطبخ وأبحث عما تبقَ من طعامِ الغداء.

انتبهت هالة أنها صارت وحيدةً في الغرفة، وكان عليها التحدّث لمنصور بعيداً عن أيّ أذنٍ قد تتدخّل في الحوارِ وتشتتهما عن هدفهما، فأسرعت تتسلّل من الغرفةِ قبل أن تعود حورية وهي تتحسّس الطَّريق بحذرٍ بالغ، وامتعضت ملامحها عندما تخيَّلت أن أم خاطبها قد تفتح بابِ غرفتها في أيّ لحظةٍ لتجد فتاةً غريبةً لا تعرفها تتسلّل لغرفةِ ابنها بعد منتصفِ اللّيل.

لا تستطيع هالة أن تفهمَ حقاً لِمَ تسير حياتها من سيءٍ لأسوأ، أهو سوء اختيارٍ أم نحس يلازمها؟!

دخلت غرفة مجاهد، لكنها فوجئت بأبيها وأمّها قد سبقاها لهناك، فتجمَّدت مكانها وقد ارتجَّ جسدها كلّه بضرباتِ قلبها المضطرب، لا لخشيتها من أن يظنا بها سوء، بل لأنها لأوّل مرةٍ ترى والدها الرّاحل واقفاً على قدميه، وكأنه هو رغم طول لحيته التي ملأها الشيب.

لم ينظر إليها أبداً، بل لم ينتبه لوجودها فقد كانت عيناه مسلطتان على منصور الذي يمثّل دور ابنه عبد العزيز في اللّعبة، ومنصور ينظر له بقلقٍ وترقبٍ ينتظر أن يحلّ قيده ويفكّ الحبل من يديهِ وقدميه، لكن الشيخ سلامة لم يتكلّم، بل دارت عيناه في جدرانِ الغرفة وتوقّفت عند خنجرٍ مرصعٍ معلّقٍ للزينةِ على الجدار - كما كانت عادات البيوت ذلك الزمان، فالشّباب يعلّقون السيوف والخناجر على الجدرانِ للتباهي والزّينة بدلاً من صورِ الممثّلات ولاعبيّ الكرة في عصرنا الحديث - فاتّجه إليهِ وانتزعه من غمدهِ والتفتَ ينظر لولدهِ بعينين تسكبان الشرّ والغضب.

أطلق منصور صرخةَ استغاثةٍ عنيفةٍ عندما رأى الخنجر يتّجه مباشرةً لموضعِ قلبه وكانت الصَّرخة باسمِ الشَّخص الوحيد الذي يألفه في هذا العالم العجيب (هالة).

لم يكن منصور وحده صاحب الصَّوت المدوّي الذي أخرج جميع من في الدَّار من غرفهم ليقتحموا في التوِّ غرفة مجاهد، بل صوت حورية التي كانت تمرّ لحظتها من أمام باب الغرفة قادمة من المطبخ، ودخلت بسرعةٍ عندما سمعت صوت منصور

يصرخ، وعندما فوجئت بالشيخ سلامة يهمّ بقتلِ ولدهِ وأمّه تقف أمام وجهه تحاول جهدها منعه، رقعت بالصّوت الحَيّاني.

وقف الشباب في وجه الشيخ سلامة وحالوا بينه وبين منصور، فأخذ يصرخ بغضبٍ هادر: دعوني أقتل الخائن.

لفَّ حسن ذراعيهِ حول خصره، وأمسك شرقاوي برسغهِ ليمنعه من غرسِ الخنجرِ في جسدِ منصور، لكنه فوجئ بقوةِ الشَّيخ وثباته، وسقطت أم عبد العزيز عند قدمي زوجها، وأخذت تصرخ وتبكي وترجو وتتوسّل أن يعفوَ عنه ولا يقتله.

كانت الغرفة في حالةِ فوضى عارمة، عبد الله وترجمانه يحاولان أن يفهما ما يحدث لكن صراخ حورية المتوالي وهي تلطم خدّيها، ونحيب أم عبد العزيز كانت هي الأصواتُ الطَّاغية على المكان.

ولم يكفّ منصور عن الهتافِ باسم هالة لتنقذهُ وتحلّ قيده، لكن هالة وقّفت كتمثالٍ أصمٍّ لا تشعر بشيءٍ مما يجري حولها، فقد كانت في عالمٍ آخر، فصوت نحيب وعويل أمّها وهي تكرّر كلمة لا تفعل، وقد ركعت تمسك بساقي أبيها وتشدّ عليها كي لا يتركها ويترك أولاده ويسافر على مركب - من يذهب لا يعود -

ومنظر الشيخ سلامة وهو واقفٌ يشدّ جسده بثباتٍ ووجهه متجهم جامد تحجّرت خلف مقلتيه دمعات أخفاها خلف قناعٍ من القسوةِ والجمود كي لا يضعف لدموعِ زوجته وبكاء ولديه.

أخرج من ذكرياتها تلك الطّفلة الضَّائعة التي كبرت فجأةً وقد غادرت مرحلة الطُّفولة مبكراً جداً بعد أن شهدت أقسى مشهد يمكن أن يمرَّ على طفلةٍ في عمرها، فطبعَ في قلبها صورةً مرعبةً عن السّفر والفراق والحياة بلا رجل.

كانت فعلياً غائبة عن الوعي لا تسمع صوت منصور وهو يناديها لتنقذه من خنجرِ الشيخ سلامة.

وقت مستقطع من فضلكم...

حسناً، أبي وجدَ الحلّ الوحيد والمثاليّ لتلك المعضلة التي وقعت بها.

الشيخ سلامة يستحقّ بالفعل أن يكون والداً لذلك العبقريّ الذي هو أنا، فالحل الوحيد لإنهاءِ اللّعبة التي سرقَ مني منصور دور اللّاعب الرئيسّي فيها هو قتلُ اللاعب فينتهي دورهُ في اللّعبة، ووقتها فقط أستطيع البدء بلعبةٍ جديدةٍ يكون التحكّم فيها من على اللّابتوب لا موبايل هالة، وأكون أنا البطلُ الحقيقيّ فيها، لا شخص آخر دخلها عن طريقِ الخطأ.

هيا يا شيخ سلامة، افعلها لأجلِ ولدكَ الوحيد واقتله، اترك شيئاً واحداً جيداً لولدك يذكرك به بعد موتك ويترحّم عليك.

أخذت أراقب الخنجر في يدهِ وهو يقتربُ من صدرِ منصور ويقاوم كلّ تلك العقبات التي أمامه، اقتله يا شيخ سلامة وستخلّد شركات الألعاب الشهيرة اسمك بكلّ امتنانٍ

أنك صاحب الفضل في إنهاءِ جيم تاريخي ليس له مثيل.

هيا اقتله لا تستسلم لهؤلاء المعتوهين...

اقتله... اقتله... اقتله...

وفجأةً توقّفت الذّراع الحاملة للخنجرِ في منتصفِ الطَّريق ولم تكمل هدفها، هل تعطلت اللعبة؟!

كنت أضرب لوحة المفاتيح بعصبيةٍ وأنا أصرخُ وكأنما ستعمل خاصية التّحكم بتلك الطّريقة السّاذجة! لكنني وصلت بالفعل لأقصى درجاتِ الإثارةِ والانفعال وأنا في آخرِ لحظات إنهاءِ الجيم.

لكن يد قويةً منعت يد الشّيخ سلامة من الوصولِ لهدفها.

انتابتني هستيريا من الحقدِ على ذلك الذي حرمني مجدداً من أن أكونَ بطلاً في لعبتي الخاصّة، لكن لا أملك إلا الإعجاب بقوّته وصلابةِ ذراعه وثبات أعصابه، فقد أمسك بيدِ أبي التي تحملُ الخنجر وأوقفها فلم تتحرّك.

صرخَ الشيخ سلامة في وجهه: دعني أقتله، إنه خائن.

رد بتعقل عجيب لا يناسب الموقف أبداً: لا، لن أتركَكَ قبل أن أنفذَ أمر الله «فتبيّنوا» لعلّ الأمر اختلطَ عليك، أو كان وشاية من أحدهم، فلنذهب للمقعد وتحكي لنا ونتبيّن إن كان خائناً حقاً أم لا، حتى لا نحمل وزرَ روحٍ أُزهقت ظلماً.

كان عليَّ أن أرميهُ بكلِّ سبابٍ تعلّمته يوماً في حياتي، فهذا الصعيديّ حرمني من حلمي ولعبتي والآن لا زلت كما أنا، خارج اللّعبة ومنصور بداخلها يحمل شارة البطل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اجتمع الجميع مجدداً في المقعد، وأطاعت حورية أمر مجاهد بخوفٍ عندما صاح في وجهها: ابقي هنا ولا تغفلي عنه، وإياكِ أن تسمحي لأحدٍ أن يدخلَ عليه أو يفكَّ وثاقه.

كان الجميع يتحلّقون حول الشّيخ سلامة وعيونهم معلّقة بثغرهِ ينتظرون ما سيقول، وزوجته مطأطأة الرأس تمسك برأسها ألماً وتذرف دموع القهر كمداً، واستسلمت للخضوعِ والصَّمت، فهي تعرف زوجها جيداً، لا يمكنها أن تغيرَ رأيه أبداً.

أخذ الشيخ سلامة يحكي القصّة من البداية...

استسلمت الإسكندرية ودخلها الإنجليز، وقتها أدرك كلّ أعيان رشيد أن طريقَ الإنجليز للقاهرة لا بدَّ وأن يمرَّ برشيد أولاً، وهذا ما أكّده بالفعل القنصل الفرنسيّ عندما التقى المحافظ بعد أن دخلَ الإنجليز الإسكندريّة، فالخطَّة الظَّاهرة لهم هي أن يزحفوا بجنودِ المشاةِ إلى رشيد ويستولوا عليها.

وكان القنصل الفرنسيّ بالفعل مخلص النّصيحة صادق القول، فهؤلاء لا يهمهم شيء سوى مصالح بلادهم، واستيلاء الإنجليز على الإسكندرية ورشيد يعني قطع الطّريق على فرنسا وضرب مصالحها التجاريّة في المنطقة.

اجتمع الشيخ حسن كريت والمحافظ علي بك السلانكلي مع العلماء والأعيان وشيوخ الحرف والطّوائف في بيت القاضي، واتفقَ الجميع على رأيٍ واحد، واجتمعوا على قلبِ رجلٍ واحد، وعزموا على دفعِ المحتلّ عن رشيد والمقاومة حتى الاستشهاد.

ومنذ تلك اللّحظة لم ينمْ أحدٌ في رشيد، الجميع يعدّ لهم ما استطاعَ من قوّة، يجمعون الأحجار والعصيّ وكلّ ما يصلح كسلاحٍ ويخزنوه في البيوتِ استعداداً للمعركة، وأمر شيخ طائفة الحدادين رجاله بتجهيزِ أعدادٍ كبيرةٍ من كلّ ما يصلح كسلاح، مثل منجل الفلاح ومسيف القفاص وساطور الجزار، وأخفاها في بيتِ الشيخ حسن بجوارِ مسجد زغلول حتى يوزّعها على كلّ من يحتاج سلاح.

بل إن النّساء أيضاً تجهّزن وأعددنَ العدّة ليقاتلن من أسطحِ البيوت، فملأنَ الصّهاريج التي في بيوتهن بالماء، وأشعلن الأفران فوق الأسطح استعداداً لغلي الماء ليسكبنَه فوق رؤوس الإنجليز عند دخولهم رشيد، بل وتطوّع أصحاب السيارج بأن يمدّوا النّساء بالزّيت ليرفعنَه فوق الأسطح ليحلّ محلّ الماء فهو الأقوى وقدرته على الشوي أفضل.

وأمر علي بك بإبعاد المراكب عن برِ رشيد إلى البرِ الثاني حتى لا يهرب جنود الحامية العثمانية كما فعلت حامية دمنهور من قبل، لكن خطّة الإنجليز تغيّرت بعد أن وصلوا إلى تلّ أبي منضور، وامتنعوا عن دخولِ البلدة وربضوا حولها وفوق التّلال وحاصروا البلدةَ ونصبوا المدافعَ باتجاهها، وانهالت على رشيد القذائف والقنابر لشهرٍ كاملٍ

مات فيه الكثير من الناس، وعادت المراكب إلى برّ رشيد ليلاً في مؤامرةٍ خبيثةٍ لم نكن نعلم من دبَّرها، فهربت الحامية كلّها على متنِ المراكب، وبقيَ الناس وحدهم في مواجهةِ القنابر والنار.

وأرسل السّعاة مكاتيب للقاهرة، للباشا والعلماء والسيد عمر النقيب، لم يرسل الباشا جنوده، لكن السيد عمر النّقيب كان يرسل البارود والزّاد والمؤن لأهل رشيد المحاصرين.

وأدرك علي بك أهميّة حمايةِ الطَّريق من القاهرة لرشيد حتى لا ينقطعَ عنهم المَدد، فأرسل شباب المجاهدين إلى الحماد، وخرجت معهم أنا وذلك الخائن بأسلحتنا، وقسمنا أنفسنا مجموعاتٍ لحمايةِ القرية.

لكننا أدركنا أن هناك واشياً خائناً من رشيد أبلغ الإنجليز بما يحدث، كما أبلغهم من قبل بخطّة علي بك والأعيان في المقاومة، فتحرّكت فرقُ الجيش الإنجليزي نحو الحماد، فقاتلناهم حتى قتلوا منا الكثير، ودخلوا الحماد واستولوا عليها، فانسحبَ البقيّة الباقية منّا إلى رشيد.

لم أصدّق عندما أبلغني أحد الشباب بأنه رأى ولدي يخرج من المعسكرِ الإنجليزيّ في الحماد ليلاً متسترا متلصصاً، بل وكدت أقتله، ولكنني تركته ولم أخبرَ أحداً حتى أتبيّن الخبر، وكانت الطَّامة الكبرى عندما اقتحمت القوّات الإنجليزيّة رشيد بعد أن أنهكوا أهلها وأهلكوهم بالقنابر والحصار، فخرجنا مع علي بك السلانكلي نناوشهم ونقاومهم، لكنهم أعدّوا لنا كميناً وقتلوا منا الكثير وأسر علي بك السلانكلي وجرحت جرحاً بالغاً، وقبل أن أغيبَ عن الوعي، عرفت من هو الخائنُ الواشي الذي أرسلَ للإنجليز خطّ سيرنا وأماكن تواجدنا وما اتفقنا عليه من خطط، لم يعد لدينا أدنى شكّ في شخصهِ بعد أن تواترت الدَّلائل وشهد الشهود الثقات.

هبّت هالة قائمة وهتفت باستنكار، لا ليس هو... ليس منصور، إنّه ذلك «الزفت» عبد العزيز، هو من دبَّر لكلِّ هذا.

- أخيراً فهمت «الشبشب» القصّة وخطّة اللّعبة التي وضعتها-

لم يهتمّ الشيخ سلامة لكلماتها المجنونة، فهو لا يعرف من منصور، ومن الزفت، وبالفعل عبد العزيز هو من فعلَ كلّ هذا، فقد قال بعزيمة: لقد تمَّ الحكم عليه بالموت، والتّنفيذ واجب.

أدركت هالة أن لا أحد سيسمعها، فليس بعد كلام الشيخ سلامة كلام، نظرت لأمّها، فاشتعلَ الغضب في عروقها، أمّها دفعت ثمناً فادحاً، فقد سقطت بين زوجٍ جبارٍ لا يتنازل عن رأيهِ وبين ابنٍ لا يرعى أمّ، ولا يعرف حقّ، وليس لديه أدنى قدر من ضميرٍ أو إحساس.

- إحم... شكر للإطراء اللطيف ـ

لكن من سمعها هو مجاهد، فقد هبَّ من مكانهِ وقال للشّيخ سلامة العازم على قتلِ ولده الخائن المربوط في الغرفةِ المجاورة: فلنسمعها أولاً، ربّما كان لديها شيء لا نعرفه، قولي ما تريدين...

نهض الشيخ سلامة من مقامه وبدا الإصرار في عينيه: لم يعد هناك حاجة لأيّ كلام، إنّه القصاص العادل لشهداء رشيد.

كانت تقف أمام أبيها وقد ذابت كلّ الحدود في عقلها، ما زال كما هو صلباً ثابتاً يتمسّك برأيهِ ولا يتزحزح عنه أبداً مهما حدث، حتى لو قهرَ قلب أمّها وأدماه.

ما زالت تعيش لحظةَ رحيلهِ المرعبة بتفاصيلها.

لم يستطع عقل هالة أن يتحمّل كلّ هذا الخلط العجيب بين ذكرياتها عن أبيها وبين الفانتازيا التي وقعت فيه وتعيشها مرغمة كواقعٍ لا يمكنها الخلاص منه، وكان على وحدة الطاقة في عقلها أن تتوقفَ لتحمي «الهارد وير» من الاحتراق، فأظلمت الدّنيا في عينيها وسقطت مغشياً عليها أمام الجميع.

عندما عاد عقل هالة بعد عمل «ريستارت» وجدت نفسها في الغرفةِ وحول رأسها حوريّة وأمّها، فنظرت في وجهِ أمّها طويلاً بصمت، ما زال وجهها مشتعلاً بحمرةِ الحزن وعينيها مغرقتانِ بالدّموع، والانكسار والألم يملأ ملامحها.

قالت: هل أنت بخير يا بنيتي؟!

هكذا هي أمّها، ترعى القريب والغريب مهما كان ألمها وحزنها، وتقدمه حتى على نفسها.

انسكبت دمعة من ركنِ عينيها، والألمُ العميق في قلبها يتعاظم أضعافاً، وغرقت في بحور سوداء من الغربة والوحدة، وأدركت أن عليها وحدها أن تنقذَ نفسها من هذا العالمِ الموحش قبل أن يذوبَ عقلها في كلّ هذا الجنون.

تركتها أمّها مع حورية في الغرفةِ بعد أن أوصتها بها، وعادت للمقعدِ وقد وصلَ إليهم صوت جدال الرّجال، فما زال مجاهد لا يصدّق ما يقال عن صديقهِ وشريكهِ في الجهاد لسنوات، يخشى أن تتلوّث يداه بدماءٍ بريئة، ويحاول إقناع الشيخ سلامة بأن يتروّى حتى يعودَ له عقله الذي فسدَ من وقت غرقه تحت الماء.

عندما خلت الغرفة عليها هي وحورية، اعتصمت بالصَّمت لكن حورية لم تكفّ عن الكلام والثرثرةِ والتحسّر على شباب الفتى الوسيم المحكوم عليه بالإعدام، فأدركت هالة أن منصور في خطرٍ، وكان عليها التصرف، فطلبت من حورية طعاماً يقيم جسدها، فأطاعت مرحبةً وذهبت على الفورِ للمطبخ، فأسرعت هالة دون تردّد إلى الغرفةِ التي بها منصور، واطمأنت أن الكلّ مشغولٌ بالمعمعةِ التي في المقعد.

انسلَّت داخل الغرفة، ونظرت من فرجةِ الباب قبل أن تغلقه كي تتأكد أن لا أحد قد رآها، ثم أقبلت عليه تفكّ وثاقه بسرعة، وحرص هو على خفضِ صوتهِ وهو يقول بغيظ بالغ: أخيراً اقتنعت أن هؤلاء المجانين سيغرقوننا معهم؟!

قالت بأسف: لقد اقتنعت بشيءٍ واحدٍ فقط، وهو أن لي أمًّا صارت الآن وحيدةً وعليَّ العودة لها بأيّ ثمن.

- حسناً، لعلّكم لاحظتم أن الهانمَ تغفل ذكري متعمّدة، بل لا تعتبرني أحد أفراد العائلة من الأساس، فلتحترق في الجحيم هي والأبله الذي انزلقَ للهاويةِ بإقدامه على خطبتها ـ

لم يطل منصور في الحديث، بل قرَّر أن هدفَ العودة لعالمه أثمن بكثيرٍ من مهاتراته معها، فتسلّل من باب الغرفة وهي خلفه، ثم انطلقا معاً خارج البيت يركضان على ضوءِ فوانيس الشَّوارع المضاءَة بالجاز، فقد دخل اللّيل دون أن يشعرَ أحد، فالوقت هنا يمرّ عليهما في دقائق.

هتفت به: إلى أين سنذهب؟!

قال بعجلة: إلى الكتخدا أولاً ليمنحنا رسالةَ أمانٍ نستطيع بها أن ندخلَ رشيد دون أن يقتلنا الإنجليز.

رغم أنه عاش في القاهرة لفترةٍ طويلة، لكن لم يكن سهلاً عليه أن يعرفَ الطَّريق في اللَّيل وفي عالمٍ أقدم من عالمه بمئتي عام، لذا كان عليه الاستعانة بصديق، ومن غيري أنا سيرشدهُ لطريقٍ على خريطةِ لعبةٍ اقتبستها من كتبِ الجغرافيا القديمة - والتي كانت تسمّى بخطط البلدان - وبرمجتها بنفسي في اللّعبة.

ولقد أدرك هو هذا فاتصل بي من الهاتف الذي لم يفارق جيبه لأدله على الطريق للقلعة، وكنت مضطراً رغماً عن أنفي أن أعاونَ اللّاعب الأساسيّ وأدلّه على الطَّريق حتى لو لم أكن أطيقه وأتمنّى أن يموتَ ليخرجَ من لعبتي وأدخل مكانه، فإن لم أعاونه على العودةِ قد يبقى في اللّعبة ولن تنتهي.

عندما وصل الرميلة (ميدان القلعة الآن) وقف أمام حرسِ القلعة يطلب منهم السَّماح لهما بلقاءِ الكتخدا وعرفا عن نفسيهما بأن الكتخدا أرسلَ الدلاة في طلبهما من قبل، لكن المماليك اختطفوهما على بابِ القاهرة، كان عليهما الانتظار حتى يبلغ الحرس الكتخدا، وقضى منصور فترةَ الانتظار في تأمّل أسوارِ القلعة وميدانها الذي كان هادئاً ليلاً.

قلعة صلاح الدّين – التي تسمّى في ذاك الزمن قلعة الجبل - يعرفها جيداً من حياتهِ السّابقة أيام الجامعة.

في هذا الزمن هي مقرّ الحكم، وفيها يتحصَّن الباشا وكلّ باشا يحكم مصر في ذاك العصر، هنا حاصر الشّعب المصريّ خورشيد باشا بقيادة عمر مكرم حتى عزلوه وأجلسوا مكانه محمد علي، الذي ما كان يأمن على نفسه من الاغتيالاتِ والانقلاباتِ إلّا في القلعة.

سمح لهما الحرس أخيراً بدخولِ القلعة والتصقت هالة به وتعلَّقت بساعده فشعر برجفةِ جسدها، لكنّه لم يستطع أن ينظرَ إلى وجهها حتى لا ينسكبَ الخوف من عينيهِ فتنفضح روحه الهشّة ويتعرّى ضعفه أمامها وهما يجوبان الممرّات المُظلمة خلف الحرس، وينزلان سلالم حجريّة تصل إلى دهاليز طويلة بلا نوافذ ولا يأتيها نور إلّا من مشاعل متراقصةٍ يلقي ضوؤها الرّعب في القلوب، وعقله يتساءَل هل تلك الطَّريقة في الإضاءة مقصودة لبثِّ الرّعب في النفوس! يختلف الزمن ولا تختلف طرق تفكيرِ رجال الأمن في كلّ العصور.

تلك الأجواء أعادت لذاكرته أحداثاً مرَّت عليه سابقاً حطمت روحه - التي كانت وقتها برعماً صغيراً لم يتفتح بعد - وقتلت الكثير من الأمل بداخله.

كانت ساعات الانتظار في الحجرةِ شبه المظلمة التي وضعهما الحرس بها جحيماً تصدّعت فيها روحه وهو يتخيّل كلّ لحظة ما قد يحدث له هنا في القلعة، هل ستبدأ حفلات التّعذيب؟! هل سيهددونه بهالة؟! هل يتركونه حتى يدلّهم على مكانِ المركب ثم يقتلونه؟!

لقد ذهب إليهم بقدميهِ ليكون في موقع الأقوى في التّفاوض، لكنّه أدرك أن مع سلطةِ القلعة لا يمكنه أن يكونَ أبداً في موقعِ أقوى.

انتفضت هالة بجوارهِ فأخرجته من استغراقهِ في أفكاره، ورفع رأسه ينظرُ إلى ذلك الرّجل الذي دخلَ عليهما الحجرة شبه المظلمة، كان الضوءُ ضعيفاً خارج الحجرة ولم يتبيّن منه سوى هيئتهُ والعمامة واللّحية وعباءَة طويلة.

وقف الاثنان وشعر منصور بهالة تلتصقُ به، ولم يتبيّن هل كانت تلك الطّبول التي تدوي في أذنيهِ دقّات قلبه، أم قلب هالة، أم كليهما؟!

دخل الحرس ثم الترجمان ومن بعدهم ذلك الغامض الذي يبدو وكأن المكان كله تحت سيطرته والأشخاص كلّهم رَهن إشارته، وبمجردِ أن مرَّ بجوارِ أحدِ المشاعل حتى شهقت هالة برعبٍ وهتفت بصوتٍ محشرجٍ: عمي؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الكتخدا

عرفت هالة وجههُ وملامحهُ الواضحة برغمِ اللّحية الكثيفة والشارب المبروم.

جحظت عينا منصور وغصَّ حلقه وانقطعت أنفاسه فالمفاجأة أقوى من قُدرته على التحمّل، لا يمكنه أن يستوعبَ أن يواجه شخصيّة والده الجبّارة في صورةِ سلطةِ الكتخدا (نائب الباشا).

- ما الذي كنت تعتقده في يا زوج أختي العزيز؟! عبقريٌّ مثلي عندما يختارِ شخصيّة رئيسيّة للبطل المضاد في لعبة كتلك فهل سيختار أحد سوى عمّ كأبيكَ الجبار؟! ـ

بدأ الكتخدا يتحدّث بلغةٍ غير العربيّة، فقام جوجل بوظيفتهِ على أكملِ وجه – أعني الترجمان - ولو كان الأمر بيدي لمنحت الترجمان علامة التقييم ٧ نجمات وأكثر، فهؤلاء القوم محترفون في عملهم: بلغنا أنكما تطلبان لقاءَنا، ماذا تريدان؟

قال منصور وهو يحاول جاهداً إخفاء خوفه: هل يمكنني أن أعرفَ إلى من أتحدَّث؟

قال الترجمان: أنتَ في حضرةِ الكتخدا، وهو قائمُ مقام الباشا لحين قدوم فرمان السّلطان باسم الباشا الجديد.

عقد منصور حاجبيه وداهمه قلقٌ شديد، ترى من هو الكتخدا؟! أخذ يعصر ذاكرته ليبحثَ فيها عمّن كان كتخدا في تلك الفترة ولكنّه لم يستطع أن يتذكَّر، هو متأكدٌ من أنه يعرف جيداً من هو الكتخدا في تلك الفترة الزمنيَّة التي لم يترك كتاباً كتب عنها إلا وقرأه، لكنّه نسيَ تماماً رغم شهرته بين زملائه بقدرتهِ العظيمة على حفظِ التاريخ.

وليته ما سأل من هو الكتخدا فقد أجابه الترجمان بما كان عقله ينكره ويضعه في حجرةِ النّسيان قسراً حتى لا ينهار رعباً، فتجمّد من الصَّدمةِ وفغرَ فاه، وانقبضَ قلب هالة بعنفٍ فقد شعرت بأن الخطب جَلل، فاقتربت منه وهمست في أذنهِ بخوف: من هذا؟!

قال بأنفاسٍ مبهورة: إنه المادة الخام لرجلِ الأمن المخلص، حلم كلّ دكتاتور، ذلك القادر على بناءِ امبراطوريةٍ أمنيِّة عظيمة، تثبت أركان حاكمٍ في الحكمِ لعشراتِ السنين، بل وتبقى لسلالته من بعدهِ لمئة عامٍ وأكثر.

قالت بغيظ: أخبرني من دون مقدّمات دراميّة من يكون

قال: أعرّفك على الكتخدا صاحب الضَّربة الأمنيَّة الأولى والذي أرسى القواعد الماليَّة والأمنيَّة لتأسيسِ مصر الحديثة إن كنت تهتمّين بمبدأ التأسيس، إنّه وزير الماليّة لسنوات ووزير الحربيّة لسنوات، والكتخدا... أعني رئيس الوزراء لسنوات.

إنه محمد باشا لاظ أوغلي، والمشهور في عصرنا الحديث باسم «لاظوغلي»

قالت: معلوماتي أن هذا الاسم هو اسمُ ميدانٍ شهيرٍ في القاهرة.

قال: نعم شهرته استمدّها من أنّه أكبر مقرٍّ أمنيٍّ في مصر.

قالت: وما الذي يريده منا؟! ولماذا أرسل الدلاتية للإمساك بي؟!

هذا السؤال لم تحصل أبداً على إجابة له، فبإشارةٍ من إصبع الكتخدا أمرَ بنقلها لمكانٍ لا يعلمه منصور، ولا هي أيضاً تعلمه، فقد سحبها الحرس رغماً عنه وعنها ولم يبالوا بصرختها الفزعة باسمهِ ولا بهلعهِ ومحاولتهِ التمسّك بها، وفي النّهاية وجدت نفسها في جناحِ الحريم، وانقبضَ قلبها بشدَّة، عندما تذكَّرت كلمات حورية التي تفضّل أن تكونَ جاريةً في بيتِ أحدِ المماليك على أن تسرحَ في الموالد، لم تكن هالة تريد هذا المصير، ففكرة العبيد والإماء صارت مُجَرَّمة في العالم ما يزيد على مئةِ عام - الحمقاء لا تعلم أن الاستعباد ما زال موجوداً، ولكن بأسماَءٍ أخرى وينقصه فقط التصنيف ـ

فما أكثر الذين يعاملون معاملة العبيد في عالمنا المتوحش، فالطالبُ عبدٌ لنظامٍ مدرسيٍّ عقيم ومعلّمين لا يفقهون شيء، والعامل عبدٌ لمديرٍ يجبره على العملِ كترسٍ في آلة بأجرةٍ زهيدة، والمرأة عبدة في البيتِ الذي تعيش فيه إمّا لزوجٍ أو أبٍ أو أخٍ يتحكّم في مصيرها مقابل إنفاقه عليها إمَّا برضاها أو رغماً عنها، والوَلدُ عبدٌ عند أبيه الذي ينفقُ عليه ولا يترك له فرصةً لاختيارِ الطريقة التي يعيش حياته بها أو حتى الفتاة التي سيتزوّجها، اسألوا عن هذا منصور الذي لا يحمل من حروف اسمه شيء.

حتى هالة التي تبدو لكلّ من يعرفها حرة مبادرة قويّة صاحبة قرارها، هي في حقيقةِ الأمر عبدة بشكلٍ أو بآخر.

حسناً، كفى فلسفة ولنعد لمنصور الذي صار وضعه حرجاً للغاية، فهو الآن بين أنيابِ أسدٍ مفترس.

فبعد أن أرسل اسمه مع ساعي إلى الجنرال ستيوارت في رشيد، أخذ يستجوبه بشراسةٍ عن عائلتهِ وأصدقائه وما فعله في رشيد والقاهرة، ولا يدع له فرصةً للتّفكير أو حتى محاولة الكذب، أعتقد أن اختراعَ جهاز كشف الكذب فكرته مستمدّة حصرياً من هذا الكتخدا، ولو أن هناك بعض من عدالة في العالم لسمَّي هذا الاختراع باسمهِ حصرياً، أضف لهذا أن منصور كان خاضعاً بشكلٍ مستَفز لسيطرةِ أبيه الذي يحمل الكتخدا وجهاً متطابقاً لوجهه، وهو يعلم جيداً من أيّ جزءٍ يأكله، وهذا تماماً ما فعله الكتخدا لاظوغلي، فهو يدرك بذكاءٍ نقاط ضعفِ الخَصم، وبها يُخضعه لسيطرتهِ التامّة، ونقطة الضّعف هذه المرّة واضحة جداً ومباشرة، الآن هو مهدٌّد بهالة، وإرسالها لحريمِ القلعة أو بيعها لأحدِ الأعيان.

كيف يمكنه الهروب من ذلك الحصار الذي فرض عليه من الكتخدا؟!

تذكر أخيراً لماذا ذهب بقدميهِ للقلعة، حسناً... لديه حقاً نقطة قوّة يساوم من خلالها، إنّها المركب التي يريدها الإنجليز، لم يكن يعتقد أن المُساومة ستكون بهذه السّهولة، فزوجته المستقبليّة تمتلك شيئاً يسعى الجميع خلفه، إنّه مركبٌ سحريّ بمقاييس ذلك العصر الذي لم يعرف بعد قوّة الفحم والبخار والبترول، وكانت المساومة تتلخّص

في أن ينقلهما الكتخدا إلى رشيد ويطلب من الإنجليز السَّماح بعبورهما حتى القلعة، حتى يدلّه على المركب، لكن الكتخدا ليس ساذجاً لهذه الدرجة، وإن دخلَ مساومة فإمّا أن تكون له اليد العليا أو يستخدم أساليبه مفرطة القوّة لتحقيق السيطرة التامة.

وكان الضّغط هذه المرّة هو ما أتى «بآخر منصور» فقد خيّره إمّا أن يذهبَ به لمكانِ المركب، أو لن يرى هالة أبداً، بل لن يرى ضوء الشّمس نفسه ولا حتّى القمر، والآن عليه أن يرفعَ راية الاستسلام ويخضع لكلّ الشروط.

لكن الكتخدا أظهر كرماً كبيراً بأن منحه وعداً باشاوياً بالسَّماح له بالعودةِ لرشيد ومعه هالة في حراسةِ جنود من القلعة، فقط إذا ما قبلَ الإنجليز بدخولهما رشيد.

اقترب حلمه بالعودةِ لعالمه، فقط يدلّ الكتخدا ورجاله على مكان المركب الذي أخفاه حسن في بولاق، وضعوه على بغلةٍ تتوسّط الموكب الأمنيّ وحوله جنود الباشا، وأمامه الكتخدا على حصانٍ بلونِ تلك الأيام التي غُرز فيها رغماً عن أنفه، كان ينظر للبلدةِ العتيقة من أعلى البغلة وهو متّجه من القلعةِ إلى ساحلِ بولاق، تتغيّر المعالم والمناطق ولا يتغيّر البشر ولا الأحداث.

وصل الموكب لبولاق وأشارَ لهم منصور نحو المكان الذي أخفى فيه حسن المركب، واقتربَ الموكبُ من المركبِ وعين منصور على الخيش الذي يغطّي هيكله، يستطيع الآن أن يودّع ذلك الزّمن ويعود لزمنهِ الذي يعرفه ويألفه، فلم يعد بينه وبين العودة سوى أن يأمرَ الكتخدا بعودتهِ هو وهالة إلى رشيد.

ليت الأمنيات تتحقّق بمثلِ سهولة التَّفكير بها، لكن أمنيات منصور منذ أن وعى وأدرك دائماً ما تتساقط أمام عينيه كأوراقِ الشجرِ الصفراء الذّابلة قبل أن تكبر، لكن هذه المرّة كان عدم تحقّق أمنيته يعني هلاكه، وهذا ما رآه جلياً في عيني الكتخدا بعد أن أزاحَ الجنود الخيش عن المركب ليبدو تحتها مركبٌ أخر لا يعرفه، كانت نظرات الكتخدا تحمل له الموت المرتقب، ومصير لهالة أسوأ من مصيرِ حورية الغازية.

بكلمةٍ واحدةٍ من الكتخدا ارتدّ الموكب عائداً للقلعةِ وروح منصور تَصَّعَّد في السّماء رعباً مما سيفعله به الكتخدا، وعلى مرمى البصر، ومن مكمنٍ لا تصل أبصار الجند إليه، كانت ثمانية من العيون تراقب الموكب الذي يسيرُ بمحاذاة الشاطئ بحذر، همس شرقاوي لحسن: كنت محقاً بتغييرِ مكان المركب، من كان يصدّق أن عبد العزيز الذي لا يخشَ في اللهِ لومة لائمٍ صار خائناً عدواً لله؟!

قال مجاهد وشفتاه ترتعشان غضباً وهو ينفثُ النّار من أنفهِ كتنين: سأقتله... سأقتله بيدي.

انتفضَ من مكمنهِ وارتدّ عائداً وساقيه تقفزان كمهرٍ فَتِيّ: علينا أن نخليَ الدّار ونبحث عن مكانٍ آمنٍ لا يعرفه ذلك الخائن حتى لا يدلّ علينا الكتخدا.

تبعه الثلاثة وحسن يسأل: هل سننفّذ ما عزمنا عليه بالأمس؟

أجابه شرقاوي: ما من سبيلٍ آخر لنجاتنا وإنقاذ البلد كلّها،

آن الأوان للبحث عن السيد النقيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان منصور يتوقّع أن يأخذهُ الجنود لساحةِ الإعدام بمجردِ عودتهم للقلعة، لكنّه لم يحدث، بل وما أدهشه حقاً هو أنه نقل لجناحٍ فاخرٍ خدمة فندقيّة خمسة نجوم تقوم بها جواري حسناوات، قضى به ثلاثة أيامٍ من دون أنْ يرى الكتخدا أو يتحدّث إليه.

لا يمكن أن يكون هذا هو عقابهُ على الإخفاقِ في حصولِ الكتخدا على المركب! ترى ما هو الأمرُ العظيمُ الذي يريده منه ليؤجّل قتله ويغريه بكلّ أصناف المتع؟!

وفي اللّيلة الرّابعة ذهب إليه الكتخدا للقائهِ في جناحهِ الخاصّ، فشعرَ بقلبه يتقافز رعباً بين أضلعه، واحتمى بصمتهِ حتى لا يفضحه ارتعاشُ صوته، فقد حان دفع الثّمن.

قال الكتخدا عبر ترجمانه: أرجو أن تكونَ سعيداً ومرتاحاً في مقامك.

لم يتكلم، فقد كان ينتظر بترقّب أن ينتهيَ الكتخدا من تلك المقدّمات ليعرفَ ما الذي يريده منه، ربّما يريدهُ طعماً لاصطيادِ أصحابه الذين سرقوا المركب، أو يريده كبش فداءٍ يرسله للإنجليز!

كانت كلّ حركةٍ ولفتةٍ وكلمة تصدر من الكتخدا تذكّره بأبيه، فأخذ يسبّني في سره - أعلم جيداً كم يكرهني الآن بقدرِ توقعاته السوداويّة لما يريده منه الكتخدا - فهو أكثر مَن يدرك أسلوب أبيه عندما يريد أن يُخضعه ويقتل لديه كلّ محاولةٍ للمقاومة، فقد كان هذا الأسلوب هو ما اتّبعه معه لإجبارهِ على الزّواج من هالة، وهل أستطيع أن ألومَ والده؟! إن أرض الورشة التي ورثناها بسعرها الحالي عبارة عن كنزٍ مدفونٍ ينتظر من يستولي عليه، وأبو منصور قد يضحّي بأولاده جميعاً ليحصلَ على ذلك الكنز.

حسناً لنعد للكتخدا وما يريده من منصور، ولم يتأخّر عنه، فقد قال ومنصور يتابعه بوجلٍ ويستمع بصمت: من الرائع حقاً الالتقاء بشابٍ نابهٍ أزهريّ، ومن عائلةٍ كريمةٍ مثلك.

لم يستطع منصور أن يبتلعَ حرفاً واحداً مما يقوله الكتخدا، فهو أدرى النّاس بتلكَ النوعيّة من البشر التي فاقت الثّعابين نعومةً وتلوّي، وفي النّهاية لا يمكن الهروب من لدغتها المميتةَ.

أكمل: يمكنك الحصول على دارٍ كبيرة بالأزبكيّة، أو قصراً فاخراً، حتى لو كان مأهولاً فسآمر بإخراجِ أهله منه لتحصلَ عليه على الفور، حتى نبني لك قصراً خاصاً في أيّ مكانٍ تراه مناسباً لك ولعائلتك.

هزَّ منصور رأسه باستسلامٍ وقال بحذر: كرمٌ عظيمٌ من جنابِ الكتخدا، ولكن ما المقابل؟!

قال وبريقٌ ماكرٌ يشعُّ من عينيه: لا مقابل.

عجباً! هل لا يزال الكتخدا يأمل في أن يحضرَ منصور المركب السحريّ له؟! لقد تبدَّد هذا الأمل وطار، فحتى لو وصل إليها وعرف مكانها، فالشيخ سلامة والمجاورين حكموا عليه بالإعدام، ولو رآه مجاهد فسيأكل لحمه حياً، فهو الخائنُ في اللّعبة.

إذاً ما الذي يطمع فيه الكتخدا ليمنحه في المقابلِ كلّ تلك العطايا؟!

أكمل بلهجةِ احترامٍ بالغ: باشا مصر القادم لا بدّ وأن يكون له قصراً خاصاً يليق بمقامه.

يا ابن ال.....

يمكنك أن تتخيّل أبشع كلمات تعرفها في حياتك وتضعها مكان النّقط، بل لن أجدَ في قاموس الشتائم ما يمكن أن يعبَّر عما أشعر به من حقدٍ تجاه منصور.

ذلك الغبيّ الذي طلب من الترجمان إعادة ترجمة ما قاله الكتخدا خمس مراتٍ متتالية، فلا يجدُ أي تغيير - لكن البعيد لا يفهم! -

ما كنت أظنّ أبداً في أسوأ كوابيسي أن الأمور يمكن أن تصلَ لهذا الوضع، فعندما فكّرت أن شخصيةِ الكتخدا لاظوغلي أفضل من يعبّر عنها هو شخصٌ يحمل صفات عمّي الذي وضع كلّ تلك الخطط وفعل كلّ شيء بهدف الاستيلاءِ على ميراثنا ومعه هالة فوق البيعة كخادمةٍ مجانيةٍ بعقد زواجٍ من ابنه المحروس.

ما كنت أتخيّل وقتها أن هذا الرجل وابنه سيستوليان على لعبتي التي بذلت فيها عمري، ويتسيّدان التّاريخ الذي قضيت اللّيالي أتخيّله وأرسمه من وجهةِ نظري، بل ويغتصبا عرشي!

نعم أيّها القارئ، فما كنت لأبذلَ كل هذا الوقت والجهد في لعبةٍ إلا لو كان هدفي الوحيد منها...

(أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي)

فالهدفُ والغنيمةُ والجائزة الكبرى التي يسعى إليها كلّ من يعيش على تلك الأرض، هو عرشُ مصر.

حتى لو كان الأمر خيالاً أو لعبة في الموبايل، تظلّ رغبات البشرِ واحدةً لا تتغير.

لا تبدأ بالحقد عليّ أيها القارئ، فلست بدعاً من الخلق، فما من بشريٍّ وطأ تلك الأرض إلّا وتمّنى عرشَ مصر لنفسه، بل وسعى بكلّ طريقةٍ ليمتلكها، الأمر لا يتعلّق فقط بجيناتٍ فرعونيةٍ نرثها من سبعةِ آلاف سنة، بل بتلك الأرض العجيبة التي تُغري حتى العبيد والمماليك الذين يباعون في الأسواق، وتقبل بالرقيق المجلوبين من كلّ أنحاء العالم ليكونوا حكاماً وأسياداً فيها يمتلكون كلّ شيء فيها حتى أهلها.

لكن منصور الغبيّ ظلَّ يحدّق في الكتخدا غير مصدّق، بل قال صراحة: لم أفهم!

ضحك الكتخدا من ردِّ فعله، وقال: عندما أرسلت السعاة للجنرال ستيوارت حاكم رشيد باسمكَ وحكايتكَ ورغبتكَ في العودة لرشيد، لم يصل الردّ سوى اليوم.

تعلّقت عينا منصور بشفتيّ الكتخدا وقلبه يكادُ يتوقّف من الرعب.

فأكمل باسماً: وكان الردّ، أنزلوه منزلاً كريماً، فهو والي مصر القادم.

هزّ رأسه غير مصدّق: لا، هذا جنون، بالتأكيد لست أنا، فالجنرال لا يعرفني ولا...

انتبه أخيراً إلى حقيقةِ وضعه، فهتف بذهول: عبد العزيز؟! الخائن الذي...

أمسك لسانه القذر عن سبّي بعد أن رأى نظرات الكتخدا المرتابة، فابتلعَ باقي الكلمات في حلقه، ثم هتفَ باضطراب: تلك الولاية تابعة للسّلطان العثمانيّ لا الإنجليز، والأوامر والفرمانات بعزلِ أو تعيينِ الباشا تأتي من الأستانةِ لا من رشيد.

شرح له الوضع في كلماتٍ قليلة: بعض الأشياء تغيَّرت فيِ الآونة الأخيرة، فباقي رسالة الجنرال ستيوارت تقول أن الفرمان السلطانيّ بتعيينكَ في منصبِ الباشاوية سيأتي قريباً جداً من الأستانة، وربّما تهدأ بعده الأوضاع المضطربة بين السّلطان والإنجليز وتعود العلاقات كما كانت.

قال الكتخدا: يمكنك أن تأمرَ بما تريد وسينفّذ على الفور.

كان يحاول أن يستجمعَ أفكاره ويلملمَ أعصابه المشتّتة، لكنه قال بغباءٍ مطلق: أريد الرّحيل إلى رشيد الآن.

الغبي... ما زالت فكرة الهروب والسّفر تسيطر على عقلهِ الضّيق، من ذا الذي يأتيهِ عرش مصر ويهرب منه؟!

قال الكتخدا: ليس الآن أفندينا... فالقنصل الإنجليزي بالقاهرة سيأتي هنا ليلتقيَ بكم، أتأمرُ بشيءٍ آخر؟

هتف والجنون يزحف على عقله: لا تقل أفندينا، أنا لست باشا مصر.

تفحّصه بنظراتٍ متعجّبة، ثم قال: سأتركَكَ لترتاح، و ...

هتف بصوتٍ مضطرب: هالة، أريد أن أراها الآن.

ذوق زوج أختي عجيب، حوله كلّ هؤلاء الجواري ولا يختار سوى هالة!

لكنّه لم يصدّق أن أمرهُ حقاً مطاع إلا عندما وجدها أمامه على الفور، بل وتركوهما وحدهما أيضاً.

صرخت البلهاء وهي في جناحهِ الفاخر، بعد أن سكبَ أمامها القصَّة كلّها دون أن يتوقفَ وكأنّما يلقي بحملهِ الثقيل عليها: إن ما تقوله هو الجنون بعينه! إن من يطلب وظيفة في شركةِ اتصالاتٍ أو حتى عامل في سوبر ماركت لن ينالها إلا بطلوع الروح! فلا تقل لي أنكَ صرت باشا مصر خبط لزق! وكل من في البلد يأتمرون بأمرك!

- لا تتعجبوا، فأختي عقلها وضيعٌ وأحلامها متدنّية للغاية ـ

قال بصوتٍ مرتعش: ليس الأمر كما تظنّين، المطلوب للوظيفةِ في هذا التوقيت الحرج ليس حاكماً، بل لعبة، عروسة ماريونت يتحكّم في خيوطها جميع الأطراف الإنجليز والفرنسيين والسّلطان العثمانيّ، بل وحتى المماليك

المطلوب هو «شُرّابة خُرْج» لا يهشّ ولا ينش، حاكم ولاؤه الكامل للإنجليز ويأتمر بأمرهم ليكون رجلهم المخلص وجاسوس وشوكة في قلبِ السّلطنة العثمانيّة، ولا بأس من أن يضطرَ السّلطان بالقبولِ مؤقتاً به وهو مرغم، ويصدر فرمان بتنصيبهِ حتى يتّقي شرّ الإنجليز الذين يهدّدونه في عقر داره.

ولا يجب أن يكون واحداً من المماليك فتقوم بينهم الصّراعات ويتقاتلوا فيما بينهم، بل ويكون هيناً ليناً مع الفرنسيين كحاكمٍ مدنيٍّ أليفٍ ومهذّب، ويمنحهم بعض الامتيازات والمشاريع في مصر فيهدئهم ويعيد العلاقات الدبلوماسية.

وفي نفس الوقت يكون مسلماً والأفضل أزهريّ حتى يهدأ الناس ويقتنعوا بأنّ من يحكمهم هو واحدٌ منهم ملّته ملّتهم بل وفقيهٌ في دينهم، وإذا ما فكّر أحدهم أن يثورَ عليه منعوه وحرّموا الخروج على الحاكم، فيأمن الإنجليز شرّ الثّورات الشعبيَّة عليهم ويقبل النّاس في كلّ القطر بالوضعِ القائم، هم في ثغرِ رشيد يتحكّمون في كلّ طرقِ التّجارة الواصلة بين بريطانيا والهند، ورجلهم المخلص هنا في العاصمة يحمي ظهورهم ويؤمّن البلد ضدّ أيّ ثورةٍ تقوم عليهم... فهمتِ؟!

عجباً! عقل منصور منظمٌ للغاية، عريس أختي فهمَ أخيراً سرّ عبقريتي!

لم يكن اختياري لتلك الفترة التاريخيّة الحرجة من تاريخِ مصر اعتباطاً، بل عن وعيٍ وتفكيرٍ وتخطيطٍ ودراسة، ولهدفٍ محدّد، فبعد وصول الإنجليز للشواطئ المصرية فوجئوا بأن حليفهم محمد بك الألفي الذي يعتمدون عليه لمساعدتهم في الاستقرارِ في مصر ووعدوه بمنصبِ الباشاوية، مات قبل وصولهم بأربعين يوماً، فصارت خطّتهم في مهبِّ الريح، وهنا في تلك اللّحظات الفاصلة، أيّ شخص سيقفز أمامهم ويمنحهم الفرصة لدخولِ مصر ويؤمّن طريقهم فيها، سينعمون عليه بمنصبِ الباشا مكافأةً له على إخلاصهِ لهم، ولقد قدّمت لهم كلّ التّسهيلات اللّازمة لتحويلِ طريقهم إلى رشيد ومقامهم فيها إلى نزهةٍ سعيدةٍ أسهل من رحلة سفاري إلى «بيونس آيرس» كما كان «ميست» يعدّ الجنرال فريزر ويمنّيه بالاستيلاء على رشيد في الرسائلِ التي بينهم.

لقد سارت الخطّة العبقريّة التي وضعتها بمنتهى الدّقة والنّجاح، لكن مع تبديلٍ بسيطٍ حدث بخطأ غير مقصود، فاللّاعب الرئيسّي الذي يجبُ أن يكونَ الباشا أصبح منصور لا عبد العزيز.

حسناً... أظنّ أن القارئ يعذرني الآن ويتفهّم أسباب حقدي الشّديد على هالة ومنصور بعد أن سرقا منّي لعبتي وحلمي ومنصب الباشا.

أمّا هالة فقد فتحت فمها ببلاهةٍ وتجمّدت من الرعبِ عندما شرحَ لها الموقف بدقّة، وبقيت صامتةً لدقيقةٍ تحاول أن تستوعبَ كلّ تلك المفاجأت، حتى نهضت أخيراً وقد

ارتفعت درجة حرارة الخطر في دمائها إلى درجةِ الحمى، فقالت بخوف: علينا أن نهربَ إلى عالمنا، يجب أن نعودَ لرشيد الآن قبل أن يُحكموا حصارهم علينا ونصير كعقبِ السيجارة المنتهي، يدوسه كلّ المارّين بأحذيتهم.

- لا تتعجّب أيّها القارئ، فأختي فقرية، تعشق الفَقر وتفضل المرمطة في حواري رشيد ولعقِ جريد النّخل، على أن تكون زوجة الباشا على عرشِ مصر! لا تكمل قراءة قبل أن تقول سبحان الله ـ

التفت إليها بلهفةٍ ونظر في عينيها، كانت المرّة الأولى التي ينظر فيها مباشرةً في عينيها حتّى أنّه انتبه للونهما العسليّ الداكن الأقرب للسّواد، حتّى في اللّيلة التي اقترب منها فيها على السلّم، لم يكن ينظر في عينيها ولم ينتبه للحنان والرقّة المختفية بين ثنايا روحها.

- ليست تلك كلماتي ولا وصفي فلا تنخدع أيّها القارئ، إنما أصف ما يشعر به ذلك الأحمق تلك اللّحظة والتي تحوَّلت لرومانسية بغيضة ـ

لم يستطع أن يخفيَ عنها خوفه وضعفه، بل فضحته ملامحه وهدير أنفاسه وصوته وعيناه وقطرات العرقِ التي نضحَ بها جبينه: لماذا تجمعين نفسك معي؟!

رفعت يدها اليسرى أمام عينيهِ لتريه خاتمه الملتفّ حول بنصرها، وقالت بعتاب: إن كنتَ نسيت هذا، فبالتأكيد لم تنسَ أن مصيرنا واحدٌ وعالمنا واحد، ويجب أن نعودَ معاً قبل أن نموت هنا معاً.

- الشبشب تحب! حسناً... إنّه الرجل الوحيد الذي صادته وليست مستعدّة للتنازلِ عنه، لكن الخبيثة أصابته بسهم نافذ، فالنذل تأثّر بكلماتها إلى درجةِ أن الدّماء لوَّنت جبينه ووجهه والدّمع قفزَ إلى عينيه، كم تمنّى لحظتها أن يبكيَ بين يديها، فتلك هي المرّة الأولى في عمرهِ كلّه التي يشعر فيها بأن أحداً يضع نفسه معه برغبتهِ في نفسِ دائرةِ النار التي أحاطت به...لأوّل مرةٍ في حياته لا يكون وحيداً.

تمالكت نفسها وقالت: ألست الباشا؟ إذا فلتأمر الكتخدا بأن يأخذنا لرشيد.

قال بأسى: لقد رفض، لا زلت لا تفهمين الوضع على حقيقته، إنّه لا ينفّذ أوامري أنا، بل ينفّذ أوامرَ الإنجليز، أنا هنا مجرّد موظفٍ أفعل ما يُمليه عليّ.

هتفت: أنت الباشا!

قال بأسى: الباشا منذ مئات السّنين ما هو إلا موظفٌ عيَّنه السّلطان العثمانيّ على الولايةِ لجبايةِ الضَّرائب والأموال من أهلِ الولاية وإرسالها إلى الأستانة، وليس له أن يفعلَ أيّ شيءٍ دون إذنِ السّلطان، بل لا يحقّ له أن يبقى في الولايةِ أكثر من ثلاثِ سنوات وبعدها يتمّ تبديله بآخر، كي لا يفكّر يوماً أن يستقلّ بالولاية.

قالت: فلنحاول خداعه.

قال بمرارة: تريدين خداع لاظوغلي؟! ترويض ثعبان أسهل، حتى عمر مكرم بما له من ظهير شعبيٍّ كاسحٍ لم يستطع الإفلات من مؤامراته الخبيثة.

همست في أذنهِ بخوف: ششت، عمر مكرم سجينٌ هنا في القلعة.

انتفضَ من المفاجأةِ وكادَ يقول شيئاً، فوضعت كفّها على فمهِ حتى لا يسمعهما أحد، وقالت هامسة: سمعت العبيد والخدم يتهامسون بالخبر، الكتخدا اختطفهُ وسجنه في جبٍّ هنا يوم أن دخلَ الإنجليز رشيد منتصرين.

احترقت نفسه غضباً: أخوك المجرم خربها.

قالت: دعكَ منه، علينا أن نهربَ بأيّ وسيلةٍ إلى رشيد.

قال: لن نستطيع «مسيت» الملحق العسكريّ بالقاهرة قادمٌ الآن ليلتقي بي، والكتخدا لن يتركني لحظةً من دونِ جندٍ أو حراسة.

قالت بإصرار: يجب أن نرحلَ من هذا المكانِ رغماً عنه، سيضغط عليك بكلّ الوسائل حتي ترضخَ له وتنفّذ كلّ أمرٍ قذرٍ يأمركَ به، وعندها ستصبح منديله الذي يمسحُ فيه كل قذاراته.

أمسك بذراعيها وهزّها: اخفضي صوتك فنحن تحت رحمته هنا، ولن يفلحَ أبداً أسلوب الثّورة الحنجورية، افهمي وضعكِ جيداً فنحن لا نملك أيّ خيارات.

خفضت صوتها وقالت بغلّ: بل نملك الكثير، يجب أن تقول لا.

-أيّتها الغبية، لو قُلْتُ لا ستقضين بقيةَ عمركِ أمةً في حاشيةِ واحدٍ من العسكرِ أو الأعيان يفعل بك ما يشاء.

قالت وهي تطحن ضروسها: ولو قُلْتَ نعم ستنالُ نفس المصير، ستصبح عبداً للكتخدا يفعل بك ما يشاء.

صمت أمام منطقها، يعلم جيداً أنّها محقّة، عجباً...! كيف تستطيع هالة بلسانها السّليط أن تخرسَ من أمامها؟! كانت تستولي على عقلِ أبي وتجعله ينفّذ رغباتها كما لو كانت أمراً واجب النّفاذ، والآن لا يستطيع منصور أن ينكرَ أنها محقّة، واستغلّت هي صمته لتكمل: لنهربَ من هنا ونعد للمجاورين، إنّهم أصحابك الذين أنقذوك، ويمكنهم مساعدتنا على العودةِ لرشيد.

قال بيأس: أنت تحلمين، فهم يظنّون أنني خائن، وسيقتلونني دون أن يسمعوا.

قالت: إذاً فقد حسمتَ أمركَ وسترضخ له!

-ما من سبيلٍ أمامي سوى هذا.

-لم يكن هذا ما قلته لي! لقد كان اتفاقنا أن نساومهم على المركب، لا أن تبيعَ لهم روحك.

أوجعته كلمتها وأصابته في مقتل، لكنّه وارى ألمه كما يفعل دائماً، فما الفارقُ إن باعَ روحه لأبيهِ أو الكتخدا أو حتى الشيطان، ففي كلّ الأحوال روحه بلا ثمن...! إنه أقل بكثير من أن يقاوم.

قال: ما من سبيلٍ للخروجِ من هنا، قلعة الجبل الدّاخل فيها مفقودٌ والخارج مولود.

لم يعد بإمكانها الحديث، فقد حضرَ الكتخدا ليجهزه للقاءِ الإنجليزي، فطلب الإذن بالدّخول، وما كان لمنصور أن يدعه واقفاً بالباب، فهو وهي يعلمان بأن تلك التّقاليد ما هي إلا غلاف لكتابٍ انقلبَ فيه كلّ شيءٍ للضدّ.

ولم يستطع أن يفعلَ شيئاً سوى صرف هالة من المكان.

ودَّعته بعينين دامعتينٍ وقلبٍ يكادُ يتفتّت خوفاً، كان أكثر ما يرعبها هو أن يحوّله الكتخدا إلى وحشٍ سفّاك للدّماء، في الوقتِ القصيرِ الذي قضته معه عرفت أنّه إنسانٌ طيب.

عادت هالة لغرفتها التي يحرسها بها جارية لا تفارقها، وهي تعلم جيداً أنّها تراقبها وتعد عليها أنفاسها، ورغم هذا انفجرت في البكاءِ ولم تأبَه لها، ولكن بعد فترةٍ قصيرة، دخلت عليها إحدى الجواري ومعها هدية من الباشا في علبةٍ خشبيةٍ أنيقةٍ مزيّنة، ومعها أمرٌ مباشرٌ بالتَّجهزِ والعودةِ في التوّ لأهلها.

لم تستطع أن تستوعبَ الموقف بسرعة، لكنّها بعد أن فكّرت قليلاً، أدركت أن منصور يبعدها عن دائرةِ النّار ويكتفي بسقوطهِ وحيداً فيها، اشتعلت دماؤها بالغضبِ وحاولت الخروج من غرفتها للذّهاب لجناحه، لكن الجواري عملوا على منعها، فالأوامرُ تقتضي أن تخرجَ الآن من القلعة.

استسلمت، فلم تكن تملك شيئاً سوى نقمتها الشديدة على منصور، أخذت الهديّة وركبت العربة الأنيقة، ونزلت لِسعة كرباج العربجي على قلبها فأدمته وهي تحاول أن تتبعَ بنظرها نوافذ القصر علّها تراه، حتى غادرت العربة أسوار القلعة ودموعها لا تتوقّف وقد انقطع كلّ أملٍ لها بأن تراه ثانية.

اثنان ضاعا في عالمٍ غريبٍ ليس لهما مكان فيه، فاستسلمت للشعورِ بالضَّياع ولم تحاول حتى أن تفكرَ في المكان الذي يمكن أن تذهبَ إليه.

لكن منصور فكَّر نيابة عنها، وأهداها الوسيلة التي يمكن أن تعودَ بها لمركبها ولعالمها.

النذل آثرها على نفسه، لكن الغبيّة لم تفهم هذا إلا عندما فتحت العلبة الخشبيّة المزيّنة التي أرسلها لها كهدية، فوجدت بداخلها الموبايل، فانخرطت في البكاءِ والنحيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن عليَّ أن أساعدها مضطراً حتى لا يتَّهمني القارئ بأنني أخُ نذل، فعندما اتَّصلت بي أرشدتها إلى مكانِ مركبها الذي يظهر على خريطةِ اللابتوب كنقطةٍ حمراء، فنزلت من العربة، وأكملت الطَّريق على قدميها عدواً حتى وصلت ساحل بولاق، وأعطيتها كلّ الإرشادات المطلوبة لتلتقي بالمركبِ الذي كان بالفعل قد انطلقَ في النّيل، وبه الشّيخ سلامة الذي تركَ زوجته عند أقاربها في الجمالية ومعها حورية، وانضمّ إلى شبابِ المجاورين ومعهم الرحالة عبد الله وترجمانه.

- لا تقلق عزيزي القارئ على مركبنا، يستطيع أن يحمل تسعة أفراد وأكثر، فمراكب الرشايدة تطوَّرت للغاية وصارت أكثر تحمُّلا بعد أن تحوَّلت لمعدية ما بين قارّتين للشباب المهاجرين -

صرخَ مجاهد في حسن أن يوقفَ المركب عندما سمع صوتاً يناديه.

عرفها على الفورِ من طريقةِ نطقِ اسمه، هي الوحيدةُ التي تناديه «بجيم» أجنبيّة غير التي يتحدّث بها.

اتّجه حسن للشاطئ على الفور، فقفزَ مجاهد إليها، وتبعه الشيخ سلامة ليعرفَ أخبارِ ولده الخائن، وكانت هالة تثقُ بأنَّ مجاهد سيسمعها، ويصبر عليها حتى تحكي له كلّ شيء، بل ومنعَ عنها غضب الشّيخ سلامة وأقنعه بأنّ الفتاة لا ذنبَ لها، لكنّها لم تستطع أن تقنعهما بأن منصور بريء. وكيف يصدّقان ذلك الهراء وقد تحوّل الخائن لباشا رسمياً؟!

وعرفوا أن السيد عمر النقيب سجين في جبٍّ في قلعةِ الجبل، بل إن الإثبات الرسميّ لخيانته قد أطبقَ عليهم في ساعةِ نحس، ليجدوا فرقةً من الجنودِ قد أحاطت بهم للتوّ.

لا تسئ الظنّ بي أيّها القارئ، لست أنا من فعلها، فبعد دخول منصور اللّعبة لم يعد لي أيّ تحكم فيها، لكن ما أثلج صدري حقاً هو أن هالة صارت في نظرِ الجميع خائنة، وهيَ التي دلّت عسكر الباشا على مكانِ المركب والمجاورين - إحم... تقريباً صحيح -

فالكتخدا لا يترك ناموسة تمرّ من أسفلِ أنفهِ دون أن يعرفَ من أين أتت وإلى أين تتّجه، إنّه أعظم رجلِ أمنٍ عرفته البشريّة، أليس أدلّ على ذلك أن صورته الحقيقية لم تصل إلينا بعد مئات السنين، بل إنّ التّمثال الذي صنعوه له لم يكن هو، بل أتوا بشخصٍ آخرٍ يقال أنّه يشبهه.

الكتخدا أسقط المركب والعرّافة والمجاورين والشّيخ سلامة الذي يبحث عنه الإنجليز بضربةٍ واحدة، لكن مجاهد كعادته رفضَ الاستسلام للعسكر، وكذلك الشَّيخ سلامة، ممّا فجّر في المكانِ معركةً ضاريةً بين الجنودِ والمجاورين، وانضمَّت هالة لهم تقاوم بكلِّ ما لديها من حقدٍ وغلٍّ على ذلك العالم المتوحش الذي سرقَ منها منصور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل حزنت عزيزي القارئ وتعاطفت مع هالة؟!

لا تنخدع بالظَّاهر، قلت سابقاً أن هالة عندما يكون ظهرها للجدار تتحوَّل لكائنٍ مفترٍ لا حلّ له.

عندما يصل الإنسان لأقصى لحظاتِ اليأس ويتساوى عنده الموت والحياة، يفقد إحساسهُ بالخوف وتهون الحياة في عينيه وعندها يُقدم على أيّ شيءٍ مهما كان مستحيلاً، ففي لحظةِ يأسٍ كهذه أغرقت هالة البرنس وخرجت هي من تحت الماء حيّة.

بعكسِ منصور الذي سقط بين براثن شبيهِ أبيه، فقد صار رقيق عند الكتخدا يفعل به ما شاء ويجبره على فعلِ أيّ شيء، وليس هذا فحسب، بل إن الفتاة التي سمع قلبه صدى كلماتها، وهي الوحيدةُ التي تفهمه وتتحدَّث لغته في هذا العالم العجيب، قد افترقت عنه.

أهناك ما هو أسوأ؟! مع شخصية كالكتخدا لا حدود للأسوأ، فعمر مكرم البطل الشعبيّ التاريخيّ يقبع تحته في زنزانةٍ انفراديّة ينتظر في أيّ لحظةٍ أن يدخل عليه المشاعلي (6) لينفذَ فيه حكم الإعدام بأمرٍ من الكتخدا.

أملهُ الوحيد في النَّجاة بروحهِ هو أن يفيَ الكتخدا يوماً بوعدهِ ويتركه يذهب إلى رشيد لعلّه يستطيع الوصول لبوابةِ العودة لعالمهِ أو يلقى حتفه تحت الماء.

لكنه يعلم جيداً أنّه لن يفيَ أبداً بوعده، فقد اتّفق مع الإنجليزيّ مسيت في المجلس الذي حضره على أن يتمّ دعوة الأمراء المماليك إلى القلعة هذا اليوم لتهنئةِ الباشا الجديد على لبسِ خلعة الولاية، وإتمام المصالحة بينه وبين الأمراء برعايةٍ إنجليزية، لكنّه سيضطر للرّحيل مبكراً ليسافر للقاءِ الجنرال فريزر في رشيد.

تطلَّع للسماءِ من خلفِ قضبان حديدِ نافذته، فرأى خيوط النّهار تتبدّى من بين خيوط اللَّيل البهيم، لكنّه لم يكن كأيّ نهارٍ عاديّ، بل نهارٌ مشبعٌ برائحةِ الموت.

كان يراقب وفود الأمراء المماليك وهم يدخلون من بابِ القلعة على خيولهم في أبهى زينتهم وملابسهم المقصّبة والمرصَّعة بالجواهرِ وحولهم عبيدهم في موكبٍ عظيم.

لكن الجوّ كالحٌ بشدَّةٍ والسَّماء باهتة، والهواء مشبع بزرقةٍ عجيبة تتناثر فيها شذرات فيروزيّة غريبة.

- هل صار زوج أختي خارج الزون؟! ـ

لم أكن مهتماً بأمرِ هؤلاء المماليك ولا ما سيحدث لهم، ولم يكن أمر منصور يشغلني، فليذهب هو وهي إلى الجحيم ولن تهتزَّ شعرة واحدة في رأسي، ما كان يشغلني حقاً هو ذلك التنبيه الذي ظهر على شاشةِ اللابتوب بأن البطارية أوشكت على النَّفاذ، كيف لم أنتبه على علامةِ الطَّاقة التي تناقصت سريعاً جداً؟! هل شغلتني اللّعبة المثيرة عن الانتباه إلى شحن اللابتوب؟!

بالفعل كانت اللّعبة الأكثر إثارة على الإطلاقِ على مدارِ عمري الذي أنفقته في إدمانِ الألعاب ومطاردتها وتعلّم برمجتها.

شاشة اللاب توب ستظلمُ بعد ثوانٍ وأنا لا أملك أيّ مصدرٍ للطَّاقة وأنا على البحرِ أجلس في سيارة منصور في تلك السَّاعة من اللَّيل ولا أحد حولي ولم أتعلّم القيادة، وحتى لو تعلمت، فلا فائدة لأنّ مفاتيح السيّارة ليست معي.

تجمّدت نظراتي على الشَّاشة المُظلمة، وكبدي يكادُ يتفتّت من الغيظ، كيف لا أعرف ما الذي سيحدث لهالة؟! وكيف لا أرى ماذا سيفعل الكتخدا بمنصور؟! بل ماذا سيفعل بالمماليك وهو المعروفُ في التاريخِ الحقيقيّ بأنّه المخطّط والمدبّر لسحقهم في مذبحةِ القلعة.

مضطر لأن أقولها آسفاً...

عليك الانتظار عزيزي القارئ حتّى أجدَ مصدراً للطّاقة أضعُ به شاحن اللابتوب لأستطيعَ استكمال اللّعبة ومن ثمّ الحكاية...

وحتّى ذلك الحين...

ابقَ قريباً

٨ يناير ٢٠٢٢

٤جمادى الآخرة١٤٤٣

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

**(تمت بحمد الله وتوفيقه)**

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

**Group Link – لينك الانضمام الى الجروب**

**Link – لينك القنـــــاة**

# الفهرس..


عن الرواية..

إهداء..

ما قبل المقدمة

مقدمة

ساحرة

الجنيّة

النّداهة

اللاعبة

العرَّافة

الأسيرة

المولد

المجنونة

القاتلة

الجارية

الحمقاء

الراوية

النيران

الكتخدا

# Notes

[←1]

(1)الخوند: لقب كان يطلق على نساء الأمراء والطبقة الراقية.

[←2]

(2) فرق من الجند العثمانيين.

[←3]

(3) الجنود الألبان.

[←4]

(4) ويقصد بهم الطّبقة المتوسطة وفوق المتوسطة من المجتمع.

[←5]

(5) الجبخانة: مخزن العتاد الحربي والمواد الحربية كالمتفجرات.

[←6]

(6)المشاعلي: الموكّل بتنفيذِ حكم قطع الرّقبة والجلد بأمرِ الباشا.